دار الكنزي النشر والتوزيع

فتاة ليل

أمنية عصام

دار الكنزي النشر والتوزيع

دار الكنزي للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

محمد صلاح شديد

المدير العام

إيناس الدسوقي

الطبعة الأولى

الكتاب: فتاة ليل

المؤلف: أمنية عصام

تصنيف الكتاب:

تصميم الغلاف: إسلام مجاهد

المقاس:

رقم الإيداع:

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01003897918
Alkanzy.co@gmail.com
Facebook.com/Alkanzy.com
للمؤلف محفوظة الحقوق جميع

قال القُرّاء عن الرواية.

"السبب الذي جعلي اقرأ هذه الرواية؛ أنني قرأت منشور عنها، وقيل فيهأن الرواية كُتبت بعد تقمُّص لشخصيات فتيات الليل، وتغلغل في هذا العالم لتوصِّل صورة حقيقيّة، كما أنّ هذا الموضوع ليس له الحق الكامل للنقاش" **مَها**

"لم يُناقشْ أحد موضوع فتيات الليل بهذه الطريقة" **سارة**

"رواية فتاة ليل لأمنية عصام، الجزء الأول من الثُلاثية تتحدَّث عن فتيات الليل، والظروف التي تسببت في تكوين شخصيتهم. أعتبر شخصيًا أن هذا العمل الجريء تحدَّث عن هذا المجتمع الليلي، وعن ظروفه ومتاعبه، لكن على الرغم من هذا فالرواية لا تحمل أيَّ لفظ أو مشهد خارج عن الآداب العامة"

أروي عبيد

"بداية الرواية رائعة، وأسلوب الكتابة جميل، كأول تجربة. طريقة سرد الأحداث تجعل القارئ يعيش داخل الرواية، الرواية عامةً تجذب القارئ، وتجعله شغوفًا لينتهي منها، ومنتظرًا الأجزاء الأخرى لها"

سارة هشام

"تجسيد رائع لشخصية فتاة الليل. اقتربت الرواية وبشدة لشخصية البطلة. كاميرا التصوير عالية الجودة تنقل لنا حال الفتاة البائسة، والمدهش أنها تبيُّن أنّ ليس كل ما تُفكر فيه الجنس، الرواية تتحدث عن أمر مُثير بل مُثير جدًا، وعرض الجزء المخبئ في فتاة الليل؛ التحليل النفسي الأخير هو الجزء الأهم"

محمَّد السيّد

"الرواية مكتوبة بإسلوب جيد جدًا" **الكاتب محمُود أمين**

"محتوى الكتاب يختلف عما قد يستنتجه القارئ من اسم الرواية" **الكاتب مُحمد صادق**

"أعجبتني بشدة المواضيع الجريئة التي تطرحها الرواية، والمستوحاة من أحداث حقيقية، فهذا يدُل على الفكرة الجيدة التي تود الرواية إبرازها. كما يُوضّح الجهد في الرواية، وأقوال فتيات الليل أنفُسهم، و المصادر خامة ممتازة جدًا" **عبد الرحمَن نصر**

"قرأتُ روايتي فتاة ليل، وعلاقات سريَّة، الجزء الثاني من السلسلة. أشعر أنها وبطريقة ما، لا أعرف كيف، تأخُذني إلى هذا العالم فتجذبني، تشدّني فأشعر أنني داخله وأحزن عندما أصل لآخر صفحة كأن الدُنيا انتهت، فأُعيد القراءة مجددًا" **محمد العدوي**

"أحداث الرواية غلبت توقعاتي" **ابْتسام مُحمَّد**

"من خلال هذه الرواية ينظر القارئ إلى حياة فتيات الليل بصورة أكثر وضوحًا، فيكتشف المزيد عن حياتهن، وما يُعانيه الفتيات من معاناة نفسيَّة واجتماعية ألقت بهم في ذاك المسار المؤسف"**ناني عَبد الغني**

"قرأتُ رواية فتاة ليل، وعلاقات سرية الجزء الثاني منها بعد ذلك عجزتُ عن تقييم رواية فتاة ليل إذ أن الأفكار في تلك الرواية غريزة، وكثيفة بشكل لا يُصدقه القارئ، وبالفعل السلسلة تعتمدُ على هذه الرواية. عند القراءة للمرة الأولى ستشعر بالتشويق والإثارة مع جريان الأحداث، ثم تتصادم بالنهاية التي تعود، وتجبرك على إعادة قراءة الرواية بتركيز شديد مع كل سطر وكلمة فيها حتى تُجيد تحليل شخصية فتاة الليل" **شيماء**

"العمل كأنه دراسة عن بنات الليل". **نيفين – فلسطين**

"أرغب في مقابلة أبطال الثُلاثية خاصةً سارة" **أحمد**

"حطَّمت رواية فتاة ليل الأرقام القياسيّة في التحميل على موقع عصير كتب"

على – أحد مالكي موقع عصير كتب للنشر الإلكترونيّ

نبذة عن تاريخ الدعارة

منذ القرن السابع عشر حتى ستينات القرن العشرين لم تكن سارة قد نُسلت بعد، لكن المؤشرات كانت تُطارح إلى أن الغالبية من مثل سارة وغيرهن من النساء اللواتي يُبايعن جسدهن لمقابل حسِّي، وأحيانًا أخرى دون مقابل سوف يقدمون على الحياة.

بدأ الأمر في القرن السابع عشر، حينما كانت الحكومة تخُطّ ألقاب الرجال والنساء المكتنزات الجسد من البغايا؛ من أجل تحصيل الضرائب منهم، كان أحرَّ سعر لليلة وصل إلى "الشلن"، وقتها كان جُوع جهير يغزو الربوع، وكان السعر باهظٌ للغاية بسبب إرْغام وقهر الضرائب.

كانت ربوع ودُور الدعارة وقتها شائعة كحصي التراب، ويُذاع صيتها مثل (باب الشعرية والأزبكية وعرب المحمدي) أما الحسناوات فكان أشهرهن تداولًا (بهية الزايطة، وزينب الفطاطرية، وفطومة الإسكندرانية، وبمبة العربجية، والسيدة فُلة ونبيَّه طرطور) ولقبوا بنجوم الصنعة، لأنهن مارسن الدعارة بشكل قانوني مُباحٌ، ومتقن، وتحت سمع وبصر، ومشاركة، ورؤية بوليس الآداب لعشرات السنين، فكان متوسط أعمارهم ثمانية وعشرون عام.

تبدأ سهراتهم بالزهزقة، والمغازلات، والنظرات المبطنة، وتشتعل الإثارة عندما يحضر أحدهم "الطبل البلدي" فتطرح النساء، وتتلوى أمامأعيُن الجائعين، كان لهم ملابس مخصصة، والدخول بالتذكرة أثناء الحملة الفرنسية وكان مُباح للضباط الفرنسيين مجانًا. كانت ترخيص البيوت لصبايا الليل بحجة السكن ومنها (باب الشعرية) بضمان اسم، ولقب صاحب المحل، من بين الأسماء المشهورة وقتها سلمى الراية، كانت الرخصة تتم طبقا لمقتضى المادة (16) من لائحة (نسوة العاهرات) الصادر عليها مجلس النظار.

بعد ذلك، يحق لصاحب الرخصة أن يمتلك المحل بعد ثلاثة أشهر، ألغيت هذه الرخصة عام 1949، ولم يطالب أحدبإعادة التصاريح سوى (إيناس الدغيدي) متناسية دورها أحيانًا كمخرجة؛ أما الحكومة المصرية منعت النقاش، كما أغلقت دفاترها حول قضايا النسوة التي ذُكر أسمائهن بالأعلى؛ لذا أصبح الحديث عن فتيات الليل أمر شائك.

أشهر من ناقش هذه القضية بصورة أدبية نجيب محفوظ من العرب، وباولو كويلو من الغرب.

انتشرت الدعارة في مصر عند فتح العرب لها، وبقيت مباحة إلى أن انفجرت الظاهرة في عصر الملك (عبد العزيز بالله عماد الدين) في أواخر القرن السادس الهجرى. الآن؛ الدعارة في مصر فعلٌ خترج

عن القانون، وإن كانت قانونية في الماضى إلى ما قبل ثورة يوليو بوقت قصير، وقد كان أول تسجيل للبغايا في مصر في القرن السابع؛ حيث جرى التسجيل في مقر الصوباشي أو رئيس الشرطة.

أبقي (محمد علي) على ضريبة البغاء بعض الوقت، ثم ألغاها عام 1837 ومن ثم خضع البغاء للتسجيل، والتنظيم؛ تطبيقًا للائحة التي سميت (تعليمات بيوت الدعارة) والتي استمر العمل بها حتى ألغيت عام 1949، وفي عام 1951 أصبح البغاء بكل أشكاله أمرٌ خارق للقانون.

حاليًا، توطَّنت بيوت الدعارة المناطق الراقية مثل (مدينة نصر، و الدقى، المهندسين، شرم الشيخ، الغردقة، السادس من أكتوبر) وفي هذه الرواية، نقتحم هذه البيوت، ونرفع الستار عن عدة شخصيات من مختلف الطبقات.

تَصْدِير

كانت الساعة الحادية عشر وإحدى عشر دقيقة؛ عندما شرعت في كتابة هذه الصفحة. أجلس في الشرفة، أراقب الشوارع المظلمة من الطابق العاشر؛ حيث انعدمت الأضواء في الأسفل. أحس برياح باردة تلفح وجنتيّ، وتملئ رئتي بهواء مُنعشٍ خالٍ من عوادم السيارات. أعلم أن هذا الشارع تحمل أرضه حُقن مُخدرات، كما أعلم طبيعة الناس الذين يعيشون هنا. أعلم أمر حادث الحريق المدبر الذي حدث في البناية المقابلة، كما أعلم بشأن السارق الذي تسلل للبناية المجاورة للسابقة. أعلم قصة الخادمة التي تُخفي النقود الورقية تحت السجاد بعد سرقتها، وترحل بها لتُبدلها من الصرافة، فقد أقمت معها بضعة أيام. علمت أيضًا قصة الدجال الذي يسكُن أعلاي، لا أخفيكم سرا؛ إنّه يُربكني بعض الشيء عندما يجلس في شقتي، يأتي بأشباحه معه. قصص الساكنين في هذا الشارع قيد إحاطتي، لكني أحاول التعايش معهم. أتحدث معهم من وقت لآخر، لأدرك حياتهم وأسرارهم؛ لكنهم لا يعلمون عني شيئًا، سوي أني أقرأ الكتب بنهم. لا يعلمون أني أستطيع قراءة الناس من أول نظرة، أتعرّف على أفكارهم الخبيثة، وأتنبأ بإيمائتهم وحديثهم، لذا من السهل عليّ معرفة أسرار حياتهم الدفينة. أعتقد أني أشكل لهم نوعًا من الخطر، أثير القلق في نفوسهم؛ لكني أحاول معالجة الأمور، أحاول إيجاد حلول، فالأمر عسير يحتاج لدراسة.

أعيش في هذا المنزل الغريب، أجلس مع خمس نساء ورجل تربطني بهم صلة قرابة متينة. قصتنا كانت أشبه بمسلسل (راجل وست ستات) الذي لا يعلم الكثير من المشاهدين أن المسلسل مُقتبس من قصة حقيقيّة!

في المساء؛ أتسلل خارج الشقة، أسير في الرواق المحتوي على ثلاث شقق. شقة أسكنها لبضع أيام، وسأرحل عنها عما قريب، وشقة صاحبها يسافر لدول الخليج، لديه بعض المشاكل مع زوجته وابنته، وشقة ثالثة بابها مفتوح دائمًا؛ أثاثها ضخم، وحوائطها مطليّة بطلاء أحمر. أستطيع سماع الموسيقي الهادئة من الداخل، كما أستطيع تخيل نوعيّة الأفلام التي يشاهدونها. ذات ليلة، تسللت للشقة، فلمحت رجل وامرأة في غرفة يتبادلون الحب، ومن ثم تفاجأت بثنائي آخر في الغرفة المجاورة، لم أكنْ يومًا مُتلصصة؛ لكن هذه الشقة كانت مثيرة للفضول.

عرفت أنها شقة دعارة، و كشفت بعض أسرار المجاورين حتى أشعر بالأمان في هذا الشارع، فالشارع لا يهدأ من الجرائم، وفي كل شقة هناك أمر ما، هناك سرٌ ما.

انتهت القصص، وكُشِفت الأسرار على مدار السنين التي كنتُ اتنقل فيها من منزل لمنزل، و من محافظة للأخرى، ومن بلد للأخرى، ومن قارة للأخرى، ومن لغة للأخرى. دوّنتُ هذا، وما كان عليّ سوى البدء من القاع السحيق، البداية التي يُخفيها الجميع من هؤلاء، لذا قررت أن أكتب رواية، سأُقسمُها لأجزاء، الجنس، ثمّ العاطفة، ثمّ العقل، ثمّ الجسد، ثم الروح. بهذا يكتمل الإنسان، وإذا اختفى جزء من الأجزاء السابقة حدث الخلل، الإضطراب، ووقع في الضياع. اكتبُ هذه الرواية من جوار شقّة دعارة، من إحدى شوارع القاهرة التي أعلم بشقق الدعارة وأماكن الخناسين فيها، وأخيرًا، فتاة الليل.

2016/8/5

الكاتبة

فَتاة لَيْل

الرواية الأولى من ثُلاثيّة الجنس

ترمُز الثلاثية للقوة الأولى في الطبيعة

الماء[1]

فهو أساس الخلق، والكون

كالبحر تكون، يرون السطح؛ لكن باطنه مكنون

من الخارج تشهد سكون؛ لكنه دوّامة تُطيحك بجنون

تراه شفافًا، وهو يعكس ألف لون ولون

(1): الماء أول عنصر كُوِّنت الأرض منه، وأكبر عناصر الطبيعة وأقواهم (تغلّبت قوي الماء على عناصر الطبيعة أثناء العصر الجليديّ)، فالماء أكثرهم قسوة ولين في الوقت نفسه، واعتبر عنصرًا أساسيًا لخلق الكون في الكتب المُقدّسة، وفيه اجتمعت صفات الحياة لأنه يمثل المادة الكونيّة.

بسمِ الله الرحمَن الرحيم

أبدأ بجملة واحدة

فربُّ البيتُ واحدٌ

والأرضُ واحدة

قمرها واحد

وشمسها واحدة

خُلِق الإنسان من نفسٍ واحدة

وكان الناس أمة واحدة

الديانة واحدة

وأول ما نُزل على الرسول كانت كلمة واحدة

أبدأ السلسة بروايتي الأولى، التي تحكى عن بطلة واحدة، وشخصية واحدة، فالعددُ واحد بداية كل شيء. . .

طَليعة الحكاية؛ 24 من ديسمبر سنة 2004

سارة

استيقظت سارة من ثباتها، لتلقى نفسها على مرقدِها، تجتاحها انفعالات مكروبة، هبت فزعة، لا تصحو دومًا بمزاجٍ كئيب، لكنه ما يروادها أغلب الوقت.

تنهَّدت المُستضعفة في الأرض، شعرت بنبض قلبها الغاص في باطن حلقها يدق باضْطراب، وأنفاسها تختطف. انْتفضت لتبصر نفسَها في المرآة، لترى وجهها وعينيها، كانت بنت الحرام مليحة القسمات، جمالها البهي أشبه بقالب القلب؛ كأنها مصممة خصيصًا لجذب الرجال.

أبصرت سارة امرأة قاربت الثلاثينات من العمر في مرآتها اللعينة، هذه المرآة التي لا تعكس سوى تجاعيد الدهر المنقوشة على وجهها. التحقت سارة بكلية الطب البشري منذ سنوات؛ تفوَقت في سنواتها الثلاث الأولى؛ لكن بعد ذلك تبدَلت حياتها، وانقلبت رأسًا على عقب. صارعت سارة الظروف بمتانة النفس، ورباطة الجأش فجاوزت العقبات، تواترت السنة بعد السنة، وبين الأتي وسابقه فترة ومُهلة، حتى التحقت بكلية الطب، وطمحت أن تصبح طالبة إمتياز.

شبّت سارة لا تفطن شيئًا عن والدها، فحينما كانت تسأل والدتها عنه، كانت تخبرها أنه توفى. كثيرًا ما سمعت أقوال عن والدتها، وسيرها المنحرف من زُملائها، وجيرانها، وأدركت عالم الليل والدعارة في وقت مُبكر من حياتها، فعندما كانت تتطلع إلى التلفاز، كانت تُشاهد أفلام للكبار،و ممثلين الأغراء، لكنها كانت رافضة لهذا الوضع.

منذ عدة أشهر؛ عندما علمت سارة أن والدتها قضت نحبها، قررت أن تطبق غرفة والدتها، وتطَوي صفحتها المضطربة بكل غصَّة وكمد، ظنت أن الأمر انتهى، لكنها تذكرت كل شئ عندما مرت في رواق الشقة، ولمحت مخرج الباب مغمَّض، فلازمها الحزن، وايقظت المآسي كوامن الشجن.

في الصالة الفسيحة؛ أبصرت الساعة وهي تدُق الثالثة صباحًا، لم تكترث،فاليوم ليس لديها مواعيد في المشفى، فقد أنهت فترتها التعسة في قسم الأعصاب والنفسية؛ لكنها أطْلَّعت امس على رسم أشعة (بسنت) جليستها ومؤنستها، وقرينتها بالكلية، كانا قد افترقا منذ أشهر، لكنها افتقدتها، فبحثت عنها، وعندما وجدت ضلتها، تفاجئت سارة لنتيجة الأشعة التي تُشير إلى تعرض الحالة إلى العنف والقسوة.

استحضرت سارة كم كانت بسنت صلبة وحاذقة، فقد كانت ذكية ذكاء يجعلها تفلت من كل العقبات، وتحول المشاكل لثوب يرتديه غيرها. لم يُحجب عنها سر، ولم يُقدم فيها بلاغات. تفاجأت سارة عندما أخبرها ياسر طبيب العظام المعالج لحالة بسنت أنها أقرت بدخيل باطنها أنّ التعذيب ناتج عن المعاملة في السجن.

مضت سارة بفترة دامسة، أصبحت فيها بائعة هوى بدلا عن طالبة، وقرنت ذاتها الشريفة بالمادة؛ حتى هبطت إلى سجن العاهرات، مُنتصرة عليها الجبلة الحيوانية، وإن كان جزء من هذا بإرادتها الكاملة، واستسلامها للسقوط في الهاوية التعسة.

دقت الساعة دقًّا، فكانت الرابعة؛ مرت ساعة لم تصنع فيها أي شئ، لم يخطُر لها الاتصال بأحد، أو محادثة الأقْربين، ولم تسأل المشفى عن تدريبات جديدة لطلاب الإمتياز.

أصبت الخامسة، والوقت يخطو بأثر بطيء مميت.

ترددت عن فكرة راودتها مؤخرًا منذ عدة أشهر، لكن الآن، عليها أن تفعلها، لكنها خشيت بسنت، فقد ظهرت مجددًا بعد أن ظنت أنها غابت عنها، وأنهم لن يتلاقوا، بالتأكيد ستبحث عنها بسنت لتنتقم منها. تخاف سارة الشرطة، كما تخاف نظرات الناس لها. تخاف أن يُرفع الحجاب عن علاقتها الخاصة، وأسرارها الشخصية؛ لكنها تسجل اعترافاتها الليليّة، وتُفصح عن كل خطيئة، وذلَّة اقتضت بها.

التردد فكرة سيئة، لذا لم تصمُد طويلًا، فرفعت الهاتف، وهاتفت أكثر شخص يريد أن يعرف عن سارة، وعن فتيات الليل، يسعى لاستكشاف حياتهن، تفكيرهن، وما يُبطن في وجدانهن، وكيف يظهرون بين الناس، إنَّه كريم، كريم الصحفي، وأكثر شخص يحب الكتابة عن الفضائح وأسرار الغير، وأكثرهم يأسًا من معرفة قصة سارة فهى السر والمُبتغى.

مُكالمة صفحي مع فتاة ليل؛ 5 من نوفمبر سنة 2002

سار اللقاء الأول بينهم على نحو موتر ومشوش، كانت سارة مرتبكة، اضطربت خطواتها السائرة، فكان حضورها مخزٍ مهين.

كان كريم قد تلقى إبلاغ من صديقه سامي، أخبره فيه أنه تمكن من الوصول لرقم قواد في السجن، وتمكن من أن يجنى سجل المكالمات الشهرية له، وكانت أغلب الأرقام خاصة بحسنوات الليل،

فتهلل وجه كريم، فقد وصل أخيرا للطريق الذي سيقوده لعمل الحوار الصحفى الذي يرنو إليه، انهى مكالمته مع سامي الذي أكد له أنه سيأتيه غدًا ليزوده بالسجل كاملًا.

في صباح اليوم التالي؛ نهض كريم من فراشه بعد أن تلقى إتصال من شقيقه التوأم طارق، طارق طبيب، تخرج من جامعة القاهرة منذ سنتين، يدرس أبحاث تخصصية في قسم الأعصاب. سنة 2001؛ تعرف على كارلا، أخصائية الأعصاب في الجامعة، وكانت خطبتهم سنة 2002 واتفقا على القران بسعادة ورضا .

أجابه كريم بصوت جاف، فلم يكن قد استفاق بعد:

– اسرد لي الدقائق وتسلسل، أعلم أنّ هناك مشاكل تجرى دون علمي.

زفر طارق زفرة طويلة من قلبه المُكلل عليه بالثُقل:

– اسمع، نور أخيك سيخرج من السجن بعد أسبوع، كان إسلام يزوره، وأخبرهبهذا، و أضاف لي إسلام أنه بخير، لا يريد المناجاة والتفوه بالسفه، فأنت تعلم كما أعلم، وكذلك إسلام أين سيذهب بعد أن أيطلق سراحه من السجن، وإلى من سيذهب.

الأمر جديّ ويحتاج للحديث، ولا يجب أن يغفل عنه، فدخول نور أخوه للسجن كان بسبب ارتكابه الزنا؛ لكن كريم أخبر معارفه أنه ضرب شرطي، وحُكم عليه بالسجن ستة أشهر.

قال هذا بعد أن خُفف حكم الزنا عليه، بالإتفاق مع محامي صديقًا لكريم، لقد أتعبه نور كثيرا، فعلى الرغم من كونه الأخ الأوسط؛ لكنه الأكثر ضررًا، والأشد خطورة.

استدرك حديثه مع طارق قائلًا:

– هل علمت ياسمين بالأمر؟

ياسمين هي اللبنانية المُغرم بها نور .

– أعتقد أنها زارت إسلام في المحل الخاص به، و أخبرها بكل شيء، فهو لم يستطع التكتّم طويلًا.

– مُرَّ عليّ في الجريدة يوم خروجه من السجن، ولنذهب سويًا نأخذه من السجن، فأنا لا أريد أن يختلط مرةً أخرى بالمساجين، ويُجرم جرائم أخرى.

أقفل كريم الهاتف بعد أن ختم المكالمة. يعلم أنه سوف يتلقى العديد من الرسائل الصوتية، والمكالمات من إسلام أخيه الأكبر ليأكد عليه ألا يكتب شيئا في الجرائد.

كريم يستطيع أن يفضح أي شخص؛ أي شخص يقع تحت يده،فهو ينتهز الفرص ولا ينعمها لأحدٍ غيره؛ لذا لا يمانع أن يكتب عن أخيه، وقضية الزنا المعقدة التي قام بها، والمجرمين الذين تعارف عليهم قبل دخوله السجن، ومع كل خبر يكتبه كريم يُكافئه المدير أو يعلو بمنصبه.

وجود كريم في الجريدة يُزيد الحاقدين عليه، ففي البداية كان طاقم العمل يساعده، أما الآن، فالجميع يرغب لو كان مكانه، وعلى رغم من ذلك، فكريم لا يملك الشهرة الواسعة التي يريدها وجريدته ليست قوية كجريدة الأهرام.

يكتب والناس تقرأ لكن غالبًا لا ينتبهون لاسمه، وهدف كريم أن يصل إلى الإذاعة والتيلفزيون، فقد حاول مرارا؛ لكنهم يرفضونه لأنه يسبب المشاكل، ويَفرض سيطرته على طاقم العمل، و كأنَّه رئيس المحطة. يظنُّ أنّ الكتابة عن فتيات الليل، وكشف أسرار رجال الأعمال، والمشاهير ستحول حياته إلى مسار آخر، مسار لم يحلم به قط.

أعدَّ ملابسه، وارتداها ثم انطلق إلى مكتبه، وعندما وصل إلى الجريدة بحث عن سامي في كل الطوابق؛ لكنه لم يجده، تأخر سامي عن ميعاده، أو حضر كريم مبكرًا، لا يعلم؛ لكن على سامي أن يكون هنا في حال، هكذا فكّر كريم، وبغضب ضرب الأرضبقدمه، وجلس على كرسي مكتبه ينتظر الأرقام والأسماء بلهفة.

سمع خطوات؛ خطوات تقترب من مكتبه، كانت لسامي، وقد أتى سامي بعد أن نسخ الأرقام لهاتفه دونما يُعلم كريم، أراد أن يسرق جهده، بعد أن يعرف النتيجة التي وصل كريم عليها من إجراء الاتصالات.

يفكر سامي في الحصول على هذا الخبر الصحفي الحار بدلًا من كريم، فهو يرى نفسه الأجدر والأكفأ.

دخل سامي مكتبه، فأنتفض كريم من كرسيه قائلا:

- أين كنت؟ لقد تأخرت كثيرًا.

انتبه سامي للساعة، فهذا الميعاد الذي يأتي فيه كل يوم.

ابتسم بسمة ساخرة، وفكر لو أن يخبره أنه لم يحصل على الأرقام، فبهذا سيرى كريم غاضبًا بالتأكيد، ويضرب أسداس وأخماس، وسيغمر شعور السعادة سامي، وكل طاقم العمل.

جلس سامي في حماس، وقال:

- جمعتُ لك معلومات قد تساعدك.

- أين هي الأرقام؟

- إنها معي بالطبع.

أراد سامي أن يخبره أن عليه أن ينتظر قليلًا؛ لكنه لم يفعل هذا لوقت طويل، وسرعان ما أعطاه الأرقام، أخذ يراقب ملامح كريم التي بدت بادرة وهادئة تمامًا؛ كأنه لم يتلقْ شيء. لم يتوقع سامي هذا، ارتبك، وسأله:

- ألن تفعل شيء؟

للحظة شعر كريم أنه عثر على كنز، ولا يريد أن يعمل أمام أحد.

- لاحقًا، سأفعل.

غادر كريم مُهللًا، يظن أنّه سيضرب قضيته في مشوار الصحافة، ولا يدرى أنّ صديقه كلّف مَن جاءه بأرقام فتيات الليل؛ أن يُراقب رقم كريم، ويُسجل المُكالمات، ويسرق مجهود كريم خوفًا من الخوض داخل هذا العالم المُلبّد.

في المساء

حدَّق كريم في كم الأوراق المنتشرة أمامه على طاولة الصالة كالحبوب التي ألقيّ بها في البركة. جمع كل هذا بمفرده، جميع الأوراق خاصة بأرقام الحسناوات اللاتي اتصل بهم، واللاتي لم يبعثْ لهم بعد. كان معه خمسون رقم فتاة ليل، والأرقام الأخرى للقوادين، وعلاقات شخصية لم يهتم لها، لكن تركها جانبًا للاحتياط. خمسون رقمًا، هذا الكمَّ الكثيف بالكاد يستطال إلى شبكة دعارة مترابطة؛ خمسون رقم ولم يستجب منهن سوى ثلاث مستحببات غير مُرضَات، ولم تكن إحداهن سارة، رقمُ سارة ليس بحوزة كريم من بين هذا السجل المنثور، كما أنها لا تحمل هاتفها معها أغلب الوقت.

المكالمة الأولى والإفتتاح.

طلب كريم الرقم، وأنامله ترتجف، وعندما صلَّب الهاتف على أذنيه ليسمع صوت الرنَّات شعر أنها سوف تجيب وترُد؛ لكن بعد الرنَّة الخامسة لا يوجد اتصال، ووصلت رسالة صوتية لكريم أن الهاتف مُقفل، مُعطل، مُنشغل، مُحترق، أي احتمال غير التلبيَّة.

المكالمة الثانية؛ الغيداء ذات الصوت المبسوط.

كرّر كريم طلب رقم حسناء أخرى بعد أن طوّى الرقم الأول في القائمة السوداء، سمع الرنين المُطنب، ولا يزال التوتر يدبّ في أطرافه حتى برد جسمه، وجفّت طبقة جلده.

أجابت بعد الرنة الثانية، فأنقبض قلبه.

– آلووو؟ . . . آلوو؟

بدا صوتها ممّدد ومُمط، فكان متموج ناشئ من اهتزاز جسمٍ ما، ترقّب كريم شفتيها كأنما انقبضا في وضع القُبلة، أجابها بتردد: ألو؟ أ... أنا...

بماذا يفضي؟ خطر هذا الاستفهام في باله متأخرًا، كيف لم يعدْ لهذا قبل أن يتصل. ثمّة شيء أربكه؛ أوقفه وألجم لسانه؛ لم يكن صوت الفتاة، ولا النبرة الممدودة، ولا أنها استجابت له بعد الرنة الثالثة، إنما الصوت الخلفي المصاحب لها، ال«آلو» خاصتها كانت مختلطة بمزيج من صوت خشخشة حُليّ، وهمس متعالى، وضوضاء صارخة ثقيلة على الآذان.

استطاع أن يسمع صوتها بصعوبة، ولحسن حظه، لم يسمع شتائمها لأنه تأخر في الرد وفقد شبكته. أعادت الفتاة الكرّة في كلمتها؛ لكنّها لم تنصت لصوته. طلب منها أن ترتكز في مكان تكون الشبكة فيه متصلة؛ لكنها، وبالأحرى لن تُكلف نفسها، وأغلقت الهاتف، عاود الاتصال، فلم تردْ. أعاد الاتصال للمرة الخامسة، ردَّت لتغلق المكالمة في وجه، فأضاف رقمها للقائمة السوداء.

المكالمة رقم خمسة وعشرون، والأمل، وآخر حبل نجاة من هذا البئر، فكل المكالمات الفائتة لم تستجب منهم واحدة ، فالأغلب لا يُجيب كما أن هناك رقمين كان يجيب كريم صوت رجل، فجاوزهما.

هذه التارة كادت تكون مُتفاوته عن المؤتلفات سابقيها، ردَّت امرأة وليس رجلًا، فاتنةٌ بالقول تفتتنه، فاستغفر؛ أصابته الفتن فذهب عقله ومال واستكبر، لم يكن همسها مألوفًا، لم يصاحبه ضوضاء أو اطناب في الحديث.

حدَّثها كريم بلطف، حاول أن يكون تلقائيّ طيلة المكالمة، ولا يبدو كالمعتوه.

أجابته الفتاة بعد أن قرّبت الهاتف من أذنيها.

– آلو، من معي؟

بهدوء ردَّ كريم: ألو؟.

ما كان عليه أن يقول حرف زائد، أراد أن تستشعر أنه صوت رجولي، ليعرف رد فعلها، إن كانت ستستجيب معه أمْ ستنهى المكالمة. حافظت الفتاة على نبرة صوتها الهادئة؛ إنها تتحدث من غرفتها ساعات وستكون في الشارع، ربما تؤجل الميعاد الخاص بها وتذهب لكريم، فقط إن تشوَّق إلى ذلك.

– من أنت؟

– أنا كريم، وأنتِ؟

– لم أقصد هذا.

أعني، من أي منطقة، أين تسكن؟

لم يفهم سبب هذه الأسئلة المتتالية، وهو لا يعرف شيء عنها حتى الآن.

– حسنًا؛ أنا من الجيزة، أسكنُ في شارع شجرة الدر، ماذا عنكِ؟!

سأل نفسه إن بدا جيدًا حتى الآن.

أنهت المكالمة فجأة.

شارع شجرة الدر بالجيزة ينبض بالحياة السياحية والأمن، ليس بزقاق يتواجد فيه شقق دعارة أو أي مشتري. تأكدت أن هذا الرقم أفَّاك، وغادرت غرفتها التي سهر فيها خمس فتيات يتشاركن نفس المنزل؛ ذاهبة لحال سبيلها متناسية كريم، لأنه بالتأكيد في ظنها اسمًا مستعار.

المكالمة الأخيرة ولعلَّها الأثيرة، لعلَّها نظيرة!

إنَّها بسنت. انتبه لصوتها عندما تحدَّثت معه، و أخذه صوتها لعالمها أسير. لفت انتباهه عندما تحدث معها؛ أن صوتها قوى وواثق كغير السابقات، وبدا له أنها حذرة مُتشككة أكثر من المطلوب، والمتوقع. سألته تلك الأسئلة المعتادة التي لا تمل من طرحها وتكرارها، وعندما أجاب عن مكان سكنه لم يخبرها بالحقيقة، فقد ظن أن الغموض هو مدخل هذا العالم الملتبس.

قالت بسنت، وهي تُقلِّب محطَّات التلفاز في ضجر، ثم استقرت على أفلام خارجة.

– لكنّك كاذب. . .

لم تدري بسنت إن كان صادقًا بالفعل أم غشّاش،؛ لكنها، وبلا شك تراه مُتلاعب. ترى بسنت الجميع كاذبين، لا أحد صادق، فجميعهم يرتدون القناع، و هي أيضًا تكذب؛ لكن كذبتها لا تعطى لأحد مجال للشك، فيصدقون كذبها ولا يراجعون وراء كلامها.

دافع كريم عن نفسه بعد أن أدرك أن رقم بسنت من الأرقام التي ستغلق صاحبتها المكالمة في وجه كسابقيها.

– لماذا أكذب؟ لقد قلت لكِ اسمي وأخبرتك أن لدي شقة خالية و...

قاطعته بسنت آبية أن يُتابع:

– لا أقصد شقق.

ساد صمت ثقيل بينهم بعد أن رفضت عرضه، ربما لم يفهم المغزى وراء مُقتضب قول بسنت. كل ما كانت تفكر به أنها إن دبرت لبيت لا تعرفه لن تعطى الآمان إن كان صاحبه يضع كاميرات في زاويته، فيُسجل لها، ويشوش صورة وجه بالمقطع، و يطلب بعد ذلك مجيئها دون أن يقاضيها بالمال، لهذا السبب صُممت شقق الدعارة. ارتبك كريم وجالت عينيه بالشقة، فيما راحت تسند بسنت الهاتف الخلوي على كتفها وأذنيها، و أمسكت بالمبرد من جانبها تُجمل أظافرها. لقد بدا لها كريم ممل عن التلفاز، في الوقت عينه، خرجت سارة من غرفتها، وكانت تسير في الرواق حتى توقفت في الصالة.

حدَّقت لبسنت لبرهة، وتساءلت بداخلها إلى من تتحدث؟ إلا أنها سرعان ما تجاهلت هذا، طالما تدبر بسنت شئون أظافرها، فمن تحدثه ليس بشخص مهم.

بعد صمت طويل سألها كريم بتردد:

– إذًا؟ . . .

قالت بسنت مسرعة؛ لئلا تُضيَّع مزيدًا من الوقت معه:

– يُمكنني رؤيتك، بعد مقابلتك، قد لا أوافق، وقد أختار المكان الذي نتقابل فيه بعدئذ.

– أهذا فقط؟!

هذا ما لم يتوقَّعه كريم البتة. وضعت بسنت الهاتف على الطاولة أمامها، وراحت تبحث عن جهاز التحكم، وقالت لسارة التي لا تزال واقفة:

– لا تحدقي إليّ طويلًا، أنا أكره هذا.

في الحقيقة سارة لا تحدق لها دون سبب، ولم تخرج إلا لسبب، منذ دقائق فتحت أدراجها وحقيبتها، و لم تجد نقودها كاملةً فيها، فقالت:

– هل أخذتِ النقود من حقيبتي؟

ربما كان السؤال لا يجب أن يُطرح على هذا النحو لأن الإجابة ستكون لا.

رمقتها بسنت بنظرة حادة، وكادت تغفل عن المكالمة.

– انتبهي للسارق الذي يتعرَّض لكِ بدلًا من اتّهامي.

قالتها وهي تذكر أنها أخذت من حقيبتها مائتين دولار، وشعورها بالندم قد مات لتوه.

رفعت بسنت الهاتف إلى أذنيها لتقول:

– اسمعني حبيبي، أعلم أنك لن ترفُض، سلامٌ الآن.

أغلقت بسنت هاتفها بعد أن أنهت جملتها، وحاولت أن تتجاهل وجود سارة في شقتها. أقامت سارة في شقة بسنت لفترة طويلة بعد أن طُردت من شقتها. فكرت بسنت في الميعاد الخاص بكريم كان يجب أن تؤجله، فهي متعبة، ومعدتها تتقلص، لم تتناول الطعام منذ يومين؛ إلا القليل منه، ربما الشعور بالألم، والاكتئاب بسبب المشروبات الكحولية؟ هكذا كانت تسأل نفسها.

أخرجت بسنت علبة سجائر من جيبها، ثم قالت:

– هناك زبونٌ لكِ.

– لي؟

قالتها سارة باستغراب.

أرادت بسنت أن تتخلص منها، فهي لا تزال قلقة بطبيعة اتصال كريم.

إنه كغيره من الاتصالات المخادعة، ولم يخبرها من أي شخص استطاع أن يصل إلى هاتفها؛ لذا خال بذهنها أن يكون شرطيًا، وستكون فرصة لتتخلص من سارة.

رفعت بسنت نظرها تجاه سارة، وبدت نبرتها جافة وهي تقول:

– أجل، سيتصل بكِ حتمًا.

– ومن هو؟

– يبدو عليه التحفظ.

أطرقت بسنت الصمت بعدها، ونفثت الدخان طويلًا بجانب سارة، مرت دقائق رتيبة؛ حتى شعرت بسارة تنهض من على الأريكة، وتدخل الغرفة مجددًا، وكأنها تبحث عن السارق. انتبهت بسنت لغيابها في الداخل طويلًا، فأخذت هاتف سارة الخلوي، وبدلت شريحة الهاتف خاصتها؛ لتضعها في هاتف سارة، ثم اتصلت بكريم، وقالت:

- الرقم الذي اتصلت عليه فالبداية هو الرقم الخاص بي، يمكنك أن تتصل بي عندما تُلاقيني في الميعاد الذي حددناه سويًا.

لم يصدق كريم هذا في البداية، فقد اعتقد أن بسنت لن تقابله، فأجاب.

- لا يُناسبني المكان، هل يمكنني الاتصال بكِ بعد قليل لأحدد ميعاد في مكان آخر؛ أفضل؟

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتي بسنت وقالت:

- بالطبع... يمكنك فعل هذا.

بعد قليل اتصل كريم بالفعل، فلَما شاهدت بسنت رقمه على شاشة الهاتف نادت سارة، وقد جاءت على خطى غير متزنة.

لم تدرى بسنت ماذا كانت تفعل بالداخل، فقد بدت مشوشة، مرتبكة هناك شيء مريب. ضمت بسنت حاجبيها، وهي تراقب صوت سارة أثناء حديثها مع كريم، فقد كان صوتها خافتًا، صحبت كلماتها همس كأن الشرطة تسمع مكالمتهما، ولما انتهت من المكالمة سألتها بسنت لتتأكد: هل أنتِ بخير؟

كان وجه سارة شاحبًا.

- أبدو متعبة، أليس كذلك؟

- كثيرًا حبيبي.

تنهَّدت سارة.

- لا أدرى، ربما لم أنمْ جيدًا الفترة السابقة، كوابيس تراودني، وأرقٌ دائم. . .

أومأت بسنت في جفاف، فالأمر لم يحصل على قدرٍ من اهتمامها، نهضت من جانبها، وراحت تعبث في خزانة ملابسها لتتأكد إن كانت سارة أخذت منها شيء. بسنت تتفقد أغراضها كل يوم، ليس من أجل شيء، فسارة لا تسرق؛ لكن الاحتياط والحذر من سمات بسنت، وما اعتادت عليه منذ طفولتها.

من مكالمة كريم وسارة التي سمعتها بسنت، استدلت أنهم سوف يتقابلا غدًا في المهندسين، في أحد الشوارع الجانبية، وستكون المقابلة صباحًا؛ حينما يكون الوضع هادئًا، والمقهى خالي من الزبائن السكارى المعتادين، وقتها يمكن لسارة أن تشعر بالقوة أثناء الحديث والجلوس مع ذاك الرجل الغريب الذي لا تعرف شكله، والمقلق أنه يعرف هويتها، ويملك رقم هاتفها. . . أو رقم هاتف بسنت.

10 من نوفمبر سنة 2002؛ المهندسين

سارة

اتصلت به عندما كانت في سيارة الأجرة، سألته عن مواصفاته وملابسه، كانت تأمل ألا يكون رجل بدين، فهي تكره إغواء الرجل السمين، فأيديهم تكون غليظة كالجزارين، ولا تشعر بالمتعة معهم؛ بل يُخيل لها أنها وقعت فريسة المشتهين.

وصلت للمقهى الذي امتد داخل شوارع المهندسين الداخلية،و كان شارع ضيق لا يسمح سوى بصفين لاصطفاف السيارات، وصف آخر لمرور السيارات في إتجاه واحد، لم تمتد طاولات المقهى لخارجه أو جاوزت الرصيف بأكثر من متر، فأغلب الطاولات تجمعت في الداخل، وجميعها صوب بعض، وكانت المسافات ضيقة بالكاد إن جلست في أي زاوية يمكنها أن تنصت إلى الحديث الذي يدور بجانبها بنقاء.

عندما وصلت فتاة الليل، واقتربت من المقهى رأت رجلًا يرتدى بذلة سوداء دون رابطة عنق، يتلفت يمينًا ويسارًا كأنه حيوان وضع لتوه في قفص جديد؛ شعره أسود وعينيه داكنتين، و ذقنه خفيفة، وحاجبيه لم يكُفَّا عن الانضمام سويًا منذ أن بدأ وجلس هنا، إنه كريم، انطبقت على هذا الرجل المواصفات التي صرح بها كريم، فدنت سارة نحوه دون تردد في لابسها الأسود القصير يُغطيه معطف رقيق فيما كشفت عن ساقيها النْحيلتين بجوارب سوداء رقراقة، ساقين يحملان جسدًا لم يرى بجاذبيته قط.

غلب اللون الأسود على ملابس سارة، فالأسود في علم النفس اللَّوْنِيّ يُترجم لرمز من رموز الجنس؛ لون يبعث الغموض لصاحبه، يرمز للحزن، الوحدة، التمرد، الشر، والثورة، التعقيد، والموت، والاحتراف وهي سمات أتصف بها جوهر سارة، ويكون صاحب اللون الأسود مُتحدث سلبي، فيما كانت ملابس بسنت يسودها درجات الرمادى، والأحمر الداكن، لونان يرمزان إلى الحكمة، والشيخوخة والضجر، والإشْتهاء الجنسي، والإدمان، والإثارة، والقوة، والحرارة، والمشاعر القوية، والذكورة، والعدوان والطغيان، وهي صفات كارسة في بسنت لن تتبدل، ويكون متحدث لونيْ الرمادى والأحمر الداكن قليل الكلام وحذر في اختيار ألفاظه.

كان المقهى هادئًا ساكنًا، فجميع الحاضرون جالسون يتناجون في مواضيع عديدة في الوقت عينه. هناك مجموعة من الأصدقاء في سن ما بين العشرين، والثلاث والعشرين عام؛ يجلسون على مقاعد

استوت في صف واحد، وخلفهم حائط زجاجي يحمى المقهى الداخلي من الدخان المتصاعد في الخارج، وضوضاء الثرثرة، كانوا صامتين لا يتحدثون إلا قليلا، ويصدر منهم همس؛ لعلهم ينظرون حولهم، ويعلقون على الناس وغرائبهم، و لم يصدر من فتي أو فتاة منهم أي تجاوز كما توقع كريم، كل منهم يتدبر شأنه، وكأنه جالس بمفرده على الشاطئ، لا يعلم أنهم تعاطوا مُخدر ما لتوِهم، وأن عدوان سيصدر منهم.

جلست سارة أمام كريم بعد أن تبادلا النظر لثواني، لم يهمهم أحدهم بلفظ، تعرفا على بعض في سرعة، وكان الأمر ساطعًا لهما. دار الحديث بينهما في البداية حول المقهى، ونوع المشروبات التي يُقدمها، تكفلت سارة بأن تطلعه بالطلبات الجيدة في القائمة، والسيئ منها، وكأنها صاحبة المقهى، وزبونة قديمة فيه، فقط لتطالع عينيه وتختبره، فقد كانت تنظر في عينيه من اللحظة للأخرى، وسجلت من إيماءته أنه متردد، لا يشعر بالطمأنينة، والرائحة هنا تضيق بصدره، فتنهَّدت، وحاولت أن تخفف وطأة الحديث عنه.

مالت للأمام وقالت: حسنٌ، تعمل؟

لم يقبض بمعنى قولها في البداية، لكنها كانت تبغى أن تستخبر إن كان جديًا، وسيخبرها أن لديه مكان شاغر. نظر صوب عينيها، وقال بتصميم بعد جهد ورعونة.

– أدعى كريم، أعمل صحفي، رتبتُ لأقيم حوار صحفي معك.

تسمرت عيني سارة نحو كريم؛ كأنما كانت تحت تنوم مغناطيسي. تنظر دونما تنطق بشيء، ملامحها هادئة ولا تبُح بأي مشاعر. آملت أن تستوعب قوله، فرفعت حاجبها و قالت: عذرًا، لم أفهمْ ما قلت!

كانت تحتاج من الوقت ما يلهم في من سبب لها هذه المطارحة، ووضعها فيها.

تنهد كريم، سيعيد ما قاله كأنه سيجدف من القاع.

– أنا صفحي و. . .

قاطعته وهي تومأ رأسها بضجر؛ متخطيَّة الإعادة المبتذلة.

– علمتُ أنك صحفي، ماذا بعد؟ جئت من الجحيم لتُقيم حوار صحفي. تبًا! ماذا تعرفُ عني لتقول هذا؟

هز كتفيه، قد شعر أنه أخفق، وأصاب المرمى من زاوية حادة.

– جئتُ لأعرف عنكِ بعض الأشياء.

تضاحكت فسرَّ الكون. كانت ضحكتها بلا نغم هزيز. قهقهة آملت أن تخفف من حدة تقلقلها؛ ضحكة قصيرة تابعتها نظرات مطولة في قطب الأرض، وصحبتها تنهيدة سريعة، ثم رفعت رأسها؛ لكنه قاطعها قبل أن تقول شيء.

– أعتقد أنني جئت للشخص الملائم، فأي محاولة منكِ للهرب، سأبلغ الشرطة عنكِ، وبعدها ستتلاشى، سأعقب خضوعك من الشرطة، سأحظى بالحوار الصحفي بكلى الحالتين.

كتمت سارة أنفاسُها داخل حلقها، وطوّقت النظر نحوه، انجلت عينيها تتسع لمقتضب بيانه، وتهديده الواضح، وقد بدا أكثر جدية وصرامة هذه المرة. شنَّ قوله وهو ينهض من كرسيه:

– سأرسل إليكِ عنوان عملي، وستأتين إليّ، سنتحدث سويًا، وبعدها سينتهى كل شيء، وأتركك.

لملمت آخر ما تبقى لها من صمود، واشتداد من الأرض بعد أن ضرب كريم كل دوافعها خارقًا كل الحدود الآلفة بينهما، وأثناء عودتها للمنزل؛ حاولت أن ترتشف ما سمعت. دريت أنها سلمت منه عندما غادرت المقهى؛ لكن الإحساس بالرهبة سكن بداخلها لعام من الزمن؛ كانت تمسك بهاتفها لا تجد سبيل لتتخلص منه. يلتمس أن يقابلها بمقر عمله حتى لا يهبها الفرصة لأن تأجر مجموعة من القوم يضربونه، ويلحقون العاهة به؛ لا شك أنه ذكي، فقد استطاع أن يجعلها تتصل به، و أخبرته أنها قادمة بعد يومين؛ نفس اليوم الذي خرج فيه نور من السجن. كان صوتها مخنوق مكتوم في باطن حلقها، ولم تشعر أنها فعلت الصواب لما نزلت من دارها؛ أملت أن يكف عن التدبير في الحوار الصحفي، ستعرض له صبغ جسدها دون كدح؛ لتقضى الأمر، سيستعبد تحت مسقط رأسها وتتبخر دمامة إنذاره في الهواء.

منذ طلوع الشمس، وبعد أن أنهت الأرض دورتها؛ هلّ طارق، وتلاقا في مكتب كريم؛ تحدثا عن أخيهما نور الذي شارف على التحرر من قيد السجن.

كان مكتب كريم يجاوره مكتبين آخرين، فهو لا يجلس منفردًا في الغرفة، وينتظر اليوم الذي يحصل فيه على الترقيات؛ ليصبح له غرفته، ومكتبه الخاص. تفاجئ بأحد من الموظفين يستعديه هو وجميع الموظفين، لكن جال بباله سارة التي على وشك القدوم، وفكر بأن يلغى الاجتماع، أو يلغى الميعاد، ونظر لأخيه التوأم، وجال في خاطره أن يحضر الاجتماع بدلًا منه.

شارفت سارة على الأزوف إلى مبنى مكتبه باسطة جناحيها، معها أتباعها الملقبون بالمُهلكين، استوقفتهم خارج المبني فبقوا لإشارتها منتظرين.

اتصلت بكريم، فأجاب دون قلقلة؛ حتى تأكدت من هشاشة موقفها. صوته هادئ خال من أيّ مشاعر؛ سألته عن مكانه، فوضح لها، وخرج من المكتب ليقف في الرواق، لقد ضلَّت الطريق، مبني الجريدة كبير، وستفقد طريقها فيه.

تلفتت يمين ويسار حولها وهي تلعن بالألفاظ فيه، لَما لقت حتفها إلى طابقه، وامتدَّت فيه وهاتفها يُلاصق أذنيها رأته بعيدًا، أشارت له ليعدو إليها، لا تحبذ فكرة الجلوس في مكتبه حتى الآن.

ارتحل طارق نحوها بخطوات متزنة، أصبحت المسافة بينهم ضيقة، و كانت قريبة منه حتى اختلطت أنفاسهم، هي من اقتربت، فتراجع للخلف.

- كيف يمكنني أن أساعدكِ؟

ابتسمت ابتسامة صغيرة حملت من المعان المبطنة ما لم تقو السماء على حملها.

- لِمَ لا ننهى كل شيء بطريقةٍ أخرى؟

تنقلت أنظاره بالأرجاء في فوضويَّة، ولم يدرك مقصدها الخبيث.

- كيف ذلك؟

- أين دورة مياه الرجال؟

لِمَ قد تحتاج امرأة لدورة مياه الرجال؟ سأل طارق نفسه حتى مدَّت يدها نحوه وطوقت بها عنقه كمن يستعد للرقصة الأولى، شدته من شعره كما يُشد الغزال من قرونه، جذبته إليها بعنف لا يقل عن عُنف جزار مع ذبيحة هاربة، شدّته حتى كادت تقتلع منبته من جذوره.

- استرخ. . .

همست في أذنه، فاحترقت حواسه من فرط قربها. أدخلته، وتحرشت فيه بشر؛ فأنتفض من خطرها، ولَما خفضت بصرها لمحت خاتم فضيّ براق في حلقة الأصبع، لم تُبصره في يد كريم؛ لكنه لم يُغير من الأمر شيء، عندما خرج طارق فارًا منها تبعته بهدوء، بعد أن تفقدت هيئتها في المرآة، طلاء شفتيها المُبعثر كأنما شذَّ عن لحن مقطوعتها، خرجت من دورة المياه الفقيرة من الرجال، لا تدرى أين فلّوا، لكنهم بالاجتماع الذى انتهى لتوه.

رحلت سارة، ورمقت طارق بنظرة أخيرة؛ جهل ما يدور في عينيها، ونظر عينيه في عينيها جعل النظر وبالًا؛ قتلته، و تلاقت الأعين طويلا، وأراد لو يُمهلها قليلا.

لم يُدركا أن قد كتب لهما في صحف القدر بأنهما سيتقابلا تارةً أخرى، وهي لا تعلم أن لكريم شقيق توأم مطابق، ولا يكاد الآخر يعرف أن هذه الفرس على صلة بكريم.

تحرر كريم من عبودية المدير؛ ليخرج من الاجتماع، ويبصر طارق سائر في غرفة مكتبه بتوتر، كاد أن يسأله لكن طارق نهره على غير عادته.

– حدثني عن تلك الأنثى.

ضاقت عيني كريم : أيُّ امرأة؟ هل جاءت!

– طلَّت طلَّتها، وتجرَّأت عليّ، أيُّ صلة لعينة تربطك بها؟

ضمَّ كريم حاجبيه محاولًا تخيُّل ما تولَّد بينهما.

– سارة... إنها فتاة ليل، لم أتوقع أن يصدر منها رجيم... أعني...

– بنت ليل!؟

هز كريم رأسه المضجرة، أراد أن يُهدأ شظايا أخيه قبل أن تتوالد شكوكه المريضة تجاه كريم.

– اهدأ؛ ليس ما يدور في رأسك، إنه حوار صحفي.

رفض المدير أن يحضر الاجتماع أحد غير الصحفيين، فلم يستطع كريم أن يجعل طارق بدلًا منه، وخضع لمطلب المدير، ولم يترك احتياط لتواجد سارة خاصة مع طارق، وإن كانت شخصية طارق مع النساء هشَّة كالإسفنج، ينقاد وراء رغباته في الخفاء دون أن يدرك أخوته شيئًا، ومن الجانب الآخر يعاير الرجال الذين يسقطون في هوة النساء، وهو تابعهم غارق فيهم.

فكر كريم بأن يُجرى الحوار الصحفي بطريقة أخرى، سيستقصى عن فتاة غير سارة، وبالتأكيد سيجد، سيحاول الاتصال برقم بسنت، لاحظ اختلاف نبرة الأصوات بين بسنت وسارة، ربما يستطيع أن يحصل على شيء من بسنت، هذا ما اعتقده، إلا أن شريحة الاتصال الخاصة ببسنت في هاتف سارة، وبسنت بالأحرى لن تُفطن كريم بشيء، إن دخلت بسنت حياة امرئ ستخرب عيشته.

قد خرجت سارة دون أن تُعطي إشارة للمُهلكين مالكين القوي والحصين، ما إن رأت هذا الطارق جدفت شرّها إلى اليمين، ورحلت مع أتابعها آمنين.

ظلّ كريم بعدها يبحث عن سارة، أو أي فتاة يستجوبها لسنة كاملة، وخلال السنة توتّرت حياته الهادئة عندما حاول التلاعب في هذا العالم؛ليجد أن فتاة الليل التي كان يعبث وراءها. هي من تريده وتريد إقامة حوار صحفي مُخبأة له دنائتها.

تغلغلت سارة حياة كريم، وقلبت موازينها، فقامت القيامة في حياته، وتحكى فتاة الليل للصحفي ما لم تسمعه أذن، أو تشهده صحف.

الشقُّ الأول

الجانب النفسيّ

اعترافات فتيات الليل حول خبايا حياتهن

مطلع لبوابة دنيا التهتك والعهر
الزمالك؛ بيت سيء السمعة؛ 24 من ديسمبر 2004

سارة

لا ينبغي أن تتردد طويلًا، تساءلت في نفسها لِمَ التردد؟ سيكون الأمر علي ما يرام؛ رغم أنها بطبيعتها مندفعة ومتهورة في قراراتها، فهذه التارة لا تبدو أعسر من أي تارة، ستبعث لكريم، رقمه لا يزال معها رغم الفترة الشاهقة التي لم تنضم إلى مجلسه، وتجادل فكره، وتقطع حديثه، استرابت بحماقتها أنه بذلك قد محيَّ كل مطموس بينهم، ودُفن كل مكنون، ولن يُوجد لها الشجب.

ابتلعت سارة ريقها الذي لا يزال جاف، شعرت بسكين حاد في حلقها، لم ترويه بذائب حتى تشقَّق وقد أوشكت الساعة على أن تدق السابعة مساءً.

انْتبهت لصوت الرنة في الهاتف، تخبط فؤادها طبولًا تناغمت مع ضجيج الرنات التي وسرعان ما توقفت، لتسمع صوت رجولي قادمًا من الجانب الآخر؛ إنَّه كريم، لم تنسَ طنينه بعد، فما زال مضمور داخلها، وبسماعه أحسَّت بكل حدث ماض داخلها يبعث صارخًا من مرقده.

استنشقت سارة نفسًا من الهواء، حبسته ولم تزفره، تمتمت بالقول: كريم؟ أعلمُ أنّه أنت؛ اسمع؛ أريد التحدث معك بشأن... بشأني بالأخص، فهناك بعض الأمور التي يجب أن تعرفها؛ لذا أريد رؤيتك اليوم في مقهى المهندسين، أنت تعرف العنوان، وبالكاد تعرف صاحبة الصوت، سأنتظرك، وبعدها... يُمكنك أن ترحل، أن ترحل وللأبد، سيسعدني إن لم نتلاقى بعد ذلك مجددًا.

– سارة؟

لفظ اسمها بطريقة جعلتها تحب الاسم المستعار.

زفرت سارة نفسها أخيرًا، وكانت زفرة طويلة، وقالت بعدها: أجل؛ هي أنا... السارة.

قالتها ببطء، ولم تندم أو تنسحب.

– أأنتِ متأكدة؟ أعني؛ هذا ليس فخًا من فخاخِك؟

– لـ... لا، ليس فخًا، فقط صدقني، فهذه المرة غير أي مرة تحدثنا فيها من قبل.

– كيف لي أن أُصدق؟ أنتِ شيطانة يا سارة؛ لكنكِ تدعين غير ذلك. ألستِ خائفة إن رأيتك وقتلتك أو سجنتك؟ ألستِ خائفة؟

ساد صمت طويل من ناحيتها لم يقطعه شيء.

قال كريم: إذا كان كلامكِ صحيحًا، فلم لا نتقابل في بيتك؟ أعلم أن بيتك أحد البيوت السيئة السُمعة، وأنتِ لم تفتحِ لي مجالًا يومًا لأتطرّق داخل عالمك، بالأحرى داخلكِ؛ إن كنتِ صادقة، فاتركيني أدخل منزلك، وأعدكِ أن لن أُبلغ الشرطة.

كان في وعده كاذبًا لكنها صدقته.

– أنت متأكد أنك تُريد دخول المنزل؟

كانت فكرة مرفوضة.

– هذا السبق الصحفي الذي أردته.

قالها بحزم: ولم يُضف أحدهما شيئًا بعد هذا كأن الخط انقطع.

لم يلح كريم طويلًا على أن سارة بوسعها أن تأبى شيئًا كهذا، ولكن تساءل ماذا سيرى في منزلها؟.

بسنت

في الوقت نفسه؛ كانت بسنت قد خرجت من منزلها بالزمالك، استقلت سيارة أجرة وهي مُتعبة. تحملت الدقائق التي نقلتها من منزلها إلى منزل سارة في وسط منطقة الزمالك بالتحديد. نظرت بسنت حولها، كان الشارع هادئ، والسيارات تمر في بطء، كان عليها أن تُراقب المارة قبل أن تصعد للعمارة، فهي لا تريد أن يراها حارس العقار، ويتعرف على هويتها، فهي على دراية به، فقد كان يعمل لسنوات قوادًا. رأته يخرج من باب العمارة، عندما رأى هيئتها تسمر في مكانه من الرجفة، وارتبك، تداخلت الأسئلة برأسه، ولا يدرك سبب مجيئها، لقد ظن أن قصتها انتهت، وعند مُغادرتها قرر أن يُبلغ عنها، اتصل بالشرطة، أخبرهم بوجود بيت دعارة في العنوان المشار إليه، وجلس ينتظر قدومهم ليتخلص منهم بعد أن قرر التوبة وتطهير العمارة. صعدت بسنت لشقة سارة، طرقت الباب مرة واثنتين حتى تقدمت سارة نحو الباب، وهي تتوقع مجيء كريم.

نظرت من خلال العين السحرية فبصرت بسنت، استدارت لتعطى ظهرها للباب، فهي بالتأكيد لن تفتح لها؛ لكن كيف علمت أنها في شقتها؟ لقد أخبرت الجميع أنها نقلت لشقة أخرى.

- افتحي ياسارة، أعلم أنكِ بالداخل.

قالتها بسنت، وهي غير متأكدة إن كانت سارة بالداخل. انقبض قلب سارة حتى تقلص بداخلها، وترددت طويلًا، ولكنها فتحت لها، فالفضول دفعها لتعرف ماذا جرى لبسنت، وكيف استطاع أحد أن يؤذيها.

فتحت سارة الباب؛ لتجد بسنت تدفعها للداخل وبقوة، فتراجعت سارة للخلف خطوة واسعة، راقبت بسنت وهى تُغلق الباب خلفها بسرعة، فأتسعت عيني سارة، قالت في ذعر: هل الشرطة تلاحقك؟

علّت نظرات عدم رضا على بسنت.

- لا... جئتُ لآخذ أغراضي منكِ.

- أيُّ أغراض لعينة تتحدثين عنها؟

نشرت بسنت خطواتها في أنحاء الشقة.

- نقودي، ملابسي، كل شيء آخذتيه.

جذبتها سارة من ذراعها، فتأوهت بسنت بقوة؛ للحظة خفق قلب سارة من قوة صوتها، فتركتها.

عبست بسنت ولم تضف شيئًا. من الجانب الآخر قرع كريم باب سارة، فانتفضت بسنت، وقالت: هل تنتظرين أحد؟

ابتسمت سارة لم لمحت ارتباك بسنت، وتأكدت أنها جاءت منزلها لتخبئ من الشرطة.

- انتظر صحفي.

همست بسنت، وقد جحظت عيناها من هول المفاجأة.

- صحفي! هل تمزحين؟

راحت سارة تفتح الباب لكريم، فيما أضافت لبسنت: ادخلي إحدى غرفي.

الزمالك؛ بيتٌ سيء السُمعة؛ 24 من ديسمبر 2004

كريم

فتحت سارة الباب بعد أن اطمئنت من دخول بسنت لغرفتها، فتحت لترى أمامها رجلًا يُذكرها بحب سابق، فحبست أنفاسها عندما مر بجانبها. رائحة عطره الكثيف، وأنفاسه الدفيئة تجعلها تتألم أنها

خاضت هذه التجربة، كيف لهما أن يتقابلا بعد هذه المدة؟ كيف لهما أن يكونا بهذا الهدوء؟ فما بينهما حقد عظيم! ستدعه يدخل إلى عالمها؛ إلى شقتها؛ إلى حجرتها؛ إلى مجلسها فيدركها.

عندما ولج كريم الشقة، لم يحرم نفسه بالوقوف؛ كأنه ألتجم في الأرض، سعت رؤيته كل جزء بالصالة دون تحفظ، وكانت سارة تاركة الباب مفتوح.

طُلي السقف باللون القرمزى، لونٌ يرمز للإغراء، والإثارة، والجنس العنيف، كانت قشرته مميزة، في حين أن بقية حوائط الشقة قشدية، فبدا البيت واسعًا أكثر مما هو عليه، أما الأثاث فكان حديث، ونظيف، و أثاث ضخم يتسع لأعشار، وأطنان من اللحوم بشرية.

دل البيت على الثراء، فاستنتج كريم أنَّ تعاملات سارة تقتصر مع البغايا من الأثرياء كثر الشحم. حاول كريم تصور الزبائن التي مرت هنا، وللحظة ما جلس مكانهم، فبلع ريقه وقد راحت أفكاره تجاه للإباحية.

- لمَ السقف يميل للحُمرة؟

سألها كريم، وهو يرفع ذقنه للأعلى. تفهَّمت سارة السؤال، فمالت شفتيها لجانب محاولة اصطناع ابتسامة لم يرها كريم لأنها كانت تقف خلفه

- هذا لأن جميع الزائرين، في لحظةٍ ما، ينبطحون أرضًا فينظرون لأعلى.

تلقَّى كريم الإيحاء المُبطن ولم يُعلق. شعر بيد تخترقه؛ يد سارة تُلامس كتفه؛ حاولت أن تخلع معطفه عنه، فلفَّ رأسه من فوق كتفيه ليطالعها.

- ما الذي تحاولين صُنعه؟

رفعت حاجبيها لتعود وتخفضهما، كأنما ليست بحاجة لتُبرر فعلتها.

- لن أدعك تجلس إلا بعد أن تفتش كاملًا.

فتشته تفتيش المطارات لتتيقن أن ليس بحوذته مسجل صوت.

كان يملك حافظة نقود في جيب سرواله، لا يوجد فيها شيء مميز أكثر من النقود الورقية، وكان في جيب بذلته شريحة سوداء سميكة مخطوط عليها كلمات انكليزية تخبرها بمكان صناعتها، فألتقطتها سارة وحدقت لكريم بعينين فارغتين: ما هذا؟

زمّ كريم شفتيه، فقد كان مُسجل صوت يعمل باتصال بأمر من جهاز آخر في مقر عمله، لكن لا يبدو لسارة أنها تعرفه.

- هذه بطارية كاميرا.

- لا تبدو كذلك.

- الكاميرا حديثة الصنع.

لوَت ثُغرها؛ يبدو عليه الكذب، ولكنها لا تستطيع إثبات هذا.

لحظات، وكانا يقعدان سويًا، فتركته يجلس على كرسي، فيما راحت تربض على أريكتها. جلس في حضرة الجمال، وساد صمت قصير حتى بدأ بالاسترسال. راقب باب الشقة الذي لا يزال مفتوح للاستهلال، فلم يُبال، وبقى يراقب سارة بتطفل، كانت ترمش بعينيها كأنما استيقظت للتو، فبدت له ثملة،و تُثقلها النشوة، عينيها صارت محمرتين بلون الدم كأنها جرعت صندوق من النبيذ. لم يحاول سؤالها عن هذا، أراد أن يأخذ الأقوال منها، وهي في أسوأ أحوالها، فتقر بكل غامضٍ مطمور.

تأمل ملابسها، فكانت تستُر ما لذَّ وطاب، وتكشف محاسن جسدها المستطاب، فتمكن من تحديد فوارق درجات بشرتها من العنق، والأذرع، والسُّرة، والفخذ، والسيقان، حتى عاد ما تُخفيه تحت الغطاء لا يُكيَّل إلا بجرامات من التُراب!

قبل كل كلمة يقوى أن يتفوَّه بها في هذا المجلس المُوتِّر، تذكرت سارة قضاء شقيقه الصغير خالد، فخفضت بصرها للأرض، واعتصرت أصابعها في كبد. قالت في نعومة عذبة: البقاء لله. . .

كان شعور الحزن صادق، نابع من جوف قلبها. مات شقيقه ابن العشرة في حادث حريق منذ شهرين، وتكبدت عائلة كريم دهر من الحزن والأسى. زمَّ كريم شفيته في حزن، ولمحت سارة قبضة يده تضيق: ونِعْمَ بالله.

تمتمت سارة مطرقة بصرها للأرض، وأقرَّت بالقول النبيل: أدرى أنه ليس الوقت المناسب؛ لكنني أريد أن أفضى إلى أيّ شخص؛ أيّ شخص حتى إن كان هذا الشخص أنت.

حاول أن يتفهَّمها في بداية الأمر؛ لكن ظنَّ أنه سيحتاج لحديث طويل معها ليفهم، لأن يتعمق في أغوار تلك النفس البشرية، يتسلل إلى أفكارها، أسرارها، ونواياها، لكنه سيضل في بحرها؛ سيضل في عُمقها؛ سيضل.

- أكاد أجزم أنَّ اتصالك فاجأني.

هزَّت سارة رأسها، فهي تعلم هذا؛ حاولت إظهار اللامبالاة، وفجأة انتباها الذعر لَم شعرت أن هناك روح أخرى في المنزل غيرهم، وتساءلت إن كانت بسنت تعبث في غرفة والدتها، فهناك صور، وشرائط تسجيلية تحبس أسرار لا يجب أن تبرز لأحد.

نظرت سارة صوب عيني كريم مباشرة متباينة الإهتمام، وإن بدت لا تقتدر على التركيز، والتفكير بشكل سويّ.

- ما الذي ترام في أن تكشفه فيّ؟ دخلت المستقر الرحيب لم تلمح شيئًا غير مألوف.

أومأ رأسه قليلًا، ولم تكدْ تلمح هذا؛ إنه يوافقها الرأى، فبيتها كان عاديًا ككل البيوت باستثناء وجود بعض الأغراض الممنوعة فيه؛ بالتأكيد كريم لم يبصرها بعد، إنها بالشقة أو في إحدى أركانها مضمورة، تكهَّن كريم هذا، لكن البيت لا يوحى بوجود أي شيء غريب فيه، وهذا بالكاد ما أحبطه أكثر.

- أريد أن أتبين عنكِ كل كاتم، كيف نشأتِ؟ وأجلُّ شيء، كيف كان طليعة أول نشاط لكِ؟

فهمت سارة الأسئلة المبطنة.

- سأحكى لك عن دعاء، إنها أمي... حاول أن تتفهم الأمر.

نظرت له نظرة حملت معانٍ توسل، وهمست: أرجوك أن تتفهم.

هز كريم رأسه محاولًا وعدها بذلك، لكنه لن يفي بوعده. صرحت سارة: أنا بنت لأم تُدعى دعاء، ووالدي زيدان، يمكنك أن تُناديّ سارة زيدان.

- أعلم أن اسمك ليس سارة.

- لا أحد يعلم اسمي الحقيقي..... على الأقل أنت...

دعاء
قبل عشر سنوات؛ شهر إبريل سنة 1994

تعلم دعاء أنها ما بين الثانية والنصف والثالثة ظهرًا من غير أن تنظر إلى الساعة، تدرك هذا عندما تأتِ ابنتها سارة من المدرسة، وشعور التعب يغمرها من أسفلها لأعلها، تستطيع أن تشعر بتعبها عندما

تجلس معها، تبادلها الحديث حول سيران يومها، تخبرها عن تعليقات الـمُدرسين الإيجابية، وعن الدرجات النهائية بالصف الثانويّ، وعن بسنت صديقتها التي تعرفت عليها مؤخرًا.

كانت بدور الأم تسأل سارة عن بسنت بعد أن يسُر قلبها بأنباء الدرجات المرتفعة، فتبتسم تبتسم فقط؛ ابتسامة مخيبة للآمال، وتستمع سارة وهي تقول لها أن بسنت فتاة عادية، كغيرها ممن تعرفت عليهم بالفصل الثانوي، في بعض الأوقات تلاحظ عليها انطوائها، وحاجتها للانعزال، لكن هذا لم يشكل ضررًا بالنسبة لسارة التي يغلبُ عليها نفس الطباع أحيانًا، آخر ما قالته سارة أنها ترغب في التنزه مع بسنت للخارج، فقد أعجبت بشخصيتها، وتود مصادقتها، لم تخبرها عن الأحاديث الجنسية التي تدور بينهم، لن تخبرها، لا أحد يجب أن يعرف.

أومأت دعاء المرأة التي شارفت على تجاوز العقد الرابع من عمرها، وهي تنصت إلى ابنتها البالغة السادسة عشر ربيعًا، أومأت إيماءة معبرة بقولها عن موافقتها، ورضاها، وساد الصمت، فبادلتها سارة الابتسامة المصطنعة.

رأت دعاء فيها النسخة الصغرى منها، فقد بدت ملامح سارة تتشكل منذ نشأتها حتى شابهت والدتها، و قد طبع الله عليهما نفس الملامح (العيون الداكنة الواسعة، عيون ممتلئتان بالغموض والأسرار، شفاه شبه ممتلئة لا تتشقَّه إلا بالبيان المقتضب القليل، شفاها السفلية مائلة للأسفل على نحو يعطى انطباع بغرقها في ملذات، ومتع الحياة، لكنها لا تعبر سوى عن التشاؤم، والأنفُ الحاد المستقيم، والوجه الجذاب الذي خلق خصيصًا لجذب نفوس الرجال) جمال سارة جمالٌ صاخب، توقعت والدتها أن هذه الفتاة سوف يكون لها شأنٌ على الأرض، وستشق طريقها بجاذبيتها، ولباقة حديثها، وذكائها، وككل ليلة تخشي أن تُصارحها بحقيقة حياتهما، والسر الذي تُخفيه عن والد سارة.

كان اليوم طويلٌ للغاية.

أحست دعاء أن هناك أمورًا مهمة قد تقوم بها بعد أن مضت طيلة النهار متفرغة، لا توجد دقيقة تنشغل فيها بشيء.

كالعادة تترقب ابنتها حتى تأتى من المدرسة، وبعدها تطبخ لها الطعام، و أثناء غياب سارة؛ تنتهز دعاء الفرصة بأن تدخن السجائر في خلوتها، وقد تغادر المنزل لساعات تتنقل فيهم بين الحانات لتحصل على ثلاث كؤوس كبيرة من الويسكي، وتنتظر في البار وقتًا حتى يرمونها بالماء المثلج فتستعيد وعيها،

وشعورها بجسدها، والألم والكدمات التي ظهرت فوق ركبتيها، هذا شيء معتاد عند الإفراط في الشرب، ومن أثر السقوط.

منذ سنتين، بدأت دعاء تشعر بالضيق والحنق عندما تتواجد سارة في الشقة، لا تتحمل البقاء في غرفتها حبيسة تنفث سحاب دخان حتى تشعر بالاختناق، تطلب المغادرة أوقات، لكن سارة سرعان ما تعبر عن قلقها، وشعورها بالخوف في المساء بمفردها، فتعود دعاء.

أما الآن باتت تدخن أمام ابنتها، وأحضرت في منزلها الشيشة، وكفت عن مغادرة المنزل أغلب الوقت. وطَّدت دعاء علاقتها بالجيران المجاورين لها؛ إذ جاورتهم عائلة شريف، وهي عائلة تتألف من أبٍ وأم، وابنة وحيدة كسارة، كانت تفوح منهم رائحة الهدوء والاستقرار، دائمًا ما تجلس سارة عندهم، ولم يحن لدعاء فرصة للتعارف عليهم، وعندما دخلت دعاء منزلهم، وتعرفت عليهم كانت سعيدة بكسر روتينها الرتيب، ورحبوا بها في منزلهم، وبعد الزيارة الثانية لها سمعت في بيتهم صوت باب الشقة وهو يتشقق قليلًا، هناك دخيل؛ هذا ما ظنته دعاء في البداية، لكنه صاحب المنزل (السيد شريف) هذا اللقب الذي وضعته دعاء قبل اسمه دون أن تعلم وظيفته، وبعد ذلك، وبعد تبادل الحديث القصير بينهم، وتأمل منهاالملابسه السوداء، وقميصه، وشارات النجوم على كتفيه التي أنبأتها بالخطر، فضاقت عينيها، وحاولت ألا تمط في الحديث، وغادرت لتدخل منزلها عائدة للروتين القاتل.

استندت بظهرها على باب الشقة، وقد انقبض قلب دعاء، وشعرت بهذا عندما فكرت أن جارها الجديد ضابطٌ في الجيش، وهي امرأة عاهرة ترتكب الزنا، وتبيع الهوى بلا كيل. سألتها سارة: ما يجرى؟

عبست دُعاء، وطيرت يدها في الهواء كأنّما تطرُد حشرات طائرة قائلةً: لا شيء، أُغربي عن وجهي الآن.

سارة
شهر إبريل سنة 1994

أجفلت سارة من نومها، وسألت في نفسها غن كان عليها الذهاب. كانت السابعة، لقد تأخرت عن المدرسة؛ ليس بكثير، لكنها أرادت أن تستيقظ مبكرًا عن والدتها التي لا تغفل الليل؛ لعلها الآن تغطس في ثباتها.

خرجت سارة من ردهتها، وقبل كل شيء؛ تفقدت حجرة والدتها، فهدأ توترها لَمّ رأتها مستلقية، وفي غفلة عنها راحت تنفض بشرتها في دورة المياه في غرفتها، تأملت ملامحها ككل صباح. شعرت بوجهها كئيب ذابل كالمُدمنين. عندما يدخل أحدٌ ما من أصدقائها منزلها؛ يظنون أن علاقتها بوالدتها تسير على نحو سعيد، فسارة تعود من المدرسة تخبرها بكل شيء يدور لها، وأغلب الوقت يمضيان في الحديث سويًا حول الحياة، والعواقب الحياتية بداية من صاحب الشقة والإيجار الشهري، وداء جدة سارة؛ لكن يا للسخرية! لم تنعم سارة بيوم هنيء في هذه الدار منذ نشأتها.

ولِدت سارة شهر أغسطس سنة 1979 وقتما كان الطقس حار، ووالدتها في حالة هيج، وتوتر عصبي. لم تكن راغبة في الحمل، أو وضع جنينن خاصة إن كانت فتاة. إنها الغاشية، مولد سارة بالبداية لم يكن مرحبٌ به، أبدًا أبدًا، وعندما فتحت جفنيها على دنيا الأسى، كانت دعاء تتأملها كل يوم بحال، فتارة تشعر بسعادة لأنها وبعد عمر رُزقت بطفلة، وتارة أخرى، تشعر بالحزن الشديد لأن تلك الروح جاءت في غير أوانها، ولأسرة لا تناسبها.

كانت دعاء بعد وضع سارة باسبوع تفكر في قتلها ودفنها حيَّة. أرادت التخلُّص منها لئلا تجلبُ الخذى لنفسها ولعائلتها، لكن من عائلتها؟ والدتها المريضة بالخرف والتي ترى ابنتها لا تعرفها، وإن ذكرت لها ذكرى فلا تسترجع غير السوء، أمْ أشقائها السبع؟

دعاء

عاشت دعاء طيلة حياتها في الفقر بين أخواتها وأبيها ووالدتها، عندما بلغت الثالثة عشر شهدت أمام عينيها سقوط أبيها أمامها، وقد قبض الله روحه، فأوقفت دراستها وكانت الابنة الوسطى. لم تكمل المرحلة الإعدادية؛ إذ راحت تعمل في إحدى الورش الحرفية، عابدة طاعنة في السن، وكان يُنظر للعمل الحرفي من قبل الصفوة منذ القرن الخامس عشر باعتباره متدنيًا لمجرد إظهار هؤلاء بالمهارة والمحاكاة. كان الحي مُبتلى، وكل الصبايا والبنين يسعون في الورش، ويديرون السوق باحتراف. نسج لها القدر سنة حتى كان رزقها بخس، وقلما ما كانت تجد الخبز لتكسره، ويا كُثر ما أغمضت وبطنها تدوى من الجوع، وحلقها يئن من الجفاف، فلما طلبت العون أشاحت عنها الحكومة، ولم تفرغ لها الجمعيات الخدمية.

استقصى عنها أصدقائها من المدرسة، فلما دروا بعدمها حاولوا مساعدتها، وبحثوا لها عن وظيفة أفضل، فلم تقبل في أيَّ مكان بهذا الحي الضنك، و مضت الأيام مع أصدقائها، غابت عن المنزل؛

غابت طويلًا، فكانت تبيت عند أحد منهم، لاحظ أصدقائها أن أهلها لا يسألون عنها، ولم يبد أن أهلها يريدونها كأنها تزيد فوق فقرهم فقر.

أخذوها ذات مرة إلى رحاب قاسم باشا، أسلافه من الذوات لا يخلع الطربوش من على رأسه إلا وقت النوم، وأطراف شاربيه كقرون الثور، كان متكبرًا مختالًا، لا يخفض بصره لأحد من الخادمين، أوامره في مملكته دستور يُطاع، وتُقام القواعد حسبما يريد. يمقت السيطرة والتسلط عليه، وإن ألقى ماله في النار فيزعجه السؤال، الحرية كانت كل شيء بالنسبة له. كان جلف، قلبه فقير من العواطف، له ماضي بائس من عائلته لم يكن يفشى به لأنس، فكان مخيبًا للآمال.

عملت دعاء في قصره كزنجية مستعبدة، وغابت عن عائلتها فانقطعت الرسائل، ثم أخذ الله فردًا من أخوتها، وأخرجه من ضلالته عاثرًا عليها عن طريق قُرنائها. طل بملابسه البالية في بستان قاسم باشا، هذا البستان الذي يجعل كل من يراه يتساءل كيف تكون جنة السماء!

أحضرها أخيها من بيت قاسم بعد ذلّات؛ ليخبرها أن والدتهم أصيبت بالنسيان، وعندما راحت للمنزل، لم تجد سوى أخ وأخت واحدة. سألت عن باقي أشقائها، فحدقوا إليها في صمت، لا يعلمون أين قد ذهب الآخرين وأين هم الآن، فلقد عاشوا في شقاء وذل يتضورون كما يتضور آلاف المساكين. تشرَّد بعضهم، ومات بعضهم، وضل البواقي منهم في بلد لا ترحم بائسًا لبؤسه، فلم يجيدوا التواصل مع أحد سوى دعاء.

بدأت حياة دعاء بالتفكك، وانتهت بالانحراف، وصارت الأيام الكئيبة تحكى قصتها.

في بداية الضيق الاجتماعي؛ كانت تجلس مع والدتها بالمنزل، تتابع العلاج كأن النسيان نقمة، ونسوا أنَّه نعمة الله لمخلوقه المتكبد في الأرض.لم تبصر دعاء حوارى الشارع إلا خمس أرباع اليوم، فكانت تقضى البواقى داخل ديارها، لاحظت تفرق أخوتها كحبة رمان شقت أنصاف، ثم أرباع، فتساقطت الحبات منها حبة وراء الأخرى، وفقدتهم، ولم تغن نفسها عن السؤال إلا أن شعرت أن كل منهم بني له حياة بعيدًا عنها، فراحت تحتوى والدتها بكل عاطفتها، وفؤادها، وأجهشت بالدم جوارها تتساءل كيف لها أن تركتها.

في صباحٍ ما؛ زارهم جيرانهم، ونأت دعاء من حجرتها لتسمع إلى والدتها وهي تتفوه بالباطل، فتقول أن ابنتها اهرمها الدهر، لم تعد حسنة، فلن يهام فيها الرجال؛ أنبأت كل غريب بهذا حتى كاد أن تُذاع سيرتها في الحي.

حزنت دعاء وتزعزعت ثقتها بنفسها، فكانت عندما تجد رجل يسير جوارها لا ينظر إليها تتيقن من قولها، وشعرت بالحزن الجريح، فكانت تعيش جهنم الدنيا المصغرة كل يوم، وعندما هام فيها رجُلًا، تدبرت أن تُقدم له ما لذَّ وطاب باسم المحبَّة الخالصة التي وسعت كل شيء.

اصطحبها أصدقائها ذات مرة إلى ملهى بالقاهرة. كان الملهى بداية لها لأن تعمل فيه كراقصة بعد التردد عليه مائة وعشرة طلَّة، فكانت تهدهد وتعلو على النغم، تتنقل، وتمشى بتفكك وخلاعة. جنت المال، وأحصت عدتها حتى أجرت منزلًا بحي الزمالك، فأخرجت كظمها المحتبس، وكانت تتواجد بين الأشقياء الخنّاسين كل مساء غاسق، تعاشر كل عاشق. تعددت طلعاتها مع مخالطيها كل جزء من اثني عشر جزءًا من السنوات الشمسية، والقمرية تحت صيت أدْعت به سهر، فكانت من الليل ما ملكت، ومن العيون ما أرقت، وحملت على النفوس المشتاقة ما لا يطاق.

أما عن مجاوريها بحي الرقيّ، والفن، والطرب بقلب الزمالك، فكانوا يدرون بسيرها الأعرج، وشرفها الدنِس. أخذوا دفاعهم منها، ونصبوا الحذر على أبوابهم، ولم يكنْ بينهم سلام، كما أنها لم تردْ أن تتعمق في مكنون أحد، فسطَّحت العلاقات، وطوت والدتها معها في مستقرها حتى تعثر لها على منزل أنقى؛ لكنها لم تجد فكرة الصرف عليها رابحة، بل كانت فكرة سيئة بالنسبة لها؛ سيئةٌ للغاية، فكانت تريد كل الملك، والرخاء لنفسها، فألقتها في مصحة نفسية حكومية أشد بؤسًا، وهناك تتلقى الرعاية أو تلقى حتفها بعيدًا عنها في الأفق الفقيرة، والذى خلق الظلام يراها، والذى اتّصف بالرحمة ليُعذبها في مبعثها ومرقدها، وفي ثباتها وصحوتها.

في الثُلث الأخير من الزمن الممتد لأثنى عشر شهرًا لعام 1978، كانت بنت العشرين قابلت ماشيٍ حدَّسها أنه مناقض عن بقية الرجال الذين شابهت عهودهم عهد أخوة يوسف فكذَّبوا. زيدان، فحلٌ عريض المنكبين، طويل الأذرع، عيناه صقر تصهر تضاريس الإناث، وعدها أن يتزوَّجها وفي نيَّته الإثم والأذى. نمقوا عقدًا عرفيًّا أجدر أن تُكتب في خاتمته "الخبيثون للخبيثات". بعد العقد، أخذت دعاء رقم هاتف منزل المحامى دون أن يدرك زيدان.

عاشرته معاشرة الأزواج في شقتها، ووضعت منه سارة على فراشها ذو الغطاء القُرمزى المثير، فهددها بالوليدة اللينة، وظن بعد تهديده أن لها أهل تخشاهم، لكنها قلبت دفة القوى إليها، وهددته، فغاب عن المنزل حتى لا تعثر عليه.

غاب طويلًا حتى تبخرت رائحته من ثنايا نوافذ البيت، ولكن رقم المحامي كان الصلة الوحيدة بينهم، والتهديد الوعيد، لم تستطع أن تتخلص من المولودة التي لم تفطم؛ حاولت رغم الحزن والشتات.

لم تتمنْ يومًا أن يصير في قُرة عينيها ما صار لها، وأن تشقي وترى قبح وقسوة الحياة، وأواه الرضيعة اللدنة تُفطر قلب الأم، ثم يلِين الله قلبها في أقسى اللحظات فتحن. دعت دعاء بالمحامى مطالبة برفع قضية زاعمة الظلم، وأخبرته أنها ستدفع له ما يشاء، وعرضت عليه المال، وبدنها المتهالك، إنْ رغب.

انتبه المحامى لنوع القضية، وصديقه، والمبلغ، فترك صديقه، ورفع قضية، ووقع زيدان في أزمة نسب، ولم يستطعْ الهرب من زوجته، فحاول أن يُخفي الأمر، عرض مبالغ طائلة على دعاء كي تتكتم، فتراجعت عن القضية، وصار وضع دعاء أكثر قوة وصرامة.

نالت حقها وحق ابنتها منه، فنسب اسم سارة له، وحمدت الله أن الابنة لم ترثْ من والدها ملامحه أو أي شيء منه.

اتفقت معه بألّا يذاع الأمر لزوجته؛ لئلا تلطُم، وتبكى على أطفالها، وعمرها، وفيما أفنته معه. ابتعدت دعاء عنه على شرط أن يرسل لها قدرًا من المال كل ستة أشهر تنعم فيه هي وابنتها، ومقابل هذا لن تتفوه بحرف، وستغرب عن وجه القبيح.

زيدان؛ القاهرة في السبعينات

قبل ولادة سارة وقبل أن يرى دعاء، كان وقت التمدُّن، وفورة التجارة، والصناعة في السعودية. كان تداول الموظفين بين مصر والدول العربية أمرًا شائعًا، وكست ظاهرة دبر واغتراب عمال مصريين ومهندسين إلى السعودية للكدح في جناح البواعث المصرية إبان زعم القاعد العسكري، وبعدما كان يعود المصريون من بلاد السعودية؛ كانوا يجلبون العباءات السوداء، وكسا الحجاب الرؤوس بشكل ممتد على طول السنين، وكان الفلاحون المصريون من النساء بدلن العباءات المزركشة باللون الأسود.

زيدان والد سارة، كان قد عقد قرانه في السبعينات بسيدة من السعودية، وأصبح هناك من بين بيداء الليل الجنوبيَّة، وكسر الخبز، وأساليب دفاع النفس من ذئاب البرية. زيدان أصله من منبت مصريّ. وضع منها طفلين، وأحس بأن زوجته كانت مهملة في حضانتهما، وطُبع عليها عادات المصريين القادمين من السعودية؛ كان يدغم المنزل بترحاب، فيلتقي شكاوى من ابنيه حول تقاعسهما، وعقوباتهما من المدرسين في المدرسة. لَما شافه تلك العائقة مع زوجته كانت تستخف؛ إذ إن الطرود والصداقات تنحيها عن إقامة شؤون حياتها الاجتماعية.

ساعفت الظروف البيئية والاجتماعية بالسعودية على وضع المرأة جلّ وقتها في منزلها، فكان زيدان يتذمر من اتصالاتها، يحولها بقطع سلك الهاتف، فكانت تربض قابلة التلفاز القديم مترقبة صديقاتها اللاتي دعوتهن على وليمة العشاء.

ترصد زيدان تأثير أداء زوجته على إغْفال ابنيه الذي حقق في خلال أشهر إلى تدهور صحتهما، وضعف جهاز مناعتهما، فراح يراجع التكاليف التي كان ينفقها ليخرج، ويتنزه مع ابنيه بدلًا من الجلوس مع والدتهما التي كانت تهملهما، ويشعرهما بالحب، كانت ابنته تسعد بذلك، أما الابن فكان يريد البقاء مع والدته، وقتها فكر زيدان بإدخال خادمة في المنزل تقوم بتلك المهام بدلًا من زوجته.

شعرت زوجته في الأشهر الأولى بالراحة لأن الخادمة كانت تقوم بأعمال البيت بدلًا منها، وأصبحت الخلافات بينها وبين زوجها زيدان أقل مما بدت بشكل واضح، ولم تشكل الخادمة مشكلة في البيت؛ إذ كانت مغتربة، ولا تحب التحدث إلى العرب كثيرًا أو الاختلاط بهم حتى تعود إلى بلدها؛ لكن، مع مرور الأيام شعرت زوجة زيدان أن الخادمة أصبحت ضرَّتها في المنزل؛ لأن الابنين تعلّقا بها، ونسيا واجب الأم في المنزل، بل غفلوا وجودها.

حاولت طردها من المنزل بشكل أو بآخر لكن زيدان أراد إبقاءها؛ لأن المستوى الدراسيّ لابنيه تحسن، وصحتهما تحسنت كذلك. كان مبررًا قويًّا في صالح الابنين، وغلب رأى زيدان، ومن ذلك الحين قلَّتْ المشاجرات بين الزوجة حول هذا الأمر واستقر المنزل، إلا أن زيدان اجتذب لتلك الخادمة التي رأى فيها أنها قد تصلح لأن تكون زوجة له، وبالأحرى هو يحب زوجته الأولى وأم الولدين، وفي غياب الأم، عرض على الخادمة الزواج، لكنها نظرت له، وأثناء جمعها لصحون الغداء من طاولة الطعام، قد علَّت في عينيها نظرات الدهشة، إذ قالت: كيف يكون؟

ابتسم زيدان. اقترب منها قليلًا، ثم أردف: ستعيشين في هذا المستوي فلِمَ القلق؟

هزَّت الخادمة رأسها بالنفي إذ لا يزال نفورها من العرب يزداد، وفي تردد: لا أنا لا أرامُ لذلك، فسأعود لبلدي قريبًا، وأقترن بمن أهواه.

أغضب قولها زيدان؛ ما جعله يقدم تنازلات كثيرة لتقبل عرضه، لكنها أبت، وأكثر ما يغضبه أن ترفضه الإناث؛ خاصةً إذا رغب فيهن.

قال لها وهو ينظر بحدة إلى وجهها النبيل: سأُجريكِ مقابل لذلك، فأراكِ صابرة متجلِّدة.

هزَّت الخادمة رأسها: سيدي؛ لقد لفّفتُ بلادًا، وعبرتُ محيطات، ولم أهجس قطْ بالاستقرار، فلم أبصر تفاوت بالرجال في كافّة براح الأرض السبع. تعدَّدت اللغات، واختلفت الأجناس لكن الحقارة واحدة.

غمغم زيدان ذهلًا من قولها الذي سقط على أذنيه سقوط الحميم: أرى من تتوعَّدين له نبلكِ سيقبل بنفس الغرض إن فتن بمن هي أفتنُ منكِ، لطالما الحقارة في البلاد واحدة.

رمقته الخادمة، وكادت عينيها من فرط القلق تدمع وتتحول إلى مياه، فقد نجح زيدان في اضطرابها، لكنها قذفت بقلبه في أعماق نافذة باطنه عندما رآها غاضبة تقهقر للخلف، ولم يسبق له أن أبصر أقسى من الدمع عندما يواريه. أساءت الخادمة الاستدلال وقتها، وبهدوء لملمت أغراضها أمام زوجته، واستأذنت من المنزل، فعادت مشاجرات زيدان بينه وبين زوجته، وعاد البيت كما كان هو عليه.

بعدئذ، سمع زيدان من صديقٍ له بالجيزة عن حفلات تُقام بالأوبرا لفرقة رقص استعراضية فرقة رضا التي بدأت في نهاية الخمسينات، وصل عدد الفرقة من راقصات وموسيقيين إلى مائة وثمانين فنانًا، على الرغم من كون الفرقة قدَّمت عروض فنيَّة خاصة للفنون الشعبية تحت إشراف حسن فهمي لتكون فن الرقص الراقي غير الذي تدعى به الراقصات العُراة. أراد زيدان زيارة الأوبرا، وحضور الحفلات والمغني، فرأى عالم وحضور آخر مختلفًا عن الثقافة التي تلقاها من السعودية، وبلاد العرب. نزل مع صديقه في إجازته؛ تاركًا زوجته وابنيه، قضى أسبوعًا يحضر المسرحيات، ويلاقي وجوه الممثلين والفنانين وقتها حينما كان يُقدم الفن قصصًا هادفة تسعى لمرام راقي مهيب.

لم يرَ زيدان أحدًا من الممثلين عندما تنتهي العروض المسرحية، لاحظ أنهم يغادرون مسرعين لبيوتهم بعد أن كسا الليل الأرض، وكادت الشمس أن تشقق السحب بأشعتها في سناء الفجر.

في يوم ما، بعد انتهاء المسرحية، لم يتمكن من رؤية الفنانات كلهن؛ إذ نأى بعضهن، وكان بدوره أنتهج إحدى الفنانين بسيارته، كان هذا بعد منتصف الليل بثلاث ساعات، لَما توقف سيارة الفنان أمام ملهى ليلى، فأوقف زيدان السيارة قربه، ونزل واقتفاه، علم أن الملهى يُدفع له من المشاهير كي يخصصوا مكانًا للفنانين يتمتعون فيه بالخصوصية والهدوء، و هناك، وبعد سنوات من التردد على الملاهى تعرف على دعاء، وأنجبوا سارة.

الجانب النفسيّ لفتاة الليل؛ سنة 1996

سارة

سارة... إنَّه الاسم المستعار، أشدُّ النساء فتنة، أكثرهم جدلًا في شارع الهرم، عندما يتعرَّف عليها الناس تجبرهم على أن ينادوها بهذا الاسم، أما الأقربين منها قليلًا ما ينادونها باسمها الحقيقيّ لأجل رغبتها في ذلك، ولم تعد تعرف إلا باسم الحكومة، أما اسمها فقد طُمس.

أطلقت على نفسها سارة فتبعثُ السرور لمن حولها، من رآها يظن للوهلة الأولى أنها تُشبه يسرا اللوزي. ترعرعت سارة في بيئة مزعزعة، وأجواء صاخبة مشحونة بالتفكك، أهملت والدتها تربيتها تائهة في بيداء هذه الحياة، أغفلتها فأفسدتها، ولم تعتني بها فاستهانت ولا تعلم أن الله رقيب.

عندما تنكفأ سارة من دار العلم، كانت تقص عليها ما جرى في المدرسة من حواديت متكررة تفتقد الحبكة، و تُعرفها على قُرناء السوء، فتلاحظ أن والدتها شاردة الذهن لا تكترث، فكانت الحاضرة الغائبة، حتى عودت سارة على الإنطواء في عالمها الأكبر. رمقتها سارة بنظرة مطولة، فأدركت أن قصصها بالمدرسة الثانويّة تافهة. رجعت ذات يوم لتخبرها بأمور قد تُثير اهتمامها، قد تنتبهُ لها: ماما! لقد حصلتُ على الدرجة النهائية في اختبار الأحياء. رفعت دعاء حاجبيها بتثاقل، وتلتفت لسارة بجهد عظيم: أحقًا حبيبتي؟. أومأت سارة بتباطؤ، وقد سعدت أنها نالت اهتمامها: هذا جيد. قالت والدتها، وقد عادت لتقلب محطات التلفاز، فيما تمزّق قلب سارة من الإحباط، وخيبت أمالها في نيل الإعجاب بعد أن أبرزت أفضل ما لديها. صارت بعد ذلك محاولات سارة لجذب الاهتمام، ولفت النظر تتزايد بأنماط وأفكار مختلفة وغير مألوفة. كانت تجتهد في دراستها لتحصل على المركز الأول، والقمة في كل شيء، فكانت تريد أن تُصبح مركز وبؤرة الاهتمام. تغمرها السعادة عندما تجنى التهنئات، والنقد الايجابي على أي فعل تصنعه، وعلى الرغم من هذا لم يصيبها التكبر والخيلاء، لكن لا بأس بدرجة من الغرور، فهي فقط تريد أن تطوَق بجل الاهتمام والإحاطة بالأصدقاء أكثر من غالبية المستقرين عاطفتهم.

باتت صلة سارة بمن حلولها مشدودة، والتواصل مع سارة بدا أوله شاق، وآخره مستعص، وتجربته ندم، فكل يوم يزداد عدد المقربين منها نفورًا، فكانت تُعيد النظر في مخططات تدفع الناس يتحركون إليها بعد أن خسرت الإحتواء منهم، ولم تجد لها صديق يسعد لفرحها ونجاحها، فقد أحيطت بحقد الحاقدين الكارهين، فتنماى داخلها شبح الوحدة، ومخاوف الحياة، ولكنها واجهت عقبة بسبب محاولة البعض في أذيّتها من الحاسدين ولم يعطوها الرعاية.

قالت سارة لكريم: أنا شخصية مزاجيةٌ للغاية، يُصعب على الكثير معاشرتى، طيلة الوقت لا أشعر بالأمان، أفتقد هذا الإحساس منذ الصُغر.

وأضافت سارة، وقد زال رونق ابتسامتها الخاطفة للقلوب: يروني ضاحكةً مُتبسمةً، احتضنهم لأنني أريدُ ذلك لي، وليس لهم، لا أعتقد أن أحدهم يشعُر بي. قالت الجملة الأخيرة وقد تلاشت ألوان السعادة من عينيها.

أرادت سارة أن تشعر بالحميميَّة، بالقرب من الناس والدفء، فكانت شخصية اجتماعية ناجحة من الدرجة الأولى. لا تمانع بارتداء مطرقة فوق رأسها لجذب الناس، ورغم تفارق البعض عنها، فداخلها كان يشعر أنهم سيعودون إليها. شاركت في العروض الغنائية، والمسرحية بالمدرسة التي لا يحضرها سوى أولياء الأمور، كانت ترتدي الفساتين البيضاء القصيرة التي تُظهر ساقيها، وبدت كالملاك السائر بين الناس. كانت تظن حضورها أشبه بالملوك المتوَجين، فعلى الحاضرين غرس النظر فيها وإبداء الإعجاب بسيرانها، بضحكاتها، وابتسامتها، فقد تقذفهم بمياه الخرطوم لسيجوا النظر إليها إن لم ترَ أن أحدًا يطلع إليها أثناء صعودها على منصة العرض، ربما تؤذي أحدهم، وربما تقذفهم، وتلقى عليهم الورود والشوك بأصابعها الناعمة، لينظرون لها.

سمعت سارة لحضور الحفلات الموسيقية للمطربين العرب بنادي الجزيرة في قصر النيل، كانت تسعى وراء الشهرة، والنجومية إلى جانب التفوق الدراسي، وشاءت منذ صغرها أن تغدو نجمة سينمائية لامعة مشهورة مُحاطة بالأضواء يحدق المعجبين لها، وعندما سألها أحدهم عن غطاء الشعر وفرض الله في مراهقتها: لمَ لا ترتدين الحجاب؟ فأجابت سارة وببساطة: سيكون مظهري سيء، أشعر أنني أفضل بخصلات شعري.

عندما بلغت سارة الواحد والعشرون، وكانت تسير مع زميلها في طابق الجامعة بعد انتهاء اليوم الدراسي، دار بينهم حوار قصير أثار غيظ سارة الدفين؛ إذْ شكَّك بقدراتها على الرقص والأداء الاستعراضي، فتوقفت ونظرت له نظرة صائبة حادة وقد نشأ بينهم تحدى: ماذا لو شاهدتني أرقص؟

لم يرَ الحسناء تتلوى من قبل، فهز زميلها رأسه محاولًا إظهار اللامبالاة، وقد أراد بشدة رؤية جسدها يهتز كالطبول بين يديه: لا يمكنكِ فعل ذلك، أنا أعلم.

ابتسم ابتسامة خبيثة، كسب غضبها.

– يمكننا أن نفعل ذلك سويًا.

تحدَّته بعيونها البرّاقة بريق السيف تحت سناء الشمس.

شبكت يدها بيده كما تتشابك أغصان الشجر، وشدته ليرقصان على نغمات صامتة، ألتفَّت حول نفسها وهي تمسك بيده، وجذبته إليها فقاربت أنفاسه الكاوية حرارتها، تعلمت تلك الرقصة مؤخرًا من الأفلام الأجنبية التي رأتها، رقصة كلاسيكية لكنها لم تتقنها على النحو الذي أرادته.

أثارت إعجاب الفتي، واضطربت دقات قلبه قربها، كانت سارة تجذب الأنظار بجمالها بين الطلاب، ورام الشباب لها، لكنهم كانوا يبتعدون عنها لما سمع أنها كثيرة الشكوى. أجل إنها تشتكي لتكسب تعاطف غيرها، لتكون هي محور الاهتمام. بلع ريقه، ورغب في تقبيلها حتى تنزف، فقد كانت الجميلة بلا مبالغة، واستولت على قلوب الناظرين.

دنا ليتلامسا، فيشعُر أنه لامس الركن الآخر من الكون، وما أن أوشك من رجاه ونيل مبتغاه حتى تراجعت للوراء، فتباين نفورها بتلك الخطوة التي تركت بينهم مسافة شاهقة تصدَّه عن فكرة الاقتراب، ثم أنْ ابتعدت منفضة عنه، وأطلقت لقدميها الريح تستنجد.

هرعت بجنون للحاقدين سواد النفوس لتفشى أن زميلها معجب بها، لكنهم أبطلوها، حاولوا بث الخيبة فيها، فكانوا يوقفوها، يريدون أن يكون الإعجاب لهم هن، يكفي أن تُحاط جميع العيون بسارة، فأضافت لهم للتأكيد: لقد حاول تقبيلي. قالت في شيء من التردد، ووضعت يدها على فمها في خجل.

شهقت الفتيات، وتداولت الأقوال في سرعة كما تتداول الإشاعات. ابتسمت سارة في انتصار، شعرت بالاهتمام يعود لها من جديد، فكانت سعيدة باقتراب زميلها منها، محاولة رفضها كان لها أكثر من سبب، فقد كانت تظن أنها ستصبح حبلى بعد القُبلة الأولى، وسارة شخصية خجولة، إنها كذلك لكن سلوكها لا يُظهر تلك الصفة، فتلك الأنثى مفرطة الحساسية مشاعرها مضطربة ومتداخلة؛ في كثير من الأحيان تعود إلى منزلها، وهي معجبة بأكثر من صبي، تريدهم جميعًا لها دون تفرقة.

كانت سارة الوحيدة لا أخوة لها، مما ولَّد لها الأنانية، وحب الذات، والرغبة المتزايدة في الاعتناء، تعلم أن كل شيء سيكون لها، لمن يكون الملك لغيرها؟ لا أحد.

بعد تلك المحاولة، أوْعت العذراء أن الجنس عامل أشد لتجاذب الرعاية، لكن البتول، وعلى نقاض ما يفطمه البشر ترغب في تكوين علاقات حميمية دائمة، وألا تكون عابرة ونزيلة مؤقتة، وهذا ما يجعلها تهوي في فوهة الحب السحيقة دون وعى.

بداية التجربة تولَّدت مع بسنت بالصف الثاني الثانوي، ابتعت سارة كُتيِّب (جمالك يا آنسة) مضمونه يتناول كيفية عناية المرأة بحسنها، انتبهت بأن كاتبه طبيب، وبعد أن أطلعت على محتواه لاحظت أنه كُتب لغير سنَّها، فكان للنساء المتزوجات، فكانت تقرأه كل يوم قبل أن تخلد للنوم، وفي مرة فكرت بأن تحضره للمدرسة؛ فإذا انتبه الناس لها ولمحتوى الكتاب، بالتأكيد سيتجمعون حولها لأن محتوى الكتاب جنسيّ.

جلست سارة جوار بسنت التي تعرفت عليها مؤخرًا بالفصل، المعلمة تلقى الدرس والجميع لها منصت، أما بسنت فكانت تعبث بأظافرها، وأطراف أصابعها، فقد أصابها الضجر منذ بداية اليوم الدراسي، لا شيء تفعله، فأخرجت سارة كتابها المحذور قراءته، وحرصت على أن يكون بعيدًا عن مرأى المعلمة، وأن يكون تحت أنظار بسنت، فقد كانت متيقنة أن بسنت ستنظر للكتاب وتسألها لأنها فضولية.

شدَّت بسنت الكتاب من يدها بعد أن قرأت سطرًا فيه، وأسكنته على حجرها لتتابع السطر الذي قرأته، فشقَّقت سارة وجهها بابتسامة. انتهت بسنت من قراءة الصفحة شغوفة بالتشبع بالمزيد، فأجرت مسح بعينيها على بقية الصفحات المنثورة في قراءة سريعة، ثم ألتفتت برأسها لسارة: هل تهوين هذا النوع من الكتب؟

خشيت سارة أن تُسيء فهمها، فهزَّت رأسها نافية مُكذِّبة.

- لا، لقد اشتريته ولم أدرك محتواه من العنوان.

قالت بسنت بصراحة وهي تقرأ الصفحة التالية.

- هذا النوع هو المحبب إليَّ، لا تخبري أحدًا بذلك، فالنْفوس المريضة تدعى الخجل.

الزمالك؛ بيت سيء السمعة؛ 24 من ديسمبر 2004

الصحفيُّ كريم

بعد الانصات إلى استفتاح القصة؛ كان يطلب منها المزيد كالظمآن. أعطاها الفرصة لتعبر عن مشاعرها المبالغة، فأخبرته أنها تشعر بالحزن عند التجاهل، ولا يمكنها أن تُعطى فرصة لأحد بفعل هذا، أخبرته أن هذا أكثر شيء يزعجها؛ لذا عندما تعود إلى منزلها، وتنفرد بنفسها أمام المرآة؛ تطلق المديح لنفسها بأنها فتاة جميلة، الجميع يرغبون فيها، الجميع يحبونها ويسعدون لنجاحها، لا بأس بأن تكون طيبة معهم لكن لا مانع ببعض الخبث، فالحياة ليست سهلة مع وجود الحاقدين. كان آخر ما قالته سارة

أنها تغار أشد الغيرة عندما ترى أحدهم ناجحًا أكثر منها، فهي لا تتمنى الشر لغيرها بل تقدم معاونات، لكن عندما تجد أحدهم يسرق الأضواء تمنعه، وتبتر محاولاته.

أومأ كريم رأسه، وكان يفكر بالمسجل الصوتي، يتمني لو يُسجل صوتها بنقاء. حدَّق في عينيها التي كانت عينيها كالمحيط، ممتلئان بالأسرار حتى الأعماق ولا تظهران سوى الشفافية على السطح.

- ماذا عن أول تجربة لكِ؟ كيف بدوتِ؟

لقد توقعت سارة سؤالًا كهذا، فهو أمرٌ طبيعي، وبالأحرى التجربة الأولى هي أكثر تجربة تتحدث عنها بين الناس لأنها الوحيدة التي لا تحمل أسرارًا بقدر ما تحمله من دوافع الفضول.

-كان صبيّ، وكنت بالثامنة عشر من عمري، حدث ذلك بالصف الثالث الثانويّ، لم تعلم والدتي شيء. كنت أنزل من البيت، ومعي بضعة النقود الورقية التي تكفيني لاشترى وجبة عشاء واتنقل بالمواصلات. أذكر ذلك جيدًا، أذكر أن اسمه أحمد؛ كان يعلوني بقليل، وخمري البشرة وله شعر أسود كثيف. أذكر ذلك لأنه التجربة الأولى لي في الشغف، فقد أحببت وجوده بجانبي طيلة الوقت، لا أمل ولا يتخل عني، كُنا نتواصل طيلة الليل على هاتف المنزل.

ابتسم كريم، وأراد أن يعرف المزيد من التفاصيل، فكان يتحدث ليساعدها على الكلام، لا يريد أن يُسقط حدثًا، فتابعت.

- تلاقت أرواحنا في مقهى المهندسين؛ ذاك المقهى الذي قابلتك فيه أَول مرة، فأنا عادةً أجلس مع الغرباء هناك. عودنا الطاولة على لقاءتنا بفنجانين حتى تفارقنا وأصبحت الطاولة تحمل فنجانًا بائسًا، فكانت نهايته وبدايتي مع إدمان القهوة. أريد أن أشرد عن ذاك الشغف، لكنني أربط الأحباب بالأماكن والروائح، يتركون فيّ أثرًا، فيأتون بقلب واحد، ويرحلون بقلبين.

حافظ على ابتسامته الهادئة.

- حدثيني عن الحب.

- إنه خمس أرباع الروح؛ إن لم يكن كلها.

- ما هو الحب بالنسبة لكِ؟

- الحب ألا تشعر بالوحدة.

- حدثيني عن الحزن.

– الحزن أن ترى المحبين في خيالك؛ أن تخلو بنفسك فتراهم، أن تحلُم فتراهم، لكن تصحو من الحلم فترى نفسك وحدك.

– ما هو الحزن بالنسبة لكِ؟

– الحزن أن أكون صغيرة بذاكرة كهلة تحمل داخلها ألف سنة ذكرى.

تذكَّرت سارة أصدقائها وقتها فتابعت: كنت جالسة مع أناس لا تمتزج روحى بهم، لكني كنت محور الكلام، والنجمة، ولقاء الأعين. أستطيع جعل الناس يضحكون بسهولة، وأضحك معهم بصوت نغم ليعودوا وينظرون إليّ.

– يا إلهي، هذا صعب للغاية، أليس كذلك؟!

رفعت سارة حاجبيها مؤكدة.

– في الأغلب الوقت أعود بعد تلك اللقاءات لأحتبس بالمنزل، فلا أتحدث لأحد، وأمنع التواصل مع الأحياء لفترة من الوقت؛ حتى استعيد طاقتي، ونفسيتي، وهدوئي، وغالبًا ما أصاب بالاكتئاب؛ لأنني سريعة التأثر بكل شيء يقال حولي.

أبْصر كريم ثلاث سلاسل فضية تطوق عنق سارة، كل واحدة تتسع مقاسها عن الأخرى، فتمكّن من رؤية اثنين. الأولى ضيقة ولا تحمل في رحمها رمزًا، والثانية تحمل رمزًا يجهل معناه، والثالثة مدفونة تحت طيات قميصها فلم يرَها، ولكنه لم يدرك أن لكل واحدة قصة، ولكل قصة حبيب.

تنهَّدت سارة بعمق وهي لا تدرك الآن هل هي شقيَّة لتجربتها أم سعيدة، فقد مر على ذلك سنين طويلة. أكملت سارة: قال لي أنه أحبني من أول مرة، شعر بالحب وكتم هذا طويلًا، وقعت في الحب بسرعة، وواجهتني معضلة، فقد كان فقيرًا؛ فقيرًا للغاية، وبيته في آخر ضواحي القاهرة، وأنا أسكن في الجيزة. كان يعمل منذ صغره مع والده، ويجني القليل من المال، ذات مرة وبعد المناجيات معه على الهاتف كنت أسمع صوت والده وهو ينهره من الاتصال، فكنت أصدق حالته المادية، وأعود باتصاله. باع السلسلة الخاصة به ليحصل على ثمن المواصلات ويأتي إليّ، لم أكن رأيته منذ شهر، عندما رأيته شعرت بحرارة جسدي وهي ترتفع في جنون من لقاءه.

نظرت سارة لكريم في صمت، لا يجب أن تتحدث معه بوضوح عن هذه الأمور، يمكنها أن تفعل ذلك مع الجميع ماعدا كريم، لن تستمتع بالأمر كما ظنَت. أما كريم لم يسجل بالمسجل الصوتي وفقط، بل حفظه في ذهنه، ليصب التفاصيل الخبيثة في مقاله الصحفي. أردفت سارة في تردد: شعرتُ أنني أريد

معانقته، فطلبت منه أن نبتعد عن المقهى، وعن أصدقائنا، وذهبنا داخل الشوارع الجانبية، لم أنظر حولي، ورحتُ أعانقه، وهمستُ له أنني اشتقت إليه كثيرًا. أذكر تفاصيل كثيرة حدثت هذا اليوم، عاشرته وفقدتُ ما أملكه، وكنت سعيدة بذلك لأنني معه.

سرَّت قشعريرة على طول عمودها الفقرى لتذكر العناق بينهم، فكان جسدها يحترق ويرتوى في آنٍ واحد. زمَّت سارة شفتيها بانزعاج. استرجعت أحمد لقد كان فتى غنيًا يُبعثر أمواله بسخاء. انجذبت له سارة لأجل ثراءه، فحالها ومستواها المادي كان فقير، وأصبح والدها يرسل مبالغ قليلة، أرادت أن تكسب قلب أحمد، فكانت تشعر أنه الملك الذي سيتوّجها جانب عرشه؛ لكنه تجاهلها، لم تلفت نظره قط، فقتلها التجاهل وحاولت أن تتواجد في الأماكن التي كان يزورها، كانت تبقى من بعيد لتراقبه، كانت تحبه وتغار عليه، وتحزن منه، وتكره دونما تخبره، فغالبا ما تتضارب المشاعر بداخلها سويًا في مزيجٍ واحد دونما يشعر أحد.

يمكنها أن تبقي صامدة أمام الجميع حتى تعود لفراشها، وتضع وجهها على وسادتها، ومن ثم تنفجر بالبكاء كأي مرة تتكتم مشاعرها فيها حتى تنفجر بداخلها، ويظهر أعراض ذلك في سلوكها العدواني، و العصبية التي اتْسمت بها، فكلما حاول أحدهم مطالبة شيء منها ترفض، ملكتها الأنانية والغرور الظاهر، راودتها أحلامها عن عالم خالٍ من البشر، سيكون الأمر ممتعًا بالتأكيد، لكن سرعان ما ينقلب الحلم بالملل إن تحول إلى حقيقة، فنمط حياة سارة يسير بشكل روتيني وثابت لا تغير فيه سوى القليل، تعود من المدرسة لتفتح دروسها، ثم تتناول وجبة الغداء، وتشاهد التلفاز ثم تنام. تنام طويلًا، النوم شيء مقدسٌ لديها.

لَم تستيقظ تراقب وجهها بالمرآة، لا يجب أن يكون ذابل؛ لذا حافظت على مظهرها أغلب الوقت حتى يراقبها الناس من بعيد، كانت الكارثة إذا استيقظت ووجدت أثر الكحل ذائب على خديها كذواب قطرة المطر على زجاج النافذة، قد تتصل برجال الإطفاء ليغسلوا وجهها ويخففوا من وطأة فزعها.

كان يجب أن تخفى ذلك وألا تخبر الحقيقة لكريم، إن ظن أن أحمد شاب غني لن يتعاطف معها، وإن علِم بشأن علاقتهما وأنها أختها قد ينقلب الأمر، فقالت له: بعد ما قدَّمته له، أخذ منى النور تاركني في عزلتى الدامسة، وحاولت الانتحار بعدها .

محاولة الانتحار؛ نوفمبر سنة 1998؛ الزمالك

سارة

تطلَّعت بسنت إلى سارة، وقد أشتد اتساع عينيها.

كانت بسنت صديقة سارة من الصف الثاني الثانوي، لكن بسنت أخفقت، ولم تحقق المجموع الذي أرادته في الثانوية العامة، وبعد ظهور النتيجة توفى أبيها، فعادت الثانوية العامة، وتأخرت في الدراسة؛ لكنها واجهت الصعوبات بمفردها، فعلى الرغم من الوحدة التي قاستها في إعادة الثانوية العامة. كانت في السنة الأولى تشعر بالوحدة، حتى إنها طلبت من أهلها بالإسكندرية أن يأتوا، ويجلسوا معها، وينسون الخلافات التي بين والدها ووالدتها، التي للانفصال منذ عدة سنوات. لم يكن لها أي ذنب، أو أخيها الأصغر وأخيها الآخر الذي بلغ التسع سنين. اتصلت بهم أكثر من مرة، فهي لا تريد أن تكون بمفردها، لكن لم يحدث ما كانت ترجو، فأصيبت نبوبات اكتئاب، وأهلكت نفسها بين المخدرات، والرجال.

اختارت أن تكون مع أخيها الكبير، فوافق مينا، وجلس معها بشقة الزمالك تلك الشقة التي كانت خالية من الأثاث تقريبا، في البداية حاول أن يبدو سعيدًا، لكن المصاريف في القاهرة كان مبالغ فيها، ولم يشعر بالراحة والتأقلم في الجامعة الجديدة؛ لذا اضطر بعد أول سنة التحويل من الجامعة، وكانت تصرفات بسنت مزعجة، يراقبها كل يوم فيجدها ثملة لا تدرك ما تقول، شعر أنها تُجالس الرجال، فأعماه الخلاف، وعاد إلى الإسكندرية.

دخلت بسنت جامعة القاهرة كلية طب عندما أخبرتها سارة أنها جديرة بذلك، وأنها ستكون سعيدة بالدراسة معها، فكانت تحضر معها بعض المحاضرات، ثم تعود لتأخذ قسطًا من الراحة، وتشرب الساخن، وتعود لمحاضراتها بمفردها فيما كانت سارة في محاضراتها الخاصة.

سمعت بسنت القصة المؤخرة من سارة، لم تدرك كيف حدث ذلك بينها وبين أحمد، فلم تكن معهم يومها، لكنها رغبت أن تعرف ما مضت به معه، فكانت سارة تخبر بسنت أن علاقتها بأحمد معقدة للغاية، وتواجه المشاكل معه، فقالت لها أنه يغار بشدة، ويكره تواجدها مع زملائها بالجامعة، ورغم مشاعر الغضب تلك لم يكن يظهرها، لا تحب أن يبطن طرفها الآخر ويشكو فتشكو.

كانت تكذُب، فأحمد يتجنَّبها كثيرًا، ولكي يحدثها أوقعت عليه الإتّهام. قالت لها سارة أن اليوم حدث بينهما تشابك، كان تشابك من نوع مختلف عن أي موقف دار بينهم في علاقتهم الحادة ككل

علاقات الراجل بسارة، استمتعت بسنت في البداية بنوعية الحديث، فهناك ملامسات إغراء قامت سارة بها بتمرُّس رغم أنها المرة الأولى، وذكرت في قولها الألم الذي شعرت به للحظة وجعلها تتأوه، فسألتها بسنت: هل صدر منكِ شيئًا آخر؟

صدر منها ما لم تبح به ولا تصرح به، نهضت سارة من كرسيها، وبحثت عنه، فلقد خبأت ملابسها في الخزانة، وهي ترجو من الله أن لا تقع تحت يدي والدتها الآن. وجدت سارة ملابسها المتسخة، فأحضرتها لتُريها إلى بسنت. كانت مبللة بالذائب الصادر من الفيض، أحمر كدم الغزال.

– أرجوكِ قولي لي أن هذا لم يحدث.

قالتها بنت، فصُدمت سارة التي كانت تظن أن هذا أمرًا سيعجب بسنت، فقالت في غرابة: ما المشكلة؟

قالت بسنت بنبرة جافَّة: لقد بدأت المشاكل، لن تعودي كما كنتِ...

أطبق صمت ثقيل بالغرفة، وبدا أن سارة معلومتها عن الجنس سطحية وخائبة. لم تظنْ أن هذا النزيف، وشعورها بالألم كان ناتج عن إصابة. كان وقتها المصادر المتوفرة للتطلع إلى الثقافة الجنسية ضعيفة ولا تتوفر إلا بالكتب العلمية، حتى الروايات لم تناقش الكثير من هذا، ولم تقرأ سارة الكثير أو تسمع الكثير، فقد كان مجرد الكتاب الذي وقع بيد يديها، الذي لم يكن بحاجة إلى توضيح شيئًا كهذا.

صدقت بسنت جهل سارة بتلك الأمور، ولم يخطر ببالها حتى أن سارة درست ذلك في الجامعة، فارتبكت، إنها المرة الأولى التي تصدق أحدٌ كاذب، واستمعت إلى بقية حديثها في إنصات.

ساد الصمت في الغرفة، فقالت سارة وببطء: ماذا تقصدين؟

حاولت التظاهر بالغباء، فيما كانت بسنت باردة، جافة؛ لا تبالي، لا تهتم، سترحل وتنسي تلك القصة الركيكة، فهي لا تعبأ، لكنها جيدة بإظهار العكس في حال إن أرادت ذلك. هزت كتفيها.

– في أيِّ لحظة قد تنتفخ بطنك بطفل. . .

وبعد ساعة، وفي الغرفة، كانت جالسة بمفردها تبكي، طلبت بسنت من سارة أن تتركها تغادر إلى منزلها لتأخر الوقت. بسنت شخصية جامدة صلبة لا تسمح لمشاعرها بأن تهج لأي موقف، أو لأي شخص، ولم تتعاطف مع سارة، بشكل عام رأت مواقف أسوأ مما جرى لسارة، ولم يتحركْ قلبها رجفة.

مضت ساعتين شعرت فيهما دعاء بصمت ابنتها، وسكون الحركة في المنزل. كانت تنوى أن تنزل للبار، وتدفع الكثير من المال في النبيذ، ثم تعود لتخبر ابنتها أن النقود بالمنزل لديهم قليلة، والأسعار قد ارتفعت، ومعاش أبيها لم يعد يكفيهما.

ولدت سارة وعاشت أكثر لعدة سنوات على الأرض تعتقد أنها يتيمة الأب، لم تحظْ بوجود الأب حولها، فكانت تشعر بالارتباك عندما تجد سؤالًا بالاختبار يسألها (ما واجب الابن ناحية الأب؟) وحينها يتوقف قلم سارة عن دق الحروف، ويصاب فكرها بشلل، ثم تبكى، تظل تبكى حتى تساعدها المعلمة متفهمة ظروف سارة الاجتماعية، ويزداد حب سارة للحصول على الحنان ممن حولها.

دخلت علاقات قوية وسريعة؛ لكن أغلبها لم يستمر،فضاقت بها جدران الحزن، تناولت أقراص دواء متتالية، وجرعات كثيفة ملأت لسانها حتى ابتلعتها في رشفات كبيرة، وهُمد جسدها على الأرض؛ هدمةٌ لا قيام بعدها. أرادت دعاء أن تتفقَّدها قبل أن تنزل من البيت لتتأكد أنها نائمة، وإن لم تكن كذلك ستقول لها: الوقت متأخر عزيزتي، يجب أن تنامي لأجل المدرسة غدًا. فتذكرت أخيرًا أن غدًا أجازة ولا توجد مدرسة؛ لذا تجاهلت تفحصها، ورأت أنه الأجدر أن ترحل حتى لا تطلب سارة منها أن تذهب معها.

كانت سارة قد ابتلعت كمية من الأقراص إن بقيت تحت تأثيرها لدقائق أخرى ستُفني حياتها، لن يشعر أحد بها، لن يحزن الكثير عليها، فهي شخصية متفاخرة ودرامية؛ لذا سيذكرها معظم الناس بالسوء لأنهم يمحون كل جميل. يُمكن لسارة أن تُفكر إن كانت بوعيها أن الأرض ستبكي لفقدان جثمانها، سيشعر الجميع بافتقاد جزء جميل من الحياة، ومهما مضى بهم الزمن لن ينسوا ضحكتها وإشراقها، والأهم من كل هذا لن يأخذ أحد مكانها في الأضواء، فقد بلغت أعلى درجات الجاذبية، ويجب أن تُكرم على هذا المجهود الذي بذلته، سيتذكرون هذا بكل تأكيد.

انتهيت دعاء من ارتداء ملابسها، وأخذت معها خمارًا أسودًا تُخبئ به جيدها وحسنها عندما تسير في الشارع وتوقف سيارة الأجرة، فهي لا تريد لأحد أن يتعرف على هويتها، وقد اعتادت على هذا منذ سنوات.

قبل أن تغادر دعاء المنزل؛ سمعت صوت ارتطام صادر من غرفة سارة. صوت قوى فلم تستطع منع نفسها من أن اقتحام غرفة سارة، وفتحت بابها على آخرها؛ فأبصرت جثة ابنتها هادمة على الأرض.

ضربت بيدها على صدرها، حتى كادت تكسر عظام القفص الصدر، وصاحت باسم سارة، الاسم الحقيقيُّ لها، لم تجبها سارة، فارتمت بجانبها لتشع يدها على معصمها، فاستشعرت وجود نبض، واطمئنت أنها ما زالت على قيد الحياة. في بداية الأمر لم يخطر ببالها أنها كانت نائمة أو فاقدة الوعي، بطبيعة دعاء التشاؤم وتوقع ما هو أسوأ، فقدرها لم يهدِها خبر سار، والآن ظهر الابتلاء في صورة ابنتها.

بعد أن حاولت مساعدة سارة لتنهض، وأخفقت كل محاولاتها قرعت باب الجيران ليساعدونها، قرعته بكل قوتها فأنتفض الساكنين منه، لم يتأخروا عنها، ولَما أبصرها الضابط شريف جارهم فتح ذراعيه؛ ليمنع أحد من الاقتراب، مُشيرًا إلى أنه يجب أن يكون الوضع هادئ وحسن التصرف.

حمل جسد سارة على ذراعيه كالثجمان، واستدار بها ليذهب بها إلى المستشفى. تابعته دعاء حتى السيارة، ودخلا بها المستشفىقسم الطوارئ تحت الرعاية المركزة. قلب دعاء كان ينبض على منوال متسارع، تشاهد ابنتها من خلال الزجاج وهى تحت أنبوب الأكسجين، مغمضة العينين بين الحياة والموت، بينما شريف صامت ينظر لها بأسف، ظل منتظرا ليحصل على أقوال الطبيب، ويُعاني حالة سارة، ماذا جرى لهذه الفتاة، إنَّه يدرى بكل الخبائث.

يعلم شريف أن دعاء تقضى لياليها في البارات، يدرى أن سارة حياتها متوترة بين زملائها، يشاهد ذلك عندما يسمع من ابنته عن تصرفات سارة الغريبة. حاولت سارة أن تكون لطيفة، وتتقرب من الآخرين لكنها خفّاقة. يدرى أن حارس العقار أسامة يعمل قوّاد، وكان يأتي بالزبائن لدعاء قبل إنجاب سارة، وقبل زواج زيدان الذي أخبرت الجميع أنه كان زواج على الملأ. يدرك شريف بتاريخ حارس العقار، وقضية الدعارة التي سُجن فيها سنة 1972، سببٌ واحد يجعله يتوقف عن إبلا غ الشرطة، سببٌ منعه من أن يفعل ذلك، سببٌ لا يريد أن تعلم به زوجته، وهوإنه يرغب في دعاء بشدة وشغف.

لم ينسى عيد ميلاد ابنته، عندما دعاها ودعا بعض الجيران وأصدقاء ابنته، وامتلأ البيت بالضيوف والصخب، و تعالى الهمس بين الحضور،وتناقلت الكؤوس وقطع الكعك بينهم.

كان يقف في إحدى جوانب الصالة مع ابنته التي تُقارب عُمر سارة، ولَمح دعاء بعيدًا وهي تضحك وتقترب من الجميع، كانت هي المركز، كانت هي الشمس والناس كواكبَ، واستطاعت أن تشد أنظار الحاضرين لها. عندما وقعت عينيه فيها حاولت تجاهله والتحدث مع زوجته، ولكنه راقبها إلى حين أن انتهت، ولم يلحظْ أن ابنته كانت تراقب ما يحدث؟

بادرت دعاء نهايات الحديث مع زوجة شريف، وابتعدت عنها تتنقل بين الحضور، ثم دنت منه، وعن قصد تمايلت أمامه، واقتربت منه حتى أصبحت شفتيها تقارب أذنه وقالت: لمَ لا تأتِ إلي بعد أن تنفض هذه الفوضى؟

شعر شريف بأذنيه تحترق، ودفء صادر من دعاء، ظهرت بقعتين حمراء على وجنتيه، أشاح بالنظر بعيدًا كأنه ينظر لعالم آخر، فدعوتها لا تزال تتردّد في ذهنه.

لا يفطن أن دعاء تُريد أن تكون في حماية السلطات، فإن وقعت ضحية الشرطة قد يوصَّي لها شريف من معرفته بالقيادات. في الواقع، هي لا ترغب فيه، وتجربتها جعلتها تتراجع عن الرجال المُتزوجين، وإن رفض، بشكل ما ستزوّر الأوراق وتنسب اسم سارة إليه.

الزمالك؛ بيتُ سيء السُمعة؛ 24 من ديسمبر 2004

كريم

هناك شيءٌ ما فقده عندما كانت تتحدث. أخبرته بأحمد وما جرى، والملابس ومحاولتها للانتحار. قالت قبلها أن التجربة كانت سعيدة بالنسبة لها رغم الأضرار التي تسببت بها، قالت أن كل شيء حدث عندما كانت في كامل وعيها؛ لذا أراد أن يوقف القصة لبرهة، ثم يطرح عليها الأسئلة. قاطعها حتى أخبرته أنها دخلت الرعاية المركزة.

– كان هذا بسبب أحمد؟ كنتِ خائفة إن كشفكِ أحد ما أم فيما كنتِ تفكرين حينها؟

لم يكنْ الأمر كذلك البتة، اتسعت عينيها، ثم سكتت للحظة. هزت رأسها نافية.

– الانتحار لم يكن قرارًا صعبًا عليّ، فهناك عوامل كثيرة تأثرت بها الفترة الماضية.

أُصبتُ بالاكتئاب الشديد، ففكرت في الموت كأنه الحقيقة الواحدة التي عليّ مواجهتها وتصديقها. كانت سارة تُعانى في تلك الفترة من الأرق، وعدم التركيز. لا تنتبه لما يجرى حولها، البعض يظن أنها ليست في وعيها أغلب الوقت، ظنوا أنها تتناول المخدرات، أو صائمة عن الطعام. كانت بداخلها تشعر بالتفاهة، فالناس حولها تافهون، تفكيرهم سطحي. يرون البريق، يظنون أن علاقاتها الاجتماعية منتظمة، ولا تواجه مشاكل فيها. يعتقدون أن والدتها أقرب الخلق لها، لا يدرون بحقيقة الأمر.

لا يرون المشاجرات اليوميَّة بينهم، مشاجرات روتينية حول التنظيف، النقود، وعندما تعود سارة وتدخل غرفتها في صمت، صراع دائم بين سارة ودعاء حول السجائر، حتى انتهى الصراع بأن اختبأت سارة في دورة المياه بالمدرسة وأخذت تُدخن الكثير من علب السجائر، كانت تحرق وهي تتذكر قول والدتها (السجائر ليست لكِ) لم تخبرها أنها مُضرة، لم تُعلمها الخطأ من الصواب، كغيرها من الآباء إذ قالوا (ذاكر واجتهد لتنجح) لكنهم لم يعلمْوا أبنائهم كيف تكون المذاكرة؟

أو الفرق بين المذاكرة والاجتهاد، فالأمر مجرد إصدار أوامر، كانت تتركها تفعل ما تشاء حتى تراكم الغضب، وأصبح لديها كل ما هو ممنوعٌ مرغوب. كانت سارة تطلع للجرائد وتقرأ العناوين العريضة (أبناء مدمنين الكحوليات والسجائر هم الأكثر ميل من غيرهم بثلاث مرات على أن يصبحوا مدمنين. مُدمنين الكحوليات والسجائر أبنائهم يمتازون بالجرأة والاندفاع عن غيرهم). قرأت سارة الكثير عن السجائر، والكحوليات قدر ما استطاعت، فشحنت بداخلها طاقات ولَّدت اندفاعات على المدى الطويل حتى تحولت الاندفاعات إلى فضول، ثم إلى سلوك، ثم إلى إدمان.

أومأ كريم رأسه، وسألها محاولًا التدخل في حياتها بصورة أعمق:

– يمكنكِ إخباري ماذا حدث؟

حاول أن تكون نبرته طبيعية، وألا تبدو عبارته مسوغة كسؤال. نظرت سارة ليديها على حجرها، فتنهدت، وقالت محاولة ألا تضع عينيها مباشرة في عينيْ كريم.

– إنَّها أمي، هكذا فهمت، سنة 1998 شهر فبراير، وقتها كانت إجازة نصف العام، وكنتُ في كلية الطب بالفرقة الثانية أخبرتني ذات يوم أن والدي توفيَّ، فقلت لها مهلًا! ماذا تقولين؟ ألم يكن قد مات بنفس السنة التي ولدتُ فيها؟

– هل كذبت عليكِ؟

هذه المرة لم تتحكم في نظراتها ورفعت رأسها لتحدق في كريم، هزت رأسها تنفى ما قاله بشدة.

– لا، ليس كذلك. حاولت أن تجعلني أصدق ذلك، لكن صعوبة الأمر كانت قاسيةً عليّ. سألتها ماذا جرى وكيف كان زواجهما، فقالت لي أنه كان زواجًا عاديًا، وأنها أنجبتني منه بعد سنوات أي بعد فترة، ثم طلَّقها، فكنتُ اسألها عن السبب، ألم يعترف بي؟ أكان يُريدني؟ أليّ أخوةٌ آخرون يعرفون عني شيء؟ أسئلة كُلها طرأت في بالي لا إجابة لها حتى هذا اليوم.

بدا ذلك منطقيًا إلى كريم، ولم يحاول مقاطعتها هذه المرة، فقط كان يُراقب نظراتها التي تنقلب حين بغتة من الهدوء إلى القلق. ارتخت سارة بظهرها للوراء، ثم أردفت: حاولت تشويه صورته عندما أعطتني أسباب الطلاق، كأنها أسبابًا مقنعة.

- أيُّ أسباب تقصدينها؟

زفرت سارة زفرة طويلة.

- كالأسباب الشرعية؛ مثلًا هناك عجز منه. قالت هذا ولا أعلم حقًا هل كانت صادقةٌ معي أمْ كاذبة، لا أعلم...

زمَّ كريم شفتيه، وقال وهو يهز يده: ربما كانت كاذبة، لم تخبركِ بكل شيء كما هو عليه؟ لأنها لم تتزوج زواجًا عاديًا، ولم يستمر الزواج طويلًا و. . .

قاطعته سارة لأنها لا تريد سماع المزيد، فهي تتألم كلما استرجعت هذا، على الأقل ليس كما قبل.

- أدركت هذا، كان زُملائي في المدرسة يقولون لي والدتك تُخالط الرجال، وأنتِ لا تعلمين شيئًا.

- كيف كان رد فعلك؟

هزت كتفيها في لامبالاة.

- لا أهتم برد فعلي وقتها أكثر مما كنت أبالي بشعوري الداخلي لفتاة في الثانية عشر من عمرها، وتسمع لهذا الحديث عن والدتها، وكيف ستكون نظرتها للراجل والنساء بعد ذلك، أصبح الناس أعدائي.

إنه لأمرٌ قاسي، حاولت سارة أن تكتم دمعة كادت أن تنجرف على خدها، حاولت أن تكون صامدة هذه المرة، وفجأة تساءلت ماذا تفعلُ بسنت داخل غرفة والدتها؟ هل رأت شيئًا؟

بسنت

اختبأت في غرفة والدة سارة، فلم تواجه مشكلة في فتحها، ولَما جالت بأنظارها في أرجاء الغرفة أبصرت الغبار على الأثاث. كان في الغرفة سرير واسع يكفي لثلاث أفراد، أمامه طاولة خشبية تحمل مرآة طويلة، وعليها مستحضرات تجميل لا حصر لها. شعرت أن الغرفة تشبه غرفتها بعض الشيء، فتشت في خزانة الملابس، وفتحت الأدراج جميعها، أحدثت الفوضى، وألقت الملابس على الفراش والأرض علَّها تعثر على مبتغياها، تركت الأدراج مفتوحة أيضًا، وأوقعت مستحضرات التجميل، ضاقت عينيها عندما أحدث الصوت صوت عالي، كانت تعتمد أن تحطم الأغراض الشخصية لطالما لم تجد أشيائها هنا، ربما تحت الفراش.

وضعت أطراف أصابعها تحت مراتب السرير، ورفعتها لأعلى، سرعان ما شعرت بالألم في ذراعها فسلبت المرتبة وتراجعت للخلف. لا تزال تشعر بالألم، إنها لا تذكر ما جرى لها، ليس العذاب التي تلقته من رجال الشرطة،. كانت تسير على جانب شارع سريع، كانت ثملة وجسمها مسترخي من أثر الكحول، لا تعلم أين هي، كيف جاءت إلى هنا؟ الليل كحيل والظلام ساد الشارع، هناك عيون تلمعان في اتجاهها. كانت عيون بيضاء، أو ربما صفراء، أو ربما ليست بعيون، لا تدرى.

شاهدتهما يقتربان، وكان هناك عيون أخرى بالشارع. عيون في كل مكان، اقترب منها اثنتان، وصطدما بساقيها، فأرتمي جسدها على السيارة، وارتمت على الزجاج، وتوقف كل شيء حتى ازداد سواد الليل ولم تعُد تبصر شيئًا؛ لكنها بعد ذلك وجدت نفسها في مستشفى، الطبيب يتفقد الجروح في وجهها. كان كل جرح لا يقل عن اثنان سنتيمتر. جرحٌ على الأنف وعلى شفتيها، جرح كسر رسم حاجبها، وذراعها الثقيل، نظرت إليه فرأته مختبئ داخل الجبس، وسمعت جملة واحدة: سيظل الجبس لمدة ثلاث شهور. أغمضت عينيها، رأسها بدا ثقيل، فارتمت على الفراش. لا شيء آخر تذكره، و لا شيء بعد ذلك سمعته، كان ذلك منذ ثلاث أشهر مضت. أما الأمس كان الوضع مختلفًا عندما راحت تطلق سارح ذراعها من الجبس.

بسنت

23 من ديسمبر سنة 2004؛ في الصباح

حتفها القدر إلى القصر العيني، حيث كانت بسنت تدرُس. ظلت أشهر تحت العلاج، وقال لها الطبيب ياسر أن ذراعها سيظل في الجبس لمدة ثلاث أشهر. حسبت الفترة المتبقيَّة فتبيَّن لها أن المدة أوشكت على الانتهاء، وأن عليها زيارة ياسر، وللمرة الأخيرة. ركبت بسنت على الأريكة الخلفية في سيارة الأجرة، ثم أخبرت السائق بأن يتجه إلى القصر العيني، كانت النافذة مفتوحة فتسللت الريح البارد نحو صدرها. سندت برأسها على النافذة بعد أن أغْلقتها، شعرت برقبتها تؤلمها، وذراعها ثقيل. لم تسمح لأحد في الفترة الأخيرة بالاقتراب منها ليكتُب عليه كلمات سخيفة، ولم تُجب على أسئلة زملائها التي غالبًا تدور حول مكان اختفائها في الشهور الأخيرة، وسبب الحادث؛ لئلا يتوقع أحدهم أن يحصلوا منها على قصة مُثيرة. لابد أنهم لم يصدقوا أن الكسور التي لحقت بساقيها وذراعها كانت نتيجة حادث سيارة، لعل بعض الطُلَّاب الكارهين لها سرّوا لهذا لأمر.

انْعطف السائق بها بعد أن أدلته أنه لا يمكنه التغلغل داخل القصر العيني بالسيارة، كذلك لم يُمانع بتقاضي الأجرة والتوقف خارج المبني.

خرجت تقف أمام مبني رَحيب يعود للقرن التاسع عشر، وأول مدرسة طب نُقلت فيه كانت من "أبو زعبل" وسُمي بالقصر العيني نسبة إلى صاحبه أحمد بن العيني. داخل القصر أكثر من ألفين وخمسمائة أستاذ، وأكثر من تسعة آلاف طالب وطالبة من كلية الطب يتخرَّج منهم كل يوم أطباء ليتفرعوا إلى بقية أنحاء مصر، ويرجع كلٍ منهم إلى موطنه، بالتأكيد لكل شخص حياته وأسرته وخصوصيَّاته وأسباب دفعته للتواجد هنا.

ترتكز البؤرة هنا على بسنت، فتاة الليل التي التحقت بكُليَّة الطب البشري.

عبرت بسنت حاجز البوابات ببطاقتها، أطرقت نظراتها نحو الأرض في ثبات كلما اقتربت من مبنى العظام، كأنما ترى زخرفات على الأرض. حاولت أن تبقى هادئة، وغير ملفتة حتى تنتهى من فكِّ الجبس، وعندما صعدت سلالم الطابق الأول والثاني، بدت مُرهقة، ووجهها كئيب، فأغمضت عينيها برهة. عندما مرَّت بغرفة ما، تذكُرت أنها ذات مرة مارست المسبَّة والقبح فيها مع إحدى العاملين هنا، فزمَّت شفتيها، وفتحت عينيها لتجد نفسها أمام غُرفة ياسر. تعرف أنه بالداخل لكن الحشد أمام باب غرفته سيؤخرها. بسنت امرأة صبورة؛ لكنها تكره الانتظار حينما تُطالب بشيء.

أتتْ مبكرًا عن ميعادها، ولم تمنعْ نفسها من تجاوز المرضى المتعلقين لتفتح الباب الذين سارعوا بالوقوف خلفها، ونشروا أنظارهم في الغرفة، ليروا إن كاد أن ينتهي من المريض معه أمْ سيطول انتظارهم. انتبه ياسر لصوت الباب الخشبي العتيق وهو يتزحزح إلى باطن الردهة، فلفَّ برأسه من فوق كتفه الأيسر ليُطالع بسنت، وهي تمنع تجاوز المرضى عتبة الباب، ثم أوصَدت الباب خلفها.

حاول ياسر ألا يُظهر أي تعبير على وجه، وراح يُطالع المريض الراقد أمامه محاولًا إظهار اللامبالاة. شعر بخطوات بسنت الهادئة تدنو من كرسي أمام مكتبه، فراقب توتُّر أنفاسه، ونبضات قلبه، فوجودها يُثير القلق أينما كانت، ولعلها تستمتع بهذا، بل تحب كونها غريبة الأطوار وشخصية غير مألوفة.

غرست بسنت أنظارها في عينيه عندما لفَّ برأسه ليتفرَّس فيها. بدت هادئة وجافة، فلا أحد يعلم قصة شعرها القصير، الجروح العميقة المُصابة بها في وجهها، عند حاجبها، وطرف شفتيها، وأنفها، لا تزال موجودة، كما لو كان حيوانٌ مفترس غرس مخالبه تحت جلدها، كان شعرها قصير غير سويّ، فكأن قاصصه غير ماهر يقصد التعذيب.

تبادلوا نظرة طويلة لم تعرف بسنت إن كانت نظرة تحدى أم انزعاج. كانت قادرة على الإحساس بالجرح على شفتيها بعد أن مررت لسانها على طرفه وببطء. رفعت بسنت حاجبها، ورغبت في سرها وبشغف، لو تذوقت طعم القُبلة من ياسر.

أتسم ياسر بالهدوء والإنْضباط. كان طويل القامة، رفيع الجسد، قوى الأكتاف. توقف عن ممارسة الرياضة منذ سنوات. شعره أسود قصير، وبداخله حُزن دفين لا أحد يعلم قصَّته. طاقم العمل والطلاب يعرفون أنه من شمال سيناء، ولا شيء يدركونه عن أهله، حياته قبل أن يتعيَّن في القصر العيني، وكيف يسكُن ولِماذا لم ينتقلْ لسيناء. تمنَّت بسنت لو ينتهى بأسرع وقت، بالفعل ليس لديها شيء تفعله اليوم إلا أنها تريد الرحيل، فجسدها فقط يحتاج إلى راحة وعقلها، والصداع. ضغطت على فكيَّها في غضب، إنَّه بطئ، بطئ كأنه يتعمَّد عقابها على طريقة دخولها. فتحت بسنت فمها فتحة ضئيلة تكاد تُعبر عن اندهاشها لَمَّا أخرج ياسر المريض، وأنهي جلسته معه سريعًا.

أتخذ ياسر مجلسًا على كرسيّ أمامها، وأخذ الاثنين يراقبان خطوات المريض حتى غادر الغرفة دون أن يستفسر عن الميعاد الآخر، ثم أغلق الباب خلفه مانعًا المرضى المنتظرين بالدخول حتى يُأذن لهم. راح ينظر ياسر إلى بسنت، وهي تحدق في تينك عينيه العسليتان، ولم تكن عيناه تفوق جمال وبراق عينيها الخضراوتان. فعلت بسنت مثلما قال لها ياسر، فلم تضغط على ذراعها طيلة الفترة السابقة، وتحمَّلت وزنه على رقبتها، كما أنَّها تخلت عن القيام ببعض الأعمال المنزلية لئلا تُجهدها، في الواقع هي لم تفعل شيء طيلة الفترة السابقة، ولم تنسَ آخر ما دوَّنه لها في قائمته، وهو أن تتناول قرص الكالسيوم بعد الغداء كل يوم إلى جانب نظام غذائي سوف يُساعدها على بناء جسدها من الأذى الذي أضرَّ بها.

ضغط على فكه محاولًا التخلص من الشعور بالقلق، نظراتها نحوه حادة أكثر مما يجب، ورغم ذلك، بيده أن يكشف أوراقها وأسرارها أمامها ليُبين لها أنه لا يأبه بالتهديدات التي قد تلحق به مستقبلًا، إلا أن تجربة بسنت الأخيرة زالت من قلبها الخوف والرهبة، وبدلتها لتكون شخصًا آخر لا يقهره إنس. بالطبع لا يدرى ياسر شيء عن الفترة الأخيرة التي مضت بها. رآها وهي تُمارس الفُحش سرًا مع شخص مجهول الهوية بالنسبة له،وراقبها بعد ذلك لفترة، فالمراقبة والتلصص سمة بارزة في شخصيته، قد يُبلغ عنها بعد كشفه أنها زانية، ولكن ما الفائدة الآن بذلك، سيعلم أين كانت، والسر وراء كذبة حادث السيارة عند كتابة التقرير.

تمتم بجفاء: أرجو أن تكوني مُتبعة النظام الغذائي الذي كتبته لكِ، سيكون مُفيدًا تلك الفترة، أما عن نتيجة الأشعة الأخيرة فهناك تحسنٌ، وبعض الآلام لا تزال مستقرة.

أشاح ياسر نظره في إحدى زوايا الغرف لثانية وعاد يحدق إليها في تردد: أعتقد أنكِ لازلتِ تُتابعين حالتك مع الطبيب النفسي؟ أليس كذلك؟

ابتسمت بسنت ابتسامة حفظت أسنانها من السطوع، ابتسامة تُبطِن أسرارًا.

بلع ياسر ريقه وبلع معه صمتها وابتسامتها: إن واجهتك أيَّة مشاكل، يُمكنك إخبار الطبيب النفسي سيساعدك ذلك على التقدم، أو يمكنك الجلوس معي وتحكين لي.

أحبته عندما قال (معي) وأحبته أكثر عندما ختم جملته المُسمَّمة بمعالم مُبطنة بكلمة ((لي)) لكنها حاولت تفادى كل ذلك لتتخلص من الجبس، ومنه. فكرت بأن تُقطع رقبته بأداة القاطع بعد أن يُنهي عمله، فسيكون الأمر ممتعًا إن ارتكبت جريمة قتل للمرة الثالثة. حافظت على صمتها المبهم، ولم تقايضْ قوله بكلمة. واجهت بسنت في الفترة الأخيرة شخصيات، وأمور قاسية، أُلْحقوا الضرر بها، وأبرحوا جسدها جلدًا، وصعقا حتى كادت تنفصل أطرافها، وتنقسم ضلوعها، وتتهشَّم عظامها.

بقى ياسر عاجزًا عن علاجها عندما رآها للوهلة الأولى صدَّق أن هذا نتيجة حادث سيارة، وبعد فحص جسدها تطلَّع إلى نتائج الأشعة المقطعيَّة في غياب بسنت، فتبيَّن له أن كل أذى تسبب فيها كان بفعل جريمة.

ترك مكتبه حينها وذهب إلى غرفتها حاملًا الأشعة معه، اعتمد على رؤية كارلا أولًا طبيبة الأعصاب والنفسية والمعالجة لها. رأتها أول مرة تُعاني من تشنُّجات في أطرافها، والفزع يصرخ في عينيها من بطش ما شافته ولاقته، أطرافها لا تستجيب للتشخيص، وعيناها مُسمَّرة في نقطة وهمية بالحائط، جفنها لا يرمُش. فقدت الحسّ بالعالم حولها، وتناهت إليها الأصوات حولها كفراغ لم تستجبْ لها لأنها لم تسمعها، وفي تارةٍ أخرى كانت تصرخ، وتصيح بنوبة فُجائية من آلام أدركتها كأنَّها استفاقت، وشخَّصتها كارلا بمرض نفسي- جسدي.

ناقش ياسر كارلا بشأن نتيجة الأشعة، ولم تكن كارلا في واقع الأمر منتبهة لأغلب حديثه. تواجه كارلا معضلة مع طارق زوجها، معضلة عطَّلت مسيرة يومها، بل حياتها كاملة. كادت تتوقع أن ينفصلوا تمامًا بعد أن جاوزوا مُدة شهور عن يوم زواجهما، فهي قلقة من قرارات هذا الرجل بعد أن تكهنت أنها تتحكم بزمام الأمور وكل شيء سيمضى في لين. يكفيها ما مضت به أثناء فترة خطوبتهما بسبب وجود

سارة بينهم. توقَّعت أن يتحسَّن بهما الوضع، وتبرد المشاكل، لاح أن كل شيء قد ينقلب رأسًا على عقب. أرادت أن تقول لياسر أنها سوف تُقدِّم على إجازة من العمل، وأن تتولى الحالة طبيبة أخرى غيرها حتى تحل عقباتها، كلما فكرت بأنَّ سارة سوف تُشرف على الحالات يُصيبها اضطراب لخوفها من اهتزاز مكانتها، فطُلاب الامتياز أجْدر بأن يلحقوا أضرار بالمرضى إن لم يكن عليهم إشراف من المتخصصين.

نظرت لياسر وهو يُتمتم بالحديث، بالتأكيد كان يقول شيئًا مهمًا. قال شيء عن الحادث وأشعة بسنت، وأن هناك أمر ما غير منطقي، ولكن ذهنها لا يزال مشتت.

وقتها كانت سارة طالبة الامتياز متواجدة في الغرفة معهم، وهي وقع تدريب جانب كارلا في قسم الأعصاب بعد أن انتقلت من قسم الطب النفسي، وطُردت منه أثر شجار أحدثته مع الأخصائيَّة.

اعتادت سارة على أن يكرهها الناس، فلم يؤثر هذا نحوها بشيء عظيم ولا بقليل. انتبهت عندما سمعت اسم بسنت وكلمة "حادث"، فانتصبت من مقبعها لتنضم إليهم. اقتربت نحوهم بخطوات متزنة، ثم أخذت رسم الأشعة من يد كارلا وأجرت مسح بعينيها على نحو سريع فرأت جميع الكسور، ألتفتت إليهم في اهتمام تسأل: ماذا جرى لهذه الحالة؟

تنهَّد ياسر تنهيدة عميقة، تنهيدة قد تُساعده بإزاحة التفكير عنه: نظنُّ أن الكسور نتيجة تعذيب، وليست بحادث سيارة لتعدُّد مناطق الكسر في الجسد.

- حسنًا وأين هي؟ أقصد الحالة.

سألت سارة بفضول، فعلَّقت كارلا وهي تشد الأشعة من بين يديها: أعتقد أن هذا أمرٌ لا يخُصِّك.

تعمَّدت في نبرتها القاسية أن تُبعدها عنها، إلا أن غضبها كان ناتجًا من تفريغ شحنات القلق تجاه مشاكلها، وصبَّته أغلب الوقت في سارة، حاولت سارة أن تبتلع ذلك وبصعوبة.

ذهبت كارلا مع ياسر لغرفة بسنت تتفقَّدها، لكن سارة لم تتركْهما، فتابعت السير جانبهما في عناد حتى وصلوا إلى غرفتها التي احتوت على سرير واحد مخصص لها في غرفة واسعة خالية من وسائل الاتصال بالعالم الخارجي.

بدا وجه بسنت شاحبًا، وشفتيها بيضاء كأنما تابعت الصيام لأيام متوالية. لم تكن تشرب الكثير في الفترة الأخيرة، ولم تتلقْ طعامًا صحيًا. المشكلة في الشعور بالألم الذي يملأ جسدها، ركبتيها، أكتافها، رقبتها، وأسفل العمود الفقري، اشتكت من الألم وتساءلت؛ متى ستعود لمنزلها وينتهى العلاج؟

تقدّموا ناحيتها ببطء، كما لو خائفين من أن تتجشم وتفترسهم، فالغرفة التي وضعت بسنت فيها لا ترعى سوى المجرمين، أو ذوي السلوك العدواني. وقفوا أمامها على هيئة صفًا عريضًا، فاعتصر قلب سارة عطفًا على حالة صديقتها، بينما كارلا كانت تتأملها للمرة الثانية، وكأنها الأولى، وسجلت أن الحالة تحسنت عما سبق، فيما كان ياسر عابس الوجه، يلح عليه الفضول.

استفاقت بسنت تغرس أنظارهم فيهم بعد أن رمشت بعينيها من النور الذي لم تبصره لساعات مضت. عندما مرَّت بسنت نظرها نحو القادمين تسمرت نظراتها نحو سارة، وانقبض قلبها فأشتد التوتر بينهما. كانا أصدقاء من فترة الثانوية، بعد أنْ حولت أوراق بسنت من مدرسة الراهبات إلى مدرسة خاصة للبنات فقط بأمر من والدها، وتلك الفترة التي اكتشفت كلٌ منهم أن الأخرى لديها ميول إلى عالم الليل وحب الارتباط بالرجال. بعد ذلك، اجتازت سارة اختبارات الثانوية العامة وجنت مجموع يؤهلها لكلية الطب جامعة القاهرة، بينما كانت بسنت أدنى منها في التحصيل الدراسي. تفرقا أشهر بعد النتيجة، وتقابلا صُدفة في جامعة القاهرة، فظنت بسنت أن سارة كانت متواجدة لتسجيل أوراقها، والتحاقها بالكلية، وعندما سألت بسنت عن مجموعها أكَّدت لها أنها سوف تلتحق بالتمريض، وبعد سنة، علمت سارة أن بسنت عادت الثانوية العامة – النظام السابق– وحصلت على مجموع يؤهلها لكلية الطب، والتحقت بها سنة 1997. اجْتهدت بسنت في سنواتها الأولى، ورسبت في السنة الثالثة لها، فكانت متأخرة عن سارة بالدراسة، وعادت صداقتهما في الجامعة أشد من ذي قبل.

واجهها ياسر بالأشعة، وكذَّب أمر الحادث، ثم طالبتها كارلا بأن تطلعهما على الحق حتى يدونوه في التقرير. في البداية رفضت بسنت أن تبوح بشيء، فشدَّت كارلا الأشعة من يدي ياسر وحذَّرتها بقوة كأنما التحذير الأخير: لن نكتب في التقرير أنه حادث سيارة، فهذا غير منطقيّ بالمرة! قاطعتها سارة فكفَّت كارلا عن القول: اتركيني معها. قالت كارلا بنبرتها الرفيعة: ستكتُبين التقرير؟ أنا أشك.

أكَّدت سارة، وبثقة دون تردد: سأفعل.

رغم أن كارلا لم تكنْ واثقة لأن تُحمِّل سارة المسؤولية؛ لكنها تركتهما سويًا، وغادرت مُشيرة لها أنها لن تستطيع البقاء معها طويلًا.

أومأت سارة مُتفهِّمة حالتها، وتركتها تُعتق من الغرفة لعلَّها لا تدرى أن سارة تعلم بشأن العقبات التي تمُر كارلا بها مع زوجها، وأنَّها للحظة ما، وأثناء غياب كارلا إلى دورة المياه، كانت سارة تعبث في رسائل هاتفهاالواردة إليها من طارق بطريقة غير أخلاقية؛ لكنها لم تجنِ شيء من ذلك. كان آخر اتصال بين كارلا وطارق منذ أسبوع، ومن بعده لم تعرف كارلا عن طارق شيء. منذ أشهر لم يمكث في البيت إنها حزينة ولا تمانع بسيل دموعها على خديّها مُظهرة هيج عاطفتها، وسخطها نحو تصرفاته، وللمرة الأولى لم تُفكر بعقلانية.

بعد دقائق كانت سارة قد سحبت كرسيّ من الخارج لتدخل به إلى غرفة بسنت، لمحت سلسلة الحديد تُقيد معصم بسنت. لم تبصرها عندما دخلت المرة الأولى، وضعت الكرسي أمامها مباشرة لتجلس عليه. زمَّت سارة شفتيها بحزن، شعرت بالشفقة تجاه بسنت، وربما هي هنا لتُساعدها، لو أخبرتها حقيقة الأمر لن تكتبه في التقرير، ستمُرر التقرير على كارلا دون انتباه وتأخذ إمضاء منها، ثم تُنهى كل الإجراءات بنفسها مع الإدارة.

تنهّدت تنهيدة لحقتها نظرة ثاقبة لبسنت، راقبت وجهها الشاحب وشعرها القصير، فدارت أسئلة بذهنها أسئلة لا إجابة لها، هناك أشياء تحتاج لتفسير.

تمتمت سارة: بسنت... ماذا جرى لكِ؟

بدا صوت سارة هادئ يخترق القلب، وكذّبت تقول: أنا هنا لأُساعدكِ.

شعرت بسنت بصداع قوى في رأسها، فأغمضت عينيها بشدة من الألم:سيزيستا. قالتها بسنت بعجز.

اتسعت عينيْ سارة من الذهول، وقالت بنبرة أقوى:هل عُدتِ للإسكندرية؟! تكلَّمي!

فشلت سارة لأن تكون هادئة للحظة.

إنَّها قصةٌ طويلة، لا يجب على الجميع معرفتها بالأخص سارة التي تظن أنها تعرف عنها شيء.

- بسنت لن أُخبر أحد بشيء، سأُزوّر التقرير.

قالتها سارة ولم تكن واثقة مما قالته.

بسنت الاسم الحكومي المستعار، فبسنت هي الزهرة المحببة إلى النفوس، تحمل أكثر من أحدى عشر اسمًا، تُجيد التحدث أربع لغات بطلاقة من تعاملاتها مع الأجانب. تستطيع قراءة لغة الجسد، والعيون بحدسها القوى، و تبتسم للغرباء أكثر من الناس الذين تعرفهم، توُ جيد التفرس في الوجوه، فتقرأ

الناس من قبل الحديث معهم، قد تعرف قصة الشخص كاملة من نظرات عينيه. تدرك كيف تجذب الزبائن بسهولة، وتقول أنه مهما كان الرجل ذو مكانة ومنصب يخضعُ لها.

كانت أفتنُ من سارة وأجمل منها، وهذا ما جعل جابر القوّاد يتعامل معها أكثر من بقية الفتيات التي تفوّقت عليهن، فتعاملتها تقتصر على الزبائن الأغنياء حتى تتجنب المشاكل وتشعر بالسرية في علاقاتها.

بدأت ميولها الجنسية منذ أن كانت صغيرة عندما سمحت للصبيان ببعض التجاوزات، بدأت كفتاة ليل عندما بلغت التاسعة عشر، وأول شخص مارست معه الجنس نور شقيقُ الصحفي كريم الذي كانت في يومًا ما السبب في دخوله السجن، وكان الجنس في فَهْم بسنت هو مركز الكون وطاقة الحياة.

اقتحمت بسنت هذا العالم الغامض عندما قابلت خلال هذه الفترة مئات الشخصيات، وامتلأت ذاكرتها بأسرار رجال الأعمال والمشاهير. تعرف ما لا يظهر على الشاشة، وما لا يُكتب في الصحف. بإشارة منها تسجن العشرات والمئات، وهذا السبب الذي يجعل الكثير من الرجال يبحثون عن وسائط ليخرجوها من السجن، والعقبات التي تواجهها، وإلا وقعوا معها. تعلّمت من جابر القواد كيف تغوى الرجال، ومتى تبتعد عنهم، ومتى تتقرَّب إليهم رغم أنها لم تكن تحتاج لتلك الإرشادات، قال لها:لا تظُني أن جمالك سوف يُغير الكثير، وعلّق على اهتمامها بجسدها الذي أصبح سلعة تبيع وتشترى وتذل به البعض حتى يُسال اللعاب وتجهد العقول وتضطرب القلوب.

قصّة بسنت التي أخبرتها لسارة كانت ترتكز حول والدها الذي كان قاسيًا معها، و يتعامل معها ومع أختها كأنَّهم في معسكر، فكل شيء بمواعيده ونظامه. كان يُوقظها من نومها فجرًا لتجلس معه دون سبب، و يأمرها بكل صغيرة وكبيرة في البيت، فشعرت بالكره والضيق منه. مزّق لها ملابسها الضيقة، ولَمَ صرخت كتمها. أحبَّت الرقص منذ صُغرها، فنهرها عنه ومنعها، قالت لسارة: عندما أرقص لا أشعر بمن حولي، تأخُذني الأنغام فأتوه فيها، وترفعني الألحان بصخبها على الأرض تُهدهدني.

تُدغدغ الكلمات تفاصيل جسدها وتميل مع ارتفاع اللحن وانخْفاضه، لا ترى نفسها إلا جزءًا من الموسيقى، اختارت أن تكون بين الرجال، فلعنها أبيها، وقال لها حرام، حرام أنْ تتمايل الأنثى برشاقة.

بدأت بسنت تعي جمالها لَما كانت تتلقى مغازلات في الشارع، فتسعد بها وتمزج مشاعرها بالغبطة. بعد وفاة والدها رحلت من المنزل، تعرفت على جابر في الحانات. أرادت ذلك واستمرت فيه. كانت أعراضها النفسية في مرحلة صغرها قد بدأت ووضحت، إذ عانت من التبوّل اللاإرادي،

واضطراب فرط النشاط، ونقص الانتباه. خفَّ ذلك عندما توفيّ أبيها، فشعرت بصدمة، وفرحة في الآن نفسه؛ لكنها في النهاية تحرَّرت منه، وتدنَّت بالسلوك، وما فعلته ظل معها، فكانت تقضم أظافرها حتى ضعفت، وأدت إلى هشاشتها وألتهب جلدها. تتوتر بسنت كثيراً إن صادفها شيء، فهي تخاف الفشل والسقوط. أحست بالشرود بعد رحيل أبيها عندما أوْعت أن كل قراراتها ستتخذها بنفسها، فدعت أهلها المنفصلين عنها ليجلسون معها، فلم تقبل والدتها، وبعد تفكير طويل أرسلت لها شقيقها مينا ليُجالسها في الجيزة ويدرس معها، لكن كانت سنة وغادر ليُتابع الثانوية العامة في محافظته.

لحظة طيش أشعلت بسنت السيجار من سارة، واختفت الابتسامة من وجهها وهي تحكي عن لحظات الطيش التي تملَّكتها. تعلم أن العلاج النفسي فكرته مبنية على الحديث؛ لذا ستقول ما لديها، أو ستقول ما تذكره، فهناك مواقف مرت بها في السنة الأخيرة لا تذكر ما حدث فيهما بالتفصيل، وبعد أن قيّض القدر بمنيّة والدها، و لاقها ابن دمها فكان أن مكث شقيقها معها، كانت تتوسّم أن والدتها ترسل لها نقود مغتبطية كل شهر ليصرف بها عليهما. كانت ترسل مبلغ مُكرّم يُيسّر لهم عناء الحياة، و بعد أن أخبرتهم أنها تخلّت ما لديها من ذهب وقد اجتاح الأسرة طيف الفقر، كانت ترى أين يدُس مينا أوراق النقود، وعند انزحاحه تبقي معه مبلغًا زهيدًا لم يصرفه ليغدقه على والدته حتى تغرق فيه، فنهبته بسنت وهاوت إلى الطُرقات الزنقة يوم نزاحه إلى المحروسة لتُعرّى عنها الكساء الخارجي، وسارت ما تيسّر لها من السير في شارع جامعة الدول العربية بلا مرام.

كانت مُهلهلة بحريتها، وعندما أشتدت عليها بطنها بالجوع دلفت إلى مطعم فاخر، وهناك تعرَّفت على شاب غني يُدعى باللقب عمر، فدعاها لمشاركتها الطعام فقبلت الزهرة من دون تردد. دار بينهم حديث عرفت منه أنه يقطُن وحيدًا بعيدًا عن أهله المغتربين، و يمضى أغلب الوقت مع أصدقائه. لا هدف لحياته، تحدَّث معها حول الجنس فوجدها تملك من العلم ما مَلكَه فرويد! وقصد تواضعها تواضع اينشتاين! وقد فتح عليها طُرقات لا يُختم لها الحديث، فبتسّم الغاني، وكانت البغية المُناسبة. رافقته ليسهروا في أحدى النوادي الليليّة، فكانت المرة الأولى التي تُبصِر فيها ألوان هذا الكون المثير على الطبيعة، وفي أحضان الملهى اجترعت الكحول فملأت معدتها حتى العنق، وفطنت التدخين لأول مرة، كانت من قبل تُدخن ولا تحاول أن تمتص رئتيها رحيق الدخان، فكانت تُداعب النيكوتين بدافع الفضول ورغبتها في فعل ما يفعله الرجال ليُعطى لها انطباع القوة.

لاقت نفسها ترقص على أنغام الموسيقي التي كهّنت أنها لم تُعد تُجيد الرقص، وكانت هي والرقص انكتبا في الهوي عُشاق، وفي لحظة دنت سائحة عربية من بسنت مادّة لها رقم هاتفها على أن يكون بينهم حرفة، فرحّبت بسنت لتُغامر، وأخذت الأوهام تصوّر لها جبالًا شاهقة من الرغد، ولا تدرك نكبة هذا العالم الرجيم، فتقرع صدرها لِما سيحل بها هوان، فلتبقي! فلتلقي!

أتممت سارة لها التحليل النفسي، ودوّنت بعض النقاط والملاحظات:

(يراود بسنت مزاج كئيب بصورة استمرارية - تقريبًا كل يوم)

الملاحظات: شعور بالفراغ والحزن، وشعور بالغباء وانْخفاض قدراتها الذهنية، شعور بالفتور وتجنب الأعمال اليومية، وقلة تركيز، وانخفاض وزنها بنسبة قليلة غير ملحوظة إلا على المدى الطويل، والأرق)

سجلت سارة سبع نقاط من تسع نقاط في تشخيص الاكتئاب يعني أنها مُصابة بمرض نفسي فقط وهو (الاكتئاب) عانت منه أسبوعين، وهي في حالة خطيرة إذ قد يؤدى سلوكها إلى الأذية، أو القتل، وربما الانتحار.

في العادة تُعاني بسنت من نوبات إكتئاب على مدار الشهور، وتعود كما كانت، في أغلب الوقت يراودها المزاج السيء.

كانت سارة في حيرة في أن يكون تشخيصها خاطئ لأن كارلا وصفت حالة بسنت بمرض نفسي- جسدي إحدى أعراضه الاكتئاب، المرض الذي أشارت إليه كارلا لا يعتمد على التشخيص، وإنما طبيعة الأعراض.

في المساء

عندما رجعت بسنت إلى منزلها بحي الزمالك؛ محاولة التركيز على ذراعها بعد أن كان في حماية الجبس والآن شعرت به وهو يتحرك. سمعت صوت هاتفها لعلَّها ظنت، رغم صوت المطر الغزير أنها سمعت لصوت هاتفها. إنه في مكان بعيد عنها الآن، لا تذكر أين ألقته قبل رحيلها، من الجيد أنها تلقت اتصالًا كي تقوم بقصِّ الشريحة وإلقاءها في كومة القمامة.

جلست على الأريكة برفق من بعد قيامها بأكثر من عملية في العمود الفقري. تنهَّدت، لم تكن تتحمل هذا اليوم، و تلقَّت تهديدات جمَّة من سُكان العمارة برحيلها رغم حقها في السكن عاجلًا أمْ آجلًا كانت تتوقع أن تلك النهاية قادمة حتمًا، وأن عليها أن تستفيق من الصدمة التي أوقعت نفسها فيها منذ سنوات. كشفت هويتها بعد خروجها من السجن، لن تستطيع إخبار كارلا أو ياسر أنها كانت

في السجن. ياسر طبيب عظام يُمكنه أن يكتب أي شيء في التقرير ويمضى عليه وينتهى الأمر دون تحقيق. استرجعت قوله وهو لا يزال يتردد حتى الآن في طنين أذنها

(هذا وفي اليوم المُحدد إليه بشهر إبريل، تمّ الاعتداء جسديًا على...

كتب اسمها الثلاثي المُسجل في البطاقة، ثم تابع بمقتضب البيان: *في سجن القلعة وبعدها صُدِر أمر بنقلها إلى القصر العيني لتتم إجراءات العلاج اللازمة بعد أن تمّ الإفراج عن المُتّهمة بجريمة ارتكاب الزنا، وتبيَّن من فحوصات الدم نتائجٌ إيجابية؛ إذْ أنَّها خالية من أيَّة فيروسات عدائية، يُجرى تحويليها إلى قسم النساء والتوليد لمُتابعة حالة السرطان لديها)*

وقَّع ياسر على التقرير بعد أملاه على بسنت، وطالعها بعينين بعثا الطمأنينة داخلها، فارتخت مكانها، وأبلغها بضرورة قدومها غدًا للقيام بفحص على السرطان، لكنَّها نفت ضرورة الأمر، ورحلت في هدوء. كانت خائفة في بداية الأمر لإطلاع أحد أنها بالسجن، وأن هذا الاعتداء قد تعرضت له من رجال شرطة. ارتجفت كالبرّاد الموشك على التفجر بماء مغلى. لا يزال الهواء قارس بالخارج، وهي وحدها في مستقرها ومأمنها من الأوغاد أشباهها. لم تدرك أن الجيران والناس جميعًا سوف يعرفون أنها صبية الظلام والهوى، خيّل لها الأمر أن الشرطة في أي لحظة قد تقرع باب منزلها ويقبضون عليها، فارتعبت وأيقنت أنها لن تنعم بعد تلك الليلة بنوم هنيء، سيصل هذا التقرير لأمن الدولة لإتمام الإجراءات الأخيرة، وحينما يقرؤون ما فيه لن تدرك ماذا قد يحدث فيها، أما ياسر فلن يرحمها.

الحوار الصحفي؛ الزمالك؛ بيتُ سيء السُمعة؛ 24 من ديسمبر 2004 كريم

كان بجيبه ورقة وقلم ينشُد فيهما خبائث حياتها. إشْتهى من سارة أن يكتُب بعض العبارات التي احتاج لتدوينها بعد أن وثق أن جهاز التسجيل لن يعمل بنقاء، فسارة تسعي في أرجاء الشقة ما بين سفرة الطعام والمطبخ كالطفل الذى اكتشف قدرة أطرافه على الحركة، ترصَّد خطواتها في كل آنية، ورفق الأسئلة والإجابات وراء سارة تحت عنوان "اعترافات ليلية".

سؤال: ما سبب محاولة انتحارك نوفمبر سنة 1998؟

سارة: بسبب والدتي، أخبرتني أن والدي كان على قيد الحياة طيلة هذا الوقت ثم مات، توفي في فبراير سنة 1998، وأخبرتني مؤخرًا ببعض الأكاذيب، ثم قالت لي انزلي للشارع، تعرَّفي على الرجال، فلا تبقين هكذا دون معارف وأصدقاء. انزلي للشارع وأقيمي علاقات بالجميع.

سؤال: هل فعلت شيء يضُر بكِ؟

سارة: أخذتني إلى شارع الهرم، رأيت الملاهي الليلية لأول مرة، ولم تبدْ لي كما تُصوَّر في التلفاز، فالمكان يعجُّ بالضوضاء ولا تكد تسمع من جانبك.

الأماكن نظيفة للغاية، أخذتني، رمتني إلى رجل أعطاها عشرة آلاف جنيه مُقابل الساعة. كانت هذه المرة الأولى قبل أن أتعرَّف على أحمد، الملابس التي أريتها لبسنت كان مُصطنعة.

سؤال: أنتِ فتاة ليل أمْ طالبة الطب؟

سارة: لا أدرى، فهذا السؤال فريد. لا أحد يراني على حقيقتي ربما لأن جميع الموجودين في الملاهى والبارات على حقيقتهن الغير مصطنعة بين المجتمع. لا أشعر أنني فتاة ليل، لكني أشعر بالعار عندما أرقص، فلا أجد نفسي سوى بتلك الأماكن. عندما بلغت قالوا لي ارتدي الحجاب ولا تُظهري مفاتن جسدك، عندما دخلت الجامعة وقعتُ في شر أعمال والدي، لا أحد يعلم أنني سلكت هذا الطريق منذ صغري، وجدتُ نفسي بين الرجال والموسيقى، قالوا لي حرام، حرام أن تهز الأنثى جسدها وتتلوي أمام الأعين.

سؤال: هل تشعُرين أنكِ فريسة ظروف الحياة؟

سارة: هذا الشعور لم أتأكدْ منه بعد، لا أؤمن بقلب رأى من البؤس ما أخرسه.

سؤال: بما تشعُرين أغلب الوقت؟

سارة: أشعر أنني امرأة عاطفية إلى حد مبالغ فيه، الجانب العاطفي فيَّ يحتل الجزء الأكبر من شخصيتي. يظنُّ الجميع أنني أحاول لعب دور الضحية، لكني أريد الاهتمام، فقط الاهتمام. أشعر أنني شخصية حساسة للغاية، فالجرح الذي أشعر به بألف جرح مما تعدّون. أريد أن أشعر بالحب بين الناس دون أن أُجرح، أرغب في العلاقات الحميمة عن العلاقات الجنسية. ربما هناك عديد من النساء مثلي، لكن الظروف حولهم لا تُشابه ظروفي، فالنساء تحاول تحقيق الاستقرار العاطفي، والاجتماعي مُتغلبة عن الفقر والجهل، لا أدرى. ربما سأصدق أنني ضحية الظروف.

سؤال: لديكِ أطفال؟

سارة: أنجبتُ روحًا؛ ألقيتُ به، استخلص قبضته من الطين فبُعث للسماء. أذكر أنني لم أرْضعه حتى. بكيتُ بشدة، بكيت كالعجوز، سيقول ذلك لله، لن يغفر لي أهل السماء.

انتهى كريم من طرح الأسئلة، وشُلّت حركته عندما نهضت سارة لتُحضر له القهوة، ترتشفُ الموت كل لحظة من كأسه النتن، استطاعت سماع خربشة قلمه على الورق، واستطاعت الشعور بالدم يجرى في عروقها من تأثير الأدرينالين.

كان كريم في انتظارها، لتُجيبه على سؤاله الأخير، كيف يتواصل فتيات الليل مع الزبائن والشرطة تُراقب أماكنهم. كان كريم على دراية بالأوضاع الأمنية المكثفة والمشدّدة دائمًا نحو فتيات الليل.

العلاجُ النفسي

سارة

ألتفتت سارة برأسها نحو كاريم وهي في المطبخ، ورفعت حاجبيها لتسأله:

– أترغب بمعرفة كيف أمارس حياتي كمومس؟

هزَّ كريم كتفيه، الأدرينالين يغدق في عروقه، النبض يضطرب على منوال ضوئي، أشار بعينيه في كافة جوانب الشقة حتى جعل سارة تراقب نظراته إن لمح بسنت التي عثرت على شريط تسجيلي بصوت والدة سارة؛ لكن لم يجدْ كريم شيئًا مثير، فعاد يُحدق إليها، وشعر أنّ ريقه قد جفَّ.

أومأ لها بحركة بسيطة لم تلمحْها من مسافتها الطلّة، وطالبها بلطف: أريد أن أعلم كيف تبدين بين البشر، و طبيعة القوادين والزبائن الغرباء الذين تتعاملين معهم.

رمقته سارة بنظرة سريعة متوترة، قبل أن تُخرج من جيبها علبة السجائر. دست سيجار في فمها بعصبية. استطاعت أن تُقلع عن الحكوليات والمخدرات بشكل خاص، فاعتمدت في بدايات أيامها بالإقلاع على استبدال المشروبات الخمرية بالعصائر على الأقل لمدة أسبوعين، كانت إذا مرّت في بار تستبدل مطلبها رافضة الكحوليات، وإذا سألها النادل إن كانت بخير تحدّق إليه ولا تُبدى ردّة فعل.

حاولت أن يكون وجهها خالى من الشاعر، وكانت صامتة هادئة لا تتناجى مع أحد. فكَّرت سارة بالتوبة، ورفعت قلبها إلى الله.

تنهدت تنهيدة عميقة، عليها أن تنسى ذلك. كانت لا تزال بالمطبخ، وتستند للخلف على الرخام رأسها ساقط تجاه الأرض، تتأكد أن كريم يُطالعها، فلما ألتفتت نحوه لاحظته وهو يُخرج بطارية الكاميرا من جيبه، فضاقت عينيها، وتساقط بعض من نهاية السيجار المشتعل أرضًا من التسمُّر، وثارت براكين شكوكها، لربما يكون جهاز تنُّصت؛ لكن لم تشهد مثله من قبل.

منذ لحظات احتاجت إلى فنجان قهوة أو سجائر، أما الآن تحتاج لكلاهما. لا مانع بفض الحديث قليلًا، كثرة الحديث جعل معدتها تتقلص وشعرت بالغثيان، فقد خذلها كل شيء، وأنقذها فنجان القهوة. سارة كالطفل المدلل في منزله، بعد أعوام يُبصر هذا الطفل المدرسة، فيُفاجئ بصرامة المُعلمين وسوطهم عليه، فيجد تناقض بين الحياة في المنزل والمدرسة. كانت كذلك عندما عاشت بمفردها مع والدتها قبل أن تعرف أي شيء عنها، وانتقلت إلى البارات، وبعد ذلك استمر الأمر في الجامعة، عندما تكون صباحًا بين الطُلاب ومساءًا تُلاقى الزبائن.

الأضطرابُ واحد لكن يختلف أشكاله، وكل اضطراب مؤدى لسلوك غير مقبول أو فاسد، وأخطر أنواع الاضطراب، ككثير من فتيات الليل لا ينزعون الغمامة عن عيونهم، فيدركون أن مسار حياتهم متخبط وشائك. أخبرت كريم بهذا، واعتقدت سارة أنه تلقى الفكرة التي قالتها.

لَما نظرت في عينيه وجدته أكثر المنتبهين لها على مدار من تحدَّثت معهم طيلة حياتها في أمرٍ مُشابه كهذا.

يسعى كريم لضربة صحفية لا مثيل لها ولا بديل، ولم يُسبق أن تكلم أحدهم عن الجانب النفسي لهؤلاء الفتيات، فسجَّل لها كل كلمة، كُل كلمة ليعرضها على طبيب نفسي، ليُبدل ويُضيف بعض المعلومات الطبية لكي يزداد المقال جدلًا؛ لكن ما لا يعلمه أن سارة بالفعل مرَّت على أطباء ومُعالجين نفسيين.

جلستها الأولى مع الأخصائية النفسيَّة.

كانت تتحدث الأخصائية مع سارة في مواضيع عامة حول الأحوال الأمنية في البلد، والظروف السياسية الملاحقة بالبلدان المجاورة، ولاقت الاخصائية تفاعُل منها، لكنها لم تُسجل شيء من هذا الحديث، وعندما توقَّفت سارة عن الحديث فجأة، ساد صمت ثقيل بالغرفة. احتاجت لسيجار قبل أن تدخل في حياتها، وتُعبر عن مشاعرها لها، تعلم أن عليها البوح بأسرارها لتحصل على علاج نفسي، وتتخلص من كل طاقتها السلبية.

درست سارة الطب النفسيّ، مرت على أنواع مختلفة من المرضي، ولم تُبصر أحدهم يُخفى شيئًا عن الطبيب. كانت فكرة سيئة في بداية الأمر ومخيفة، ولا يترتب عليها الشعور بالأمن عندما تتحدث من أين تبدأ ؟

أخبرتها سارة أنها فتاة ليل، ثم سكتت لبرهة، تتساءل إن كانت أخفقت في اعترافها، لقد أخفقت بالتأكيد؛ لذا عليها الرحيل، رفعت حقيبتها عن الأرض، وغادرت متناسية أمر العلاج النفسي.

راحت تترقب ملامحها ورد فعل الطبيبة، فما كانت أن تلقت سوى إيماءة إيجابية من الطبيبة، وأومأت رأسها بهدوء بل مرحبة بأن تتابع سارة، فلم تُضفْ لها تعليق، لا يجوز أن تُعلق بشيء حتى لا تُشعرها بالتردد، وهذا ما جعل مشاعر سارة تمتزج بالراحة والطمأنينة.

سعلت سارة من دُخان السجائر، صدرها مُرهق من روائح الدخان الكثيفة بالغرفة، كوَّنت سحاب في بدايات الجلسة الأولى، ثم تفاجئت بالطبيبة تُخبرها أنّ الجلسة انتهت، فقالت سارة: لكني لم أخبركِ شيئًا عني.لم تخبرها أنها فتاة ليل، كانت تعلم الطبيبة أن الجلسة اقتصرت على الحديث العام. فقالت:هكذا تكون الجلسة الأولى كنوع من التعارف، ستمُرين عليّ الأسبوع القادم. استفاقت سارة، وراحت تلف رأسها مرة أخرى لترى كريم فيما تسترجع أحداث ماضيها.

لا يزال كريم يضيف بعض الملاحظات على ما كتبه. ستطلع بالتأكيد إلى كل هذا الورق قبل أن يُنشر، لأنه سيحتاج إلى إمضاء أو تسجيل صوتي منها أنها ترغب في الحديث عن حياتها. كان يطرح أسئلة عليها ليجعلها تتابع، وتُضيف تفاصيل، لكن سارة كانت تكذُب، تكذبُ كثيرًا، وما يجعلها تستمر في كذبتها أنها تنجوا منها، فكريم لا يعلم شيئًا عن عالم الليل، ما قالته صحيح؛ لكنها اكتفت بما سجله بالورق وكتبه.

لا يعلم شيئًا عن والدها وكيف نشأت حياته، و لا يعلم حياة والدتها دعاء قبل أن تصبح فتاة ليل. أخبرته أنها نشأت في أسرة غير مستقرة ووجدت والدتها فتاة ليل. لم تطلعه على الجلسة الثانية مع الطبيبة النفسية، ولن تُطلعه على الثالثة.

الجلسة الثانية.

الجلسة الثانية بدت مختلفة قليلًا، ربما كانت تتحدث سارة عن إطار حياتها وطبيعة العيش في حي الزمالك، ثم أنْهت ذلك، وراحت تسأل الطبيبة بعينين فارغتين: ماذا أقول بعد ذلك؟

هزت الطبيبة كتفيها.

- أيُّ شيء، يُمكنك التحدث في أي شيء ترغبين فيه.

طرحت الطبيبة سؤال، وقد تسمرت عينيها على ورقة أمامها تكتب فيها الملاحظات. كانت ورقة فارغة، لم تغلغل بعمق في طبيعة شخصية سارة، ربما لم تكتفى بتلك الملاحظات التي ستُسجلها، لذا

طلبت من سارة أن تقوم بالرد على بعض الإجابات في منزلها كصورة والدتها في ذهنها وأبيها، إن تسببوا في إيذائات نفسية لها، سيساعدها ذلك بالتأكيد.

– هل تعرَّضتِ للإيذاء الجنسي؟

قالت الطبيبة (الإيذاء الجنسي) بالمصطلح العلمي الإنكليزي، فتعلثمت سارة، رغم أنها فهمته من المرة الأولى، لكن هذا يعني أنها تشعر بالحرج عند الحديث؟ هل هي كذلك؟ تبًا، نظرة سارة المتدنية لنفسها، وقلة ثقتها بنفسها تجعلها تطرح أسئلة كثيرة لا تجني منها سوى الضيق والانزعاج.

أومأت سارة وقد تشابكت أصابعها حتى اعتصروا.

– حدث ذلك عدة مرَّات، لا أكاد أُحصيها.

رفعت الطبيبة رأسها قليلًا نحو سارة قبل أن تُسجل لها ملاحظات في الورقة، فـ(عدة مرات) قد بنيّت الطبيبة عليها عدة احتمالات، حيث ينتج من التحرش عدة أعراض إلى جانب الأعراض المعروفة، والمتداولة بين العامة من الناس أن المتحرش يُعاني من الاكتئاب وقلة الثقة بالنفس، فقد يُعاني أيضًا من الشذوذ والحساسية، القلق الدائم، الإنطوائية، توتر العلاقات الاجتماعية، الازدواجية وغيرها من الأعراض، فراحت الطبيبة تتفسّر عن تلك الحالات متسائلة:

– أخبريني كيف مضيتِ بذلك، حاولى أن تحكى لي كأنني معكِ في الموقف نفسه.

اختفت الابتسامة عن سارة وحدقت للأرض بعينين متسعتين على آخرهما، ثم قالت:

– كنتُ في بيت صديقتي، وكانت هناك حفلة صاخبة، دعت فيها جميع أصدقائنا بالمدرسة. كنتُ بالتاسعة من عمرى، وفي وسط الحفلة استأذنت لدقائق لأدخل دورة المياه... هناك رأيتُ زميلًا لي يقف أمام الباب يتحدث مع صديق له، استأذنته ليبتعد عن الباب ودخلت. أغلقت الباب خلفي، وشرعت بالوقوف أمام المرآة لثواني حتى شعرتُ بالباب يُفتح...

تنهدت: أدركتُ أنه ليس مغلق، فرحت أغلقه فشعرت بقوة تدفعه نحوى حتى رأيت رأسًا تدخل وتتفحصني.

ألغيت الطبيبة كل الاحتمالات التي وضعتها في ذهنها، ثم قالت: ربما لا يكون هذا إيذاء كما تظنين.

– كنتُ قد بدأت أخلع ملابسي.

شعرت سارة أنها تحاول أن تبرر أمرًا بالكاد لم يكنْ قد حدث من الأساس. هزت الطبيبة رأسها غير مُبالية، محاولة الوصول إلى تفاصيل الحدث: رُبما نسيّ أنكِ بالداخل.

بدأت تشك سارة بذاكرتها. عبست: لا أدري، لكن هذا ما حدث معي...

وضّحت الطبيبة قائلة: ذاكرة الإنسان ليست قوية، فقد يصنع الإنسان بعض الذكريات المؤلمة، والمفرحة في ذهنه معتقدًا أنها حدثت بالفعل.

حدّقت سارة إلى كريم، كان يُطالعها بنظرات ثاقبة، كأنّه يسمع ما تُفكر به. كأنه معها في الجلسات النفسية، بدا كريم مُخيفًا لها أكثر من خوفها من بسنت.

الزمالك؛ بيتُ سيء السُمعة؛ 24 من ديسمبر 2004

سارة

سألت كريم إن كان يُريد قهوة معها قبل أن تتحرك من المطبخ، لكن لم يُعبر عن رغبته في تناول شيء. راحت تتنقل في الشقة بالفنجان في يدها، وقد انتهت من شُرب السجائر قبل أن تُلقى بها تذكرت الجلسة النفسية الثالثة مع الطبيبة.

الجلسة الثالثة.

أغمضتْ سارة عينيها في ضيق عندما دخلت العيادة، اجتاحتها موجة من الكآبة صدَّتها عن الشعور بالراحة. فكرت أن تستدير وتغادر لعدّة مرات، فكرت لعشر مرات، لكنها بالآخر جلست ورفعت ساقيها على الكرسى، ثم ألقت نظرة سريعة جانبها حيث تجلس الطبيبة خلف مكتبها تنتظر منها الحديث، استرقت تعبيرات سارة الضجرة، فسألتها: كيف حالك؟

قالت سارة محاولة ألا تُظهر مشاعر وأنين في نبرتها: أنا أجاهد لأبدو بخير، على الأقل هنا، لكنني لستُ بخير. حاولت أمس الإنتحار بابتلاع مبيد حشري، يئست من محاولاتي مع نفسي.

فكرت سارة أن الطبيبة تُخطأ في تشخصيها لها، فأرادت أن تعطى لها فرصة أخري بفهمها وتحليلها جيّدًا. تابعت سارة بالحديث عن حياتها ووالدتها وصديقتها، وأشياء كثيرة، فقالت لها الطبيبة أن هذه الأمور كلها تبدو أنها متعلّقة بالجنس على عكس ما تظنُّ سارة.

قول الطبيبة جعل سارة تتنهّد كثيرًا قبل أن تنطق بحرف آخر.

تحدثت سارة أخيرًا عندما شعرت بالصمت يهجم الغرفة، سألتها إن كان من الأفضل أن ترحل، فنفت الطبيبة هذا، و قالت أن هناك أطبّاء نفسيين وأخصائيين علاقات اجتماعية سوف يساعدوها أكثر منها، ومع هذا وجدت سارة أنّ جلساتها كانت أرخص بالنسبة إليها فلم تذهبْ لأحدٍ سواها، كما أنها لا تستطيع الذهاب لأحد غيرها لأن لها صلة بمجموعة واسعة من الأطباء التي عرفتهم في القصر العيني وجامعة عين شمس، والعلاج النفسي الخاص مُكلف عن القصر العيني الذي يتلقى فيه الطبيب جنيهات في الجلسة الواحدة.

في وسط الحديث قالت الطبيبة لسارة أن ثقتها بنفسها ضعيفة، لكن سارة أنكرت لها تلك المعلومة، وبرّرت لها بأنها مندفعة وتفعل أشياء جريئة.

بدا لسارة أنّ الطبيبة لم تبالْ لكل هذا، وقالت أن الجرأة لا تعني الثقة بالنفس أبدًا، و أعطتها مثال حول مجموعة من السارقين اقتحموا شقّة وهددوا كل من فيها، ثم أخذوا المال ورحلوا، وأكدت لسارة أنّ ثقتهم بنفسهم كانت ضعيفة، ويحتلهم شعور بالقلق والاكتئاب . أحد أسوأ الخلل النفسي الذي قد يصيب البشر .

أحسست سارة أن الطبيبة تصف ما بداخلها بدقّة، ومراقبتها لإيماءات سارة ولغة العيون المتوترة بينهم كانت تفسّر كل شيء فيها. احتاجت سارة وقتها لشربِ سجائر، فأخرجت علبتها من حقيبتها، وبمجرد أن فكتها وقعت من يدها. راقبت الطبيبة كيف كانت يد سارة ترتعشان من الاختلال، أخذت سارة تجمع السجائر في سرعة ثم دستها داخل العلبة، وراحت تُشعل واحدة، وقد آنست بالثقة تعود لها بعد ذلك. حدقت الطبيبة إليها قليلًا، سألتها عن سبب شُرب السجائر، لم تجدْ سارة لها إجابة مقنعة، فسرت الطبيبة بعد طول صمت، أن الذين يشربون سجائر يعانون من الكبت والضغط النفسي.

أومأت سارة، وقالت لها أنها شخصية كتومة بالفعل.

أضافت الطبيبة أن الكبت أساس كل الخلل، والأمراض النفسية، ففكرت سارة بتلك الجملة مطوّلة، وهي تسحب نفسًا من السيجار لتنفثه أرضًا في كرب، وقالت أن سارة لم تصلْ بعد للمراحل الفمّية لفرويد، لازلت تفتقد الشعور بالأمان والاستقرار النفسيّ.

كريم

بين هذا الهدوء الحادث، سألها عن حياتها بين الزبائن، وللحظة ما، تسترجع أول القصص لها في براح الهرم، حيث أقدمت على الجلوس داخل ملهى، و تفاجئت بزبونٍ ما يتعرض لها بالأذيّة، فحاولت صد دمامته، لكن الدمامة بريئة من دمامته! ولَما تداخلا في الحديث انتصب مُسدسه، ورفعه للأعلى فأصبح مرأى لكل العيون، أطلق ناره في الهواء، وخرّت سارة راكعة صارخة. كان يرنو إليها النظر، ويتكهن طاعتها حتى ما إن انفردا سمع السامعين بالخارج صوت رصاص أخر، هرعت سارة في الخارج، لم يشاهد أحد خروج الرجل خلفها.

لم يلمح أحدهم قطرات الدماء على قميصها، لكن، توقفت للحظة، وشاهدت مُسدسٌ آخر يصوّب إليها أمام وجهها.

الشقُ الثاني

الجانب الاجتماعي

طبيعة الزبائن وتواجد حسناءات الليل بين أفراد المجتمع

الزمالك؛ بيتُ سيء السُمعة؛ 24 من ديسمبر 2004

كريم

تربَّعت غانية العتمة على الأريكة، و حدَّقت في فنجان القهوة السادة أمامها، ورائحته البُن المنبعثة تُداعب أنفها، البن صوتٌ يُنادى مزاجها ويأخذها به تأمل وتتغلغل في ذكرياتها. قالت له أن لها صديقتها اسم شُهرتها بسنت، أو سيزيستا، وكل اسم استخدمته بسنت كان له فترة زمنية، وسبب في اختياره، وطابع خاص ورجال مميزين. أخبرته أنها بعد أن نزلت الملاهى الليلية، ومارست الفُشح مع إحدى الزبائن عادت لمنزلها تشعُر بالإكتئاب الشديد، فهربت إلى منزل بسنت.

قبعت هناك ليالي، وأيام حتى جاوزت الأسبوع، وبدأت تشعر سارة بتصرفات غير مُفسرة لبسنت. عندما أقامت سارة في بيت بسنت سنة 1998 شهر فبراير الأسود، بعد أن غادرت بيت والدتها، لاحظت سارة أن بسنت ترسب كثيرًا، لا تنتبه للمواد كأنّما استغنت، كما أنها تنسى بقدرة السمكة وضاقت ذاكرتها بالخرافات.

في أول يوم جلست معها فيه اتفقا أن ينزلا في المساء، ويذهبا إلى النادي بعد يوم قصير في الجامعة، فأومأت بسنت برأسها مرحبة، وأبدت موافقتها بذلك حتى تخرج سارة من حالة الاكتئاب. اليوم التالي عند مغادرتهم للجامعة تفرقا فذهب كلٌ منّهم إلى البيت، اتصلت سارة بها ولم تجيبْها بسنت. عادت تفعل ذلك حتى ذهبت إلى منزلها، أطرقت سارة الباب مرّتين وثلاثة ففتحت بسنت، كانت ثملة.

بدت بسنت متعبة ومرهقة، وعينيها محمرّتان من أثر الكحوليات. شعرت بها وهي تهزي بالكلمات التي لم تفهمْ مقصدها منها (أنا. . .أتوجّع) هناك أشكال عديدة لإدمان الكحول، و كان الذي ينطبق على بسنت القيء الذي قد يؤدى للوفاة في حالات خطيرة، ولكن من الجانب الاجتماعي، كالاكتئاب لأنها لا تباشر حياتها بشكل سوّي، و تتغيب كثيرًا، و تعتذر حتى كادت مرة أن تفصل من الجامعة.

شعرت بها لا تبالي، لا تريد الجامعة، فسألتها سارة عن السبب فلم تجيب، نظرت بسنت بعبوس، فحاولت سارة تغير الموضوع.

تقربت بسنت من سارة لأنها تُريد أوراق المحاضرات، وكُتب الطب. كانت سارة تساعدها في البداية، ولكن تصرّفات بسنت تغيّرت فجأة مما جعل سارة تتخذ الحذر في تعاملها. بعد ذلك بدأت تراقب سارة تصرفاتها، ترنحها، ونسيانها وكلامها، لكن اكتشفت الحقيقة مؤخرًا، أنّ صديقتها فتاة ليل.

عندما جاءت سارة إليها في اليوم الذي هربت منه من البيت، أخبرتها بما حدث بأسبوع بعدها، فسكتت بسنت قليلًا وقالت لها القليل عن حياتها، أخبرتها ببعض الأشياء الخاصة بوالدها، لم تدركْ سارة من كلام بسنت أن لا تزال تخفي أسرارًا عنها.

قالت هذا لكريم، وهي تأمُل ألا تكون بسنت سمعت شيئًا. بسنت لها ألفُ قصة وقصة لابد أن تبقى تحت التراب وراءها. تحفظ أسرار الجميع من حولها، فلم تعلن عن البنك الذي أقتضي لها كي تُداعب رجال أعمال بصفقة لا تقل عن مليار دولار، ولم تُفشي عن تُجّار الأعضاء الذين أذوا بطفولتها، وتلك الراقصة التي تحتجز غرف فندق لتدريب الغانيات.

أثارت بسنت الفتنة في الفترة الطويلة التي تواجدت فيها حتى أصبحت خطرًا على من حولها أكثر من نفسها.

بسنت

في شقة سارة، أمسكت بالشريط التسجيلي، وأخذت تبحث عن راديو كي تسمعه، فلم تعثر على ردايو في الغرفة بعد أن قلبتها رأسًا على عقب، على الارجح قد يكون في مكان آخر، فراحت لغرفة سارة التي كانت فوضويّة كعادتها. تنهَّدت في تعب، واسترجعت كيف كانت تبدو سارة معها عندما أقامت في منزلها. عابثة مهملة، تُضيّع أغراضها كما أطاحت أغراض بسنت، فمنعتها بسنت أن تدخل غرفتها حتى لا تُبعثر أغراضها. رأت راديو جانب سرير سارة، كان على طاولة خشبية دائرية صغيرة ومُغطى بقطعة ملابس، ألقت بها أرضًا رغم رغبتها الشديدة في تنظيف الغرفةن وإبداء قواعد صارمة لهذا المنزل.

وضعت الشريط داخل المسجل، واستمعت من أوله، خفضت الصوت كي لا يسمع أحد آخر. الصوت غير مألوف في بدايته، لم يكُن لسارة أو لأحد ممن تعرفهم سارة، ليس صوت الزبائن، فسارة لا تميل لتسجيل صوت أحدهم، فهي تحفظ كل شيء في قلبها، وقدرتها على إستعادة الذكريات، وفرزها أقوى من ألف شريط تسجيلي.

إنه صوت والدة سارة دعاء، كانت تبكي، لا لم تبكْ، كانت تتنفس بسرعة، أنفاسها تُختطف، لا تستطيع بسنت تحديد ذلك، فحاولت تجاهل مشاعر النبرات وتفهم ما تقوله: أحببتُ زيدان لأنه لم يكن كغيره من الرجال. كان يُقدِّر الظروف التي مررتُ بها. لقد مررتُ برجال كثر، فأنا أذكر قاسم باشا، أذكر كيف كان قاسيًا معي ومع بقية الخدم. أذكر أبي، لم أشعر بالحب منه، كان جلفًا. قضيتُ حياتي

بين الرجال، ولم أرَ اهتمام من أحد أو حُب مثل زيدان؛ لكن زيدان لم يُحبك. لم يُحب سارة مُطلقًا. هددني بإجهاض الجنين، وتابع تهديداته لي، وإدانتي بسرقة أمواله عندما سرقت منه أوراق الزواج العرفي، لم يكن زواجنا علنًا. شرعتُ بالذهاب إلى الأطباء بالفعل كي أجْهض الجنين عندما علمت أن مسقط رأسي فتاة، لكنَّهم رفضوا، أرادوا سببًا قوى وموافقة الأب، ثم قال لي أحدهم أنني ارتكب جريمة قتل. كنتُ أشعر بالتمزق والشتات، وارتجفت من الغلظة الآلية ونار الطبيعة التي يأكل بعضُها بعضًا وكنتُ منها. التوبة في بدايتها صعبة، صعبةٌ للغاية. جسدي كان يتأرجح بين قطبي الكحوليات، والنيكوتين بصورة شرسة، وبقيتُ على كبائري أقاوم حتى انْكسرت، ثمَّ لملمت شتاتي، وقسيت، وأصبحتُ لا ألين حتى في أحنّ اللحظات. ترددت على البارات وابتعدتُ عن نزق ملاهى العتمة في قلق وصراع لا يخمد. الأمر تغير عندما بُعثتِ على الحياة وبلغتِ، اشتدَّ عودك، وفكرت لو أن تنزلي للملاهى الليلية وتُعاودين السقوط؛ لكن تفوقكِ في الدراسة، والأموال التي تلقيتُها من زيدان مصدَّات جعلتني أتراجع عن الفكرة حتى انقلب كل هذا ومات.

أوقفت بسنت الشريط مُكتفيَّة، لأنّ قصّة سارة بدت تُشبه حياة بسنت الدراميّة. القصة جديدة، لم تسمع بسنت بها من على لسان سارة. كان ما تعلمه عن سارة أنها تورَّطت مع أحمد، وبعد ذلك شعرت بالعار، فأبتعدت عن الجميع وجاءت إليها خائفة من والدتها، علاقتها بدعاء كما أخبرتها كانت سيئة، وتملأها المشاجرات بسبب تصرفات سارة المندفعة. بدا لبسنت أنها لم تكن تعرف شيئًا عن سارة، وأنها ليست الوحيدة التي تطمس أسرارًا.

أخفت بسنت الشريط داخل ملابسها لئلا تلتقطه سارة ببصرها، وقررت أن تجعله معها، فإن حاولت سارة أن تبوح بشيء للصحفي عنها، فستفضحها بالشريط المسجل، ربما تُعطيه لكريم.

سارة لا تعرف شيئًا عن هذا الشريط، لا تعرف أن الصوت القادم من داخل غرفتها هو صوت والدتها. ظنَّت أن بسنت تتحدث في الهاتف. ربما اتصل ياسر بها ليؤكد على الميعاد لأنها تنسى المواعيد، ربما كانت كارلا تتصل بها لتخبرها أن التقرير وصل لأمن الدولة ويبحثون عنها، ربما اتصلوا بها ولم تُجبْهم، لا تدرى - لا تعرف - عليها أن تدخل لترى ماذا تفعل بسنت في الداخل، لكن وجود كريم يُعيق حركتها، يشلها، يورطها، فإن علم بوجود بسنت، سيعرف عنهما كل شيء، كل شيء أخفته سارة عن كريم.

لا يعلم كريم منذ بداية الجلسة أنها اتصلت به لتصطاده، وتخبره بعلاقاتها الخاصة مع أخوته، نور وطارق وإسلام، فقد كانوا جميعًا زبائنها. لا يعلم كريم كذلك النهاية التي تدبرها سارة له؛ نهاية قاسية لن يتوقعها؛ لكنها ستؤخرها حتى تخبره بتفاصيلها مع أشقائه دون أن تكذُب. إن أخبرته لن يكتُب الحوار الصحفي، وسيمنع فرز التسجيلات. مسكينٌ كريم؛ ولكن لا تشعر سارة بالشفقة نحوه، فلم تعُد المرأة العاطفية التي كانت تتحدث عنها منذ أوّل الجلسة معه وهي تتدبر لمكيدة قتل الصحفي.

الزمالك؛ بيتُ سيء السُمعة؛ 24 من ديسمبر 2004

كريم

يا لسخرية القدر، كان كريم منذ سنتين تقريبًا يدعى الطغيان والسلطة، والآن بدا أمام سارة كالجرو الصغير الخائف من القفص الذي وضع فيه. لا يزال يشعر بالقلق في هذا البيت المُريب، ويتساءل حول أصوات التصادم والتحطم الصادرة من داخل الغرف، أصوات لا يجد لها سوى تفسير واحد أن هناك أحدًا غيرهم في الشقة. سألها بصوت هامس كأنما أحدًا يتصنت عليهم: هل هناك أحدًا في الشقة غيرنا؟

ضحكت سارة ضحكة قصيرة بدون صوت، استطاعت اخفاء ارتباكها:في الواقع، لم أعُد أستقبل أحد منذ سنة تقريبًا، من بعد آخر فحل أتي. أرادت أن تقول من بعد طارق أخيه؛ لكنها لم تُضف شيئًا.

– ما السبب؟

هزت رأسها رافضة بكل غصة أن تُصفح عن السبب الدفين.

– دعنا من هذا.

جوابها جعله يشعر بالتردد من طرح مزيدًا من الأسئلة.

– كيف تبدين مع مُشتريين الهوى؟...

لم يزول الحزن من على ملامحها، وقالت على لسان فتاة الليل: أقابل المئات، أتعرف على العشرات في اليوم الواحد. أتغزَّل في من أكره، أتبسَّم لمن لا أعرفهم، وأتحدث للغرباء عن القريبين مني. لا أشعر أنني إنْسانة سويَّة.

تنهَّدت سارة تنهيدة طويلة، تنهيدة شعرت بعدها أنها لم تتنهد مُسبقًا. الحقيقة لم تقولها بعد، لن تكون صريحة. تكذب، فالجميع يكذب؛ لكن لكذبة سارة سحر يقع على المسامع، فيصدقونه منخدعين بوجهها الجميل البريء.

سارة

حدَّق كريم في عينيها بصمت حكيم. كان يُمكنه أن يغضب ويرحل ويختم الجلسة بينهم على هذا النحو، إلا أنه يدرك أنّ لسارة علاقة بأخوته. لا يدرى كيف بدأت وكيف انتهت، لا يعلم شيء عن التفاصيل بينهم وكيف يقضون الوقت سويًا، أكانوا أحد زبائن الليل الدامس؟

حاول أن يكون هادئًا ساكنًا وهو يستمع إليها، فربما تُفيده بالحديث، وتُفطمه ما مضى بين نور وطارق، و لكن قبل ذلك يُريد أن يستجمع بعض الأسئلة والأجوبة عن طبيعة الزبائن، فأخذ يطرح عليها الأسئلة وكانت تُجيب، يُطالعها بين اللحظة والأخرى فيراها صلبة متُجمدة ترد في اقتضاب وصدق.

لا يهتم في واقع الأمر بمشاعرها الآن، وإن كانت لا تُريد أن تُفصح عن حياتها، لن يهتم إن بكت وحاولت كسب استعطافه.

سؤال: كم بلغ الراتب الأول لكِ؟

سارة: 500 دولار سنة 2002.

سؤال: 500 دولار مبلغ قليل أم كثير؟

سارة: بالنسبة لي لا شيء(2).

سؤال: من يدفع؟

سارة: الشرق والغرب، لا نتعامل مع أبناء البلد.

سؤال: هل لديكِ سر تخفينه عن الجميع؟

سارة: ليس سرًا، لكنني لست من هؤلاء النساء اللاوتى يصرخن، أنا باردة مُخيبة للآمال.

سؤال: ماذا تفعلين حين يملّ منكِ الزبائن؟

سارة: عامة فتيات الليل مملين، وهناك وسائل عديدة للتسلية منها المُخدرات.

سؤال: فيما يتحدث الناس معكِ في الأغلب؟

سارة: في الإباحة، لكن لدي القدرة بأن أتحدث في أي شيء إن فكّر البعض معي.

---

(2): هذا المبلغ تسبب في قدوم الروسيات إلى مصر كي يعملون فتيات ليل فقط، تتقاضى الروسيات 2000 دولار بالساعة، فيما يتقاضون في بلادهم 200 دولار، هذا إن كان السعر مرتفع وقياسي، في العادة يتناولون 1000 جنيه في الساعة (هذه الأسعار المتداولة في الحقبة الزمنية الخاصة بالرواية فقط).

نفثت سارة آخر نفسًا بالسيجار، فشعرت بالضجر عندما تفقدت العلبة وجدتها فارغة وكأنها نهاية العالم، عبارة "التدخين يُدمر الصحة ويُسبب الوفاة" أصبحت تُغريها أكثر من عبارات الحب التى تُغرى هؤلاء الحمقي كسيجار يُدخنها كهل على قبر طبيب أخطره يومًا أن التدخين سيُقتله.

لا يعلم كريم تبدل مزاجها فجأة، وتحول وجهها للعبوس بعد أن كانت تتجاوب معه، فهناك بعض الأسئلة لم ترغب في الرد عليها.

ماذا يتضمَّن هاتفك؟ هل وقعتِ في حب إحدى الزبائن؟ ما طبيعة الرسائل التي تصل لكِ؟

ماذا تحملين في حقيبتك؟

رفضت سارة الإدْلاء بشيء واحتفظت ببعض الخصوصيَّات لنفسها. في الفترة التي لم تذكُرها سارة عن حياتها من بعد أن طلبت والدتها منها الخروج لإقامة علاقات وتزايد معارفها بالناس. كانت سارة قد فعلت، و لم تفقد عُذريتها. رأت هذا العالم على طبيعته وجالت فيه دون أن تتقاضى الأجور، كان الرجال رامون إليها بلهفة، فوقعت تحت استغلال وطمع الجائعين، ووجدت نفسها تغوى الرجال وتتبسم للغرباء. كانت سعيدة بلفت النظر لها، وتُريد ذلك بشدة؛ حتى أن لاقت تجاوزات من بعض الزبائن، فأخبرتها والدتها ألّا تسمح لأحد بالاقتراب من عوراتها. أثناء عودة سارة كانت تشتكى من هذا الوضع، قالت لها: كنتِ تظُنين أن الوضع المادى سيكون أفضل إذا نزلت للملاهى الليلية ولم أتعرضْ سوى للإساءة. حدَّقت والدتها إليها بنظرة تتطاير منها الشرر، وقالت: لأنكِ لازلتِ تحتفظين ببرائتكِ.

أحسست سارة بنبض قلبها يضجُّ في رأسها، لا تستطيع إلتقاط أنفاسها. تكاد الدموع أن تنفجر من عينيها. ماذا يحدث لها؟ وتساءلت إن أراحت روحها بالموت فهل ينتهى كل شيء؟

- لا أريد التعرض للإساءات.

قالتها سارة في صوت مخنوق. حسمت والدتها الأمر:إذن تزوَّجى.

خمدت المناقشة بينهم ولم يضف أحدهم شيء.

الزواج الأول سنة 2001 شهر يناير.

قبل أن تلتحق بالفرقة السادسة من كليةِ الطبْ تزوّجت برجل تقدّم لطلب يدها.

كان من معرفة والدتها، في بداية مقابلتهم لم تلحظْ سارة القبول منه، لكنهم عقدوا القران على سنّة الله ورسوله وأقاموا في شقّته الإيجار التي أخبر سارة أنها تمليك وبإسمها. مرّ أسبوعًا ثم وصلت لسارة ورقة الطلاق، السبب الحقيقيّ وراء الطلاق علِمته بعد أن استلمت الورقة. راحت له الشقّة فوجدتها

فارغة، ولَما حاولت فتح الباب وجدت أن النسخة التي معها لم تعُدْ لها قيمة؛ إذ غيّر مُفتاح، نزلت لتسأل حارس العقار عن الشقة، فقال أن صحابها وهو ليس زوجها السابق قد رحل منها، فكانت الشقّة إيجار.

طلّقها لأنه رأي حبة الشباب على وجنتيها؛ هذا السبب الحقيقي الذى لم تخبره لأحد. أسبوع من المتعة، والعلاقة الحميمة وانْفصلا لهذا السبب؛ صُعقت، وبعد فترة من هذا اليوم أخبرها أن والدته هي من أرغمته على الزواج منها، وكان على سارة الاقتناع بذلك السبب، والسكوت، والصمت، ناهيك عن الألم النفسي الذى أحسستْ به سارة وقتها، ومرورها على الأطباء، وغيابها المنقطع عن الدراسة، وربما هذا ما يجعلها تبتعد عن الرجال في السهرات المسائية، وتكره نفسها بينهم، لكن النبيذ يغيّبها، يقرّبها من أناس لا تُحبّهم، و يجعلها الغائبة حاضرة في عالم موازى ملئ بالمثاليين.

الزواج الثاني سنة 2001 شهر يوليو.

كان أيضًا من معارف والدتها، وكانت خطوة صعبة أن تتخذها، وتعيد تفكير فيها مرارًا. هذه المرة بعد الزواج سارة طلبت الطلاق منّه، فكان يعذّبها ليطيع أمرها، فكان قرار الطلاق آتٍ متأخّرًا، رحلت من شقّته وجلست عند بسنت، ولم تُخبر أحد بالسبب الحقيقي أيضًا. كان يغيب عنها كثيرًا في الفترة الأولى، ولم يحتملْ الاقتراب من سارة. يشعر بالنفور كلما حاولت، ويرحل في أوقات متأخّرة، ولم تجد أحدًا وقتها تشتكي له، فقد رحلت من بيت والدتها، ولكن لم تخبره بذلك، أعلمته أن علاقتها بوالدتها جيدة، لَما سألها ذات مرة لِمَ لا تجلسين في بيت والدتك، فبررت له أن جلوسها هنا لن يضرّه!

بعدئذ، خرج من البيت وأحضر مع أصدقائه، اكتشفت سارة بعد ذلك أنّه يمارس الدعارة ولكن من جهة منحرفة، وراحت ترتمى في غرفتها على الأرض تضمُّ ركبتيها عليها، وتبكى من أصواته مع أصدقائه.

بكيت بكاء تجف له القلوب، وكانت أيّام حتى يُحضر راقصين أجانب من الرجال، ويأتِ بالنساء ليُقيم سهرات تخامرها القنوط. انتفضت سارة في يوم شمسيّ أعسر على فرقعة انفجار في الشقة، فهبت من رقادها لتجد نفسها وحدها بالشقة، فكان زوجها قد وضع ملعقة حديديّة في المسخّن الكهربي أدت إلى انفجار، حتى وصل الانفجار إلى حريق من مولدات الكهرباء الموصلة بالمبردات، فانقلعت سارة من المستقر قلبها يدق على منوال مُزعزع مسرعة إلى الشارع، ولم ترجعْ بعد ذلك، وطلبت الطلاق، ربما هو لم يعِ حينها أن قلبها منهوك القوي من الألم منه منذ اللحظة الأولى لتعتاده، وما هو إلا قليل حتى غالبها

الشقاء.هذه الحياة هي الحياة بالنسبة لها أسى يعقبه أسى، وعينيها الدمع فوق قمة أسى تنتظر موتًا رحيمًا.

الزواج الثالث سنة 2002 شهر فبراير.

سنة 2002 هي نفس السنة التي كانت قد مرَّت سارة فيها على الملاهي الليلية حتى تأكدت أن لا مكان لها سوى هذا العالم الدنيء، فكان الزوج الثالث غير الأول والثاني. كان لطيفًا إلى جانب شهوانيَّته، وتطلُّبه الحيواني الزائد حتى كادت سارة أن تُهلَك في محاربه.

في هذا الزواج كانت لتُدرك السعادة والراحة، وأن هذا الإنسيّ غير سابقيه من الرجال سوف يجعلها تنسى من مضيت بهم، ثمّ إن السماء بكل ما أوتيت من طُهرٍ، كشفت عن قذارته حينما أمطرت، حتى علمت أنَّه إحد البغاة، لن تُخبر هذا لكريم، لا يجب أن يعلم أحد هذا، حتى بسنت لا تدرى شيئًا عن أسباب طلاق زواجها الثلاث.

كل ما بالأمر أنها تُعلن للجميع أن لديها مشاكل تمر بها لا يجب أن يعرفها أحد، وتبقى تلك العلاقات سرية بينها وبين نفسها، لكن يظل ماضيها يترك أثره في الحاضر، ثم في أرضٍ بعيدة لم يكُن لها نصيب في خريطة العالم، هناك حيث شجرة ذابلة يقف على غُصنها المتأجج عصفور جريح القلب يأبى الاعتراف أنهُ هي.

أفضت إليه سارة بالقول عن طبيعة الزبائن، وهذه المرة تحدَّثت دون كذب، إذ كانوا إخوته.

زبائن الليل الدامس؛ 12 من نوفمبر سنة 2002؛ الصعيد؛ في المساء

عائلة شبانة

خرج نور من السجن، ولم يفعل ما كان يرغب فيه، قضى ستَّة أشهر بسبب قضية الزنا مع فتاة ليل (بسنت) أستطاعت بسنت أن تخرج من تلك القضية بتوكيل محامي معروف، أما هو فقد خُفف عليه الحكم، عندما أعتق سراحه من السجن وجد نفسه مُحاط بالتوأم كريم وطارق، كانوا أقصر منه بقليل، أما نور فكان طويل كالبرج، فكيه حاد كالمومياء، و عينيه خضراوتين كثمرة لم يكتمل نضجها. عينيه تحمل نظرات الأسد لفرائسه المصهورة، رأسه صحراء من الشعر. بدا ساكنًا لبرهة حتى سأل عن إسلام، فوجد الإجابة عندما وقف خارج السجن ليجد سيارة تنتظره، وإسلام جالس على كرسى السائق، و عندما رأى الأخوة جميعهم متجمعين فهم أنهم سيتجهون إلى الصعيد حيث بيت العائلة، فهناك يجلس والده ووالدته المريضة، وأخيهم الصغير البالغ من العمر تسع سنين خالد.

كان نور الأوسط بين أخوته، بلغ من العمر ستة وعشرون عام؛ قضى منهم عشرون سنة في الصعيد، لم ينتقل فيهم إلى المـُضاءة ابنة المعز الله الفاطمى إلا مع حشد العائلة. تنقل إلى الإسكندرية حيث كان مستقر بسنت.

لم يتعارف عليها، وآنس تحييها أو صادفها دون فراق، لكنه لم يقفل إلى أماكن أخرى، كانت فكرة العيش والحياة في القاهرة أشبه بالحلم المستحيل، فقد بنى لهم والدهم بيتًا متألفًا من أربع طوابق دفع في بناءه وشراء الأرض ملايين حتى يكتمل البيت، وتكتمل مع رغبته في أن يبقى أبناءه بجواره حتى يموت.

أراد والدهم أن يتزوجوا من أهالى الصعيد، وأول من أعترض على ذلك كريم الذى رغب بدارسة الإعلام في جامعة القاهرة، والتعيَّن في قناة الجزيرة ليُراسل من بلاد الشرق والغرب. أفصح كريم عن رغبته في التنقل، والتحرك، ووافقه نور في هذه الرغبة لكن وقتها كان عُمر نور ستة عشر عامًا، ولا يزال يدرس الثانوية، فما كان عُمر كريم وطارق ثلاثة وعشرون عامًا وقد شارف كريم على انتهاء دراسته في جامعة الصعيد. رغم ذلك حوَّل وجهته، وأوراقه إلى جامعة القاهرة، فراح معه أخيه طارق وسكن ببيت الطلبة، شجَّعه طارق على هذا لأنه كان يدرس في جامعة الطب وجالس في الجيزة ببيت الطلبة.

إسلام كان قد قَبِل بكلام أبيه، وظل جانب والدته يرعاها عن رضا، كان لإسلام طابع خاص عن أخوته، وهو يكبُر نور بعشر سنين، ارتبط بوالدته وأبيه والصعيد. أتت له والدته بفتاة في عمر الرابعة عشر فيما كان إسلام عمره أربعة وعشرون عامًا.

حدَّثه كريم وطارق أن سن الفتاة صغير لن يُناسبه مُطلقًا، وبناءًا على رغبة والدة إسلام فقد وافق، وقد مرَّ سنتين على زواجه بتلك الفتاة الصغيرة. شعر أنه يُصاحب معه ابنته الصغيرة، فكانت متطلبة، وترغب في التنزه والحركة. تحزن من تفاصيل لا يكاد يلحظها، وعندما يعود من عمله إلى البيت يجدها تفرش صحون من الطعام الدسم، فيُجالسها بعد أن تُبدل له ملابسه بجلباب طويل، وتطعمه الطعام، وعلى رغم مرارة الطعام ونكهته السيئة كان يبتسم في وجهها، ويتابع تناول الطعام دون أن يُعلق.

سأله نور ذات مرة عندما رافقه يومًا في منزله (هل أنت سعيد؟) حينها كان رد إسلام غير مباشر ((لا أعلم)).

لم يُلاحظ أحد كون إسلام سعيدًا في زواجه سوى والدته ووالده وزوجته. حاول إخفاء مشاعره منهم كي لا يجرحهم، ولكن عندما جاءت له أول فرصة للسفر إلى مصر لم يتردد، وحينها حاول يُقنع

والدته ووالده، وبعد وقت طويل، كان قد وافق والده لشعوره بالرضا عن إسلام، أما كريم وطارق، فلا يشعر بالرضا عنهم وليس متأكد أنه قد يراهم مرة أخرى، ظل يُكرر والدهم (من يرعاني؟) فأبقى نور إلى جانبه، وبعد سنتين من حصول إسلام على عمل ثابت في الجيزة، عاد يُجالس زوجته أسابيع، ثم طلَّقها، وحينها أدرك أن سعادته في حُريته وبُعده عن أهله، فلم يكن يحس بالسعادة عن خدمتهم كما يعتقدون.

نور

عندما بلغ الخامسة عشر كانت والدته تُخبر الجميع أن ابنها تأخر في البلوغ، أعلمت الجيران والمعارف حتى ذاع ذلك القرية كلها. نظرة نور للجنس قبل ذلك كأنه شيء مُقدس ومُحرم في الوقت عينه، لا يجب أن يقرُب منه إلا عندما يتزوَّج، ولكن دفعه الفضول والكبت إلى تحرير جبلّته، فكانت المرة الأولى كتب عقدًا عرفيًا في سن التاسعة من عمره مع طالبة في المدرسة تصغره بسنة. كان سعيد بهذه الورقة التي كتبها وأنهاها بـ(زوَّجتُك نفسي)، وبعد ما فعلته والدته أصبح يتردد على الفتيات ويتَّخذ النساء بشهوته.

عندما كبر ودخل الجامعة بالقاهرة، أحضرت له والدته بنت أصغر منه بخمس سنوات ليتزوجها، بعد الضغط الشديد قام بخطبتها، ولم يتردد عليها سوى في الإجازات. كانت تحبه بشغف، وعندما تقف أمامه تتلعثم وترتبك. أما هو فكان فاقد الحس لا يشعر بوجودها أغلب الأحيان، جاف المشاعر، قاسي القلب. استمرَّت خطبتهم حتى تخرَّج نور من الجامعة واستلم العمل في الجيزة. كانت تسأله خطيبته عن ميعاد الفرح فلم يجدْ لها إجابة، أما أهل نور وأهل الفتاة، فكانوا يعاتبونه، يلحّون بالقول عليه حتى يأخذ إجازة من عمله وينشأ الفرح. لا أحد يعلم عنه علاقاته النسائية التي ارتكبها في الجيزة، لا أحد يعلم شيئًا عن الملاهى الليلية التي تردد عليها، وعن الشقة الإيجار التي احتفظ بها لنفسه ولفتيات الليل حتى كانت له شُهرة بين الفتيات، وكثرت الأقوال عليه.

كسرت خطيبته خاتمها من الحزن، وأخبرته أنها فسخت الخطوبة، وهو في الجيزة، شعر بنفسه فجأة يعود من الجيزة إلى الصعيد ليُعيد الأمور، لكنه تفاجئ بزواجها من غيره، فتحطَّمت مشاعر نور، وأدرك أنها الفتاة النقية الوحيدة التي تعرَّف عليها، وندم أشدَّ الندم أنها تركته، وأصبح عندما يراها يرتبك ويتلعثم. استمر ذلك لفترة طويلة حتى تعرَّف على ياسمين اللبنانية سنة 2000 في إحدى الملاهى الليلية. كان قد كلَّفه أحدهم بتوصيلها لمنزلها لغياب السائق الخاص بها، وفي الطريق كان يسألها بعض الأسئلة.

علم أنها تحمل الجنسية اللبنانية، أتت إلى مصر منذ أشهر موقعة على عقد خمس سنوات بالقيام بعروض أزياء، وإعلانات لشركات عالمية، وجودها في الملهى كان مُصادفًا، وعبَّرت عن عدم رغبتها في التردد على الملهى، كما أفادت له أنها لا تُحب صخب الحياة والضوضاء.

ياسمين شخصية جديَّة، ورسمية معه أكثر من اللازم. جمالها فاق جمال القمر شعرُها النحاسيّ، وعيونها بنيْتان كمسحوق الشكولاتا الذائب ترميه بسحرها الأسود. كانت تُقاربه في الطول عندما ترتدى الكعب الطويل، ودقات الكعب تدق تُناغم دقَّات قلبه فيضيق الكون بها في صدره، يا حسناء! من أين موطنٍ جئتِ؟ من أيِّ كونٍ خلقتِ؟

خشى أن يتيم في الحب، وخشيت هي الأخرى أن يضل في صباها الرجال، فتُكرر بغض وقبح الماضى، توددهم في البداية كان عسيرًا. داموا ستة أشهر حتى تبادلوا أرقام هواتفهم، وأتفقوا على ميعاد الغرام لأول مرة. قبل ذلك كان يتردد عليها في الاستوديو، يكتفى بمراقبة طلَّتها من جسور وقمم، ثم يحظى في نهاية كل جلسة تصوير بحديث قصير معها يدبُّ فيه الروح، أو لا يحظى وتتجاهله متعمدة ألا تبني معه حوار.

لا تعلم أن كلما زادت العفا هوى في حبها حتى هوي، وإن عثر عليها تعثر، فدنا لها فاتن الرنا. في السنتين الأولى من الشغف بينهم عَرف عنها بعض الأسرار التي تُخفيها عن طاقم عملها، ولا يجوز لأحد أن يكشفها، ولكنها خاطرت بذلك لنور فيما روى لها بعلاقاته النسائية، أضاف لها أنه لم يعد يواعد فاتنات الجيد مُكتفيًا بها، والذي خلقها لم يخلقْ لها مثيل.

الصعيد في المساء

لا يجد نور سببًا ليكون هنا سوى أن يراه أهله، ويتحقق من صحة والدته المريضة. كانت تُعانى في الفترة الأخيرة من داء جلطة بالمخ، وأصيبت أطرافها اليُمني بشلل دائم نتيجة الجلطة الدماغية، أنبأهم الطبيب أن الجلطة قد تتعاقب بوفاة إن لم يُتابع العلاج الطبيعي بشكل مُنتظم، كما أن الحالة النفسية للمريضة سيئة، وتحتاج إلى من يكون جانبها من أبنائها والرعاية.

كان نور يُفكر بياسمين، يتساءل أين هي الآن، أحبها بجنون حتى أدمن هذا النوع من الحب المعذب، والإدمان موت، وبرغم صلابته لان القلب لها تحت جيدها خاشع مبتهل بالشِعر!

فكر أن يرحل من الصعيد، ويتخذ طريقه إلى الجيزة، الذى يستغرق ثمانية ساعات، ثم يبحث عنها، وستكون في الاستوديو بلا شك. لم تعُد تُجالس منزلها كثيرًا، وكفَّت عن إقامة حفلات تعارف

على طاقم العمل السينمائي، ومديرين الدعايا للشركات التي تعمل لها، بدأت تشعر بالإرهاق والإستنزاف من مجالسة الناس، وأرادت أن يكون كل الوقت مخصص لنفسها فقط. أصبح يومها المعصور يسير على تسلسل غير متناغم. تستعد في بداية يومها على تفقد جدول النظام الغذائى الذي تتبعه حتى يصبح مقاس جسدها ثابت. لم تعِ لفرد من طاقم العمل أنها تتبع طبيب خاص بها عن الطبيب الذي نسجته شركات التجميل لها. أرادت أن يكون لها طبيب خاص يحفظ سرها بإصابتها بداء السكرى كي لا يعتذرون عنها، فتأخذ الجدول من الطبيب الخاص بالشركات، وتزوره كل شهر على أن يجد أن نظام الغذاء يعمل بصورة متقدمة معها، حاولت إخْفاء تلك الكذبة طويلًا لكن سُرعان ما أُفشت. بعدها تتأهب لمطالعة هاتفها إن كان هناك مبعوث من أحدهم ينبأها بمقابلة أو موعد تصوير، قد تعمل لدى مصممين الصور للمجلات والروايات والأغاني وإستخدام إطلالتها في الصور المنتشرة لدى الموقع العالمى جوجل، تداولت المجلات الأوروبيّة لقبها الطليع، وكان لها صيت بالخارج عن مصر. عندما يطلب أحد الصحفيين مقابلتها كانت ترفض، لا تُريد أن يصل صيتها إلى بلاد العرب، فيدركها أهلها ويعلمون مكانها.

احتفظت بمشاكل أهلها لنفسها، ومشاكل الجنسيتين التي تحملهما بعيدًا عن الجميع. مدير أعمالها فقط كان يعلم بشأن الجنسيتين وديانتها، وكتم ذلك محاولًا إبْراز ياسمين بألمع طلّة أمام الكاميرات، وكانت طلّتها تُبهر الحواس.

لا يعلم نور بكل هذه القصص المعقدة التي تمُر بها. أخبرته بقصة عاطفية مرَّت بها في بلدها وبنهايتها الحزينة، ومن بعدها حظيت بفرصة لنقلها إلى أضواء الشهرة، فعملت في بادئ الأمر كمصوّرة، واستملها أحد الموظفين كعارضة أزياء، وبرغم أناشيد النثر في رونقها فعرفت بصلابتها، وسلاطة لسانها، فكانت بين طاقم العمل جلفة جافّة لا تسمح لأحد بخوض حديث فارغ معها، ويا قلّ ما تبتسّمت، ويا كُثر ما تضاحكت أمام عدسات الكاميرا فارجة فمّها بابتسامات تخفق لها القلوب.

كانت الياسمين بين طاقم العمل تُوصف بالقوة واللين، يشعر الطاقم أنها منقسمة لنصفين، فالنصف الأول الذي تتعامل مع طاقم العمل به، وبنبرتها القوية وجديّتها وصمتها، والنصف الآخر الذي تُظهره خارج العمل بدُعابتها وحُبها للخير والسؤال عن الغائبيين، لديها قواعد كثيرة تعيش بها، أهمهم خيرُ العلاقات أتفهها.

استقبلت ابنة لبنان العروض طيلة فترة عملها، لكنها كانت مذبذبة ومطعمة بخلافات أهلها وتفككهم، فكانت تتغيب، ويتراكم عليها أهرام من الديون التي هربت منها إلى مصر، وعقدت عقد خمس سنوات على أمل أن تُسدد الديون المتراكمة عليها في لبنان،ومن ثم تُفكر بالعودة إن سمحت الظروف لها.

لا يجوز أن يصل هذا الموضوع إلى مدير أعمالها؛ إذا وقعت تحته أسرارها إضافة إلى علمه أن ياسمين واحدة من يهود العرب، وتحمل الجنسية الفلسطينية قد يستغلها أسوأ الاستغلالات التي لا تخطُر على بالها، وبعد ذلك شعرت أنها في حيرة وفكرت بالعودة، فحاولت أن تتصل بشقيقتها أو والدتها بلبنان، فلما حصلت على الرد أخذ مدير أعمالها تلك الطرود من عند باب منزلها دون أن تعلم، وقرأ ما فيها.

كان يكشف أسرارها، ويحتفظ بالطرود لنفسه حتى توهَّمت الوحيدة أن أهلها فُقِدوا في حروب لبنان، أو أنَّهم انتقلوا إلى بيتهم الثاني فلسطين، ففكرت بأن تبعث لوالدها، إلا أن الأمر سيكون شبه مستحيل لإنها فقدت كل شيء قد يصلها به.

كان نور جالسًا بين عائلته أطرش الأذن، لا يدرى بقول أبيه، ونهره له بسبب قضية الزنا، وأنهى حديثه معه بقسوة طاردًا إيَّاه من بيته حتى وجد نفسه مع إسلام راحلًا إلى مصر.

سمع بعض الحديث القاسى من أخيه خلال رحلتهم في القطار حول إهماله لحياته وهلكها بين النساء، و لكن هذا كله لا يؤثر فيه بشكل خاص بمقدار أن يُلاقى ياسمين في مصر، والقلبُ يختال، ميَّالٌ ميَّالٌ، ينقلَّب من حالٍ لحال.

14 من نوفمبر سنة 2002

ياسمين

كان كل شيء بخير حتى بدأ المطر في الهطول.

أستطاعت أن ترى قطرات المطر تتساقط على زجاج نافذة السيارة الخلفية والأمامية. حدَّقت ياسمين للسائق أمامها، وقد بدت مُتعبة شاردة، و تُريد العودة إلى منزلها فالطقس بارد، ستُقابل مدير الأعمال الخاص بها في إحدى المطاعم التي أعتادت قيام المقابلات فيها، كان يُمكنها أن تُنهى كل شيء

بينهم في بيتها لكنه طالبها بالمجيء، المطعم لا يبعُد كثيرًا عنها، كانت خمس دقائق وقد انعطف السائق بالسيارة.

نزلت من السيارة ترتدى الكعب الرشيق، وعلى كتفيها معطف أحمر سميك يحميها من هجمات قطرات المطر. أنزعجت لفكرة الطقس البارد، والميعاد المتأخر، ولما وصلت دخلت للمكان الداخلى للمطعم، وقد خلع لها معطفها، ثم أحضر لها وجبة خفيفة من الحساء الساخن حتى بدأوا في الحديث، ثم صرح لها بشأن نور الذي خرج من السجن وسأل عنها بالاستوديو اليوم فلم يجدها.

– أعتذر يا ياسمين، كان عليّ تفقُد الأمر، لم أدرك أن ذلك له علاقة بكِ إلا عندما أقابلك وأتأكد منكِ.

سألته وقد بدا في عينيها الاهتمام:هل رأيته؟

انتابها إحساس بالقلق وشعرت بالدم يسرى بجنون بباطنها، فلابُد أن تكون تلك العلاقة بعيدة عن المرئى.

قال مدير أعمالها، وهو يحاول معرفة الكثير عنها: لم أكن هناك، كنتُ منشغل وراودني إتْصال بهذا منذ ساعة. ما قصته؟

هزَّت رأسها مُظهرة اللامبالاة، وحاولت ألا تنظر مباشرة في عيني مدير أعمالها خلال حديثها.

– لا شيء، مجرد علاقة سابقة وف...

كانت على وشك قول "فشلت" لكنه قاطعها بالقول، بدا أكثر جديّة:لقد كان حارسك الشخصى قبل سنة، أتُدركين إلى أين قد تتخطى تجاوزاته بإيذائك؟

نبرته جادة تُنبأ بالحذر، فبلعت ياسمين ريقها بصعوبة، لم تستطعْ منع نفسها من النظر في عينيه، فارتجفت هذه المرة كانت تشعر بالدم يغلى في عروقها حتى كاد أن يتبخر، لم يضعْها أحد في موقف محرجٍ كهذا.

– آه. . . حسنًا. . .

لم تُريد قول شيء، رغبت في أن تبتلع الأمر بأي شكل لكن مدير أعمالها أضاف لها.

– أتعلمين أنه كان بالسجن في قضية زنا؟

هزَّت رأسها مجددًا، و رغبت في الرحيل،و أشاحت بنظرها للحساء أمامها.

– لا، لم يُخبرني بهذا، لا أعتقد...

قالتها بنبرة ناعمة وهي تشعر بالندم عن تجربتها معه. أردفت: كانت علاقة عادية كعلاقتي السائدة بالغير، علاقة تخلو من أي مشاعر، كما تعلم، الفارق أنه يعرف عنى بعض الأشياء. هزّت رأسها ورمشت عينيها بتثاقل: فيما عدا شئون الجنسيتين بالطبع.

بالنسبة لها فقط لا تعنى العلاقة شيء، تفهَّم مديرها القول وأخذه على محمل الجد والصدق، لطالما كان حافظًا لأسرارها، راح يقول: إذا أتى الزائر سنُعلمه بغيابك، لن يقتفي أثرك. لن نتحمَّل مصائب عندما يُكشف سرك وتنشأ عداوة.

للحظة تأكدت أنها هاربة من حُكم قضائي. أومأت رأسها في برود.

كان باستطاعتها أن تنجو من هذا الجحيم، ولكنهم سرقوا حبلها السُرى قبل أن تتمكن من حبكه على عنقها. لامست طبق الحساء بأطراف أصابعها الرفيعة، وأضافت: لا أجد من الكلمات ما يصفُ شُكرى لك.

– الشُكر لا يعنيني، أنا أُرتبُ لكل هذا حتى يقوم عاصم مُنتج السينما بمُقابلتك، لديه عقودًا ذهبية ستُخلصك من جحيم لبنان.

أومأت ياسمين، وقد علَّت على ملامحها نظرات إنزعاج، لم تنتبه لاسم "عاصم" أو ما يرتكبه نور بحق الجحيم، أرادت أن تتدبر شئون عائلتها بسويسرا الشرق، الطرود التي لم تصل إليهم بعد.

15 من نوفمبر 2002؛ في المساء

نور

الساعة الثامنة مساءً، وكان قريب من المطعم الذي يجاور منزلها، لا يدرى إن كانت قادمة أمْ لا. أخبره أحد العاملين بالاستوديو أن هناك رجلٌ يُدعى عاصم سوف يُقابلها هنا، فانتابه الفضول، ولهج شغفًا للقائها، ليتها تعلم أنّ الأماكن تشتاق لها.

كان المطعم هادئ ولا يعج بالزبائن، أرضه من البورسلين الذهبى اللامع وجدرانه من الخشب السميك.

بحث بعينيه في الأرجاء فلم يجدْها، أعتاد على عذابها وغيابها، وأحب ذلك لفترة طويلة لكن لم يعُد يطيق صبرًا. رحب به النادل، وسأله إن كان من المدخنين حتى يجلس بالخارج، فأخذ نور يستدير، ويسحب مقعد من تحت الطاولة ليربض فيه. أشعل سيجارًا والثاني والخامس حتى احترق قلبه. رائحة

سجائره اللعينة لازالت عالقة في شعرها، وأنفاسه الحارّة مازالت لهيبها يحرق عنقها، ولازال هو يُقدس بواقيها. ها قد أتت آسرة القلوب، استطاع أن يسمع لدقات كعبها المتوالية، استطاع أن يشتمّ عبير عطرها النَشويّ يفوح في الأرجاء كأنما اعتمدت إنباءه أنها هنا، تُناديه فيأتى، وألتفت في عز الوجع بأنينه، فما أن وجدها؛ نبض قلبه حتى كاد يهبّ ليُرافقها، يتساءل كيف سبَّبت تلك الأنثى الفتنة والفوضى بداخله. عطُرها الليلي هو السبب... كحل عينيها هو السبب... بسمتها كالشهاب المُنساب في السماء السبب... بداخله خراب سنين، فهي السبب، ليتها تبنى فوق قلبه عباراتها فتسلُم بلاده، آه يا ياسمين! والذي خلقك لم يخلقْ سواك؟

راقبها من القطب الآخر من الكون، فكانت بصحبه رجل الذي لولاه لَما منعه عن محادثتها بالقليل وصبَّ لها كل همه في شجن. كان عاصم رجلًا يكبرها في السن. ياسمين لم تكُن صغيرة كبقية العارضات العاملات معها، كانت جاوزت الثلاثون حولًا، ما قد يُعطى لأي امرئ تفسير لجديَّتها وحرصها من الرجال بل من الجميع. شاهدها تتحدث في تباطؤ، وهدوء كأنَّما يكون ذهنها يعج بفوضى الأفكار وزحمة البشر.

قالت ياسمين: أخبرني مُدير أعمالى بشأن الفيلم والسيناريو، ليتك تعلم أنّ هذا الأمر سيكون صعبًا عليّ، وافقتُ على مُقابلتك حتى أعرف عرضك، أعتقد أنَّه لن يُناسبنى.

كانت مترددة، جسدها يرتجف، وشعرت بالنبض في جميع أطراف جسدها يدق بجنون عندما أبْصرت نور، كأنَّ الزمن توقَّف في تلك اللحظة، تمنَّت لو أنها تتخيل أو أنّ هذا وهم من أوهامها، كابوس من كوابيسها؛ لكنه لا يكُف عن التحديق إليها، وقلبها لا يتوقف عن الخفقان.

بلعت ريقها، بصعوبة، لم تكنْ تسمع شيئًا مما قاله عاصم؛ لعله يحاول إقْناعها بقبول العرض أو يعرف مشاكلها؛ لكنها لن تترك له المساحة للتدخُّل في شئونها الخاصة.

حاولت التركيز معه والنظر في عينيه، حاولت أن تبحث عن أي شيء على الطاولة تتمسك فيه حتى يئن لها الوقت وتغادر، وفجأة وجدت نفسها تسأل عاصم:عاصم، هل أنت مُتزوجٌ؟

الزمالك؛ بيتُ سيء السُمعة؛ 24 من ديسمبر 2004

كريم

لم تكنْ قصة نور وياسمين جديدة على مسمع كريم، بل سمعها من نور مرات حتى تيقَّن قلبه أن نور تكبد في حُبها حتى العذاب، فأشفق عليه وعلى ما قد يكون مسار هذا الحب.

انْدهش كريم لمعرفة سارة بشأن تلك العلاقة بين ياسمين ونور، وكيف تحكى التفاصيل بينهم، فما كان عليه سوى أن يطرح عليها سؤال واحد لا غيره.

– هل تعرفين نور؟

حاول أن يكون أحمقًا، وساذجًا قدر المستطاع؛ لكن سارة لم تُصدق يومًا أن كريم قد يغفل عن شيء. ردَّت سارة بتثاقل: أجل. انتظرت ماذا سيقول لَمّا يعرف أنها على علاقة بأخوته، لعلَّه الآن سيبدو مندهشًا، وقد خالته الصدمة من تلطيخ شرف عائلته! لعله سيحاول إظهار أي شعور بالنخوة، والغضب من أقوال فتاة ليل تدَّعى على صحفى بالمسبّة والعار، هذا ما توقَّعت سارة أن يكون عندما تبدأ في الحديث عن علاقتها بعائلة كريم ولا تدرى أن مُسجل الصوت الذى بحوزته كريم ينقُل صوتها إلى إخوته وإلى ياسمين وإلى كارلا، يبث حديث سارة بنقاء ووضوح عال لكل واحدٍ منهم دون عِلم الآخر بأن هناك طرف ثالث يسمعه. ولعل سارة ستُخفق لأن هذا الجزء الذى ستوريه على كريم بصدق.

أنْتصبت سارة من أريكتها في حركة مُفاجئة مُقررة أن تُحضِر مشروب دافئ آخر لها، وما إن اقتربت من الثلاجة ففتحتها لترى أنها فقيرة من مدخرات الحياة.

راحت تسأل كريم وهى تُحدق داخل ثلاجتها الفقيرة: لديَّ الكثير من الطعام، هل أحضر لك شيء؟

هزَّ كريم رأسه ولف من فوق كتفه ليقول: كلا، لا أرغب. زمَّت شفتيها، كانت تدرى أنه سيرفض.

استدارت سارة بجسدها لتفتح صنوبر المياه، وتملئ قدح من الماء غير واثقة إن كانت صحيَّة، ثم قالت بصوت واضح يصل لمسامعه: سآتي لك بكوب مياه إذن. ليست من محبيّ الضيوف إن ظن ذلك، تمنت لو تستطيع أن تضع له سُم الأفعى، إلا أن ثلاجتها فقيرة منه. قامت بفتح ثلاجتها مجددًا لتنظر في بابها الذى ضمَّ علب وشرائط من الأقراص التي تستخدمها، وكان من بينهم أقراص مُنشطة والتي تحملها في حقيبتها بصورة مستمرة وهو ما لم تُرد أن تُطلعه لكريم.

قامت باقتلاع قرص من الشريط لتضعه في القدح، وأمسكت به لتُدريه قليلًا فيُذاب داخله.

نظرت إلى فريستها، التي بعد أن تختم الحوار بينهم تصهر بها، وتضعها تحت ذلَّاتها فلا يستطع نشر الحوار الصحفي.

16 من نوفمبر سنة 2002؛ بيتُ بسنت؛ حى الزمالك
سارة

كانت المسكينة قد صحوت من غفوتها، بعد أن تأكدت أنها لن تنعمْ بنوم هادئ في هذا المنزل. أرادت أن تُقيم في منزل صديقتها بسنت على أن تُجالس والدتها، وكان ذلك يُعزز من مصالحها، ومصالح بسنت التي كانت تستعين بمساعدة سارة في أن تُذاكر لها، وقد تُساعدها بالغش، فتنجو من عقبات سنوات طب. كما أنها تستغل سارة في أن ترميها للزبائن المشكوك فيهم، وتسرق منها بعض الأموال، أما سارة فكانت تتفادى والدتها وما نجى منها.

في بيت بسنت يُمكن لسارة أن تُجالس الأصدقاء، وترقص وتجتذب الرجال، ثم تسرق الأموال منهم، ومن الجانب الآخر كانت تُتابع دراستها بشكل شبه منتظم، على الأقل حاولت ألا ترسُب، لكنها مؤخرًا فقدت لقب الأوائل.

كانت الساعة الثانية عشر ظهرًا، لم تتأخر عن الميعاد الذى أرادت أن تقوم به. دخلت لغرفة بسنت التى تمنعها أكثر الوقت من دخولها، رأتها راقدة على فراشها، جلدها عارٍ من الملابس، فمها مفتوح فتحة صغيرة تسمح لإدخال قطرات عذبة، ومالت قنينة النبيذ على ذقنها.

عندما رأتها سارة في هذا المشهد، تأكَّدت أنها لن تصحو إلّا بعد ساعات من الآن، اقتربت منها، وهى تذكر أن بسنت لم تستحم منذ أسبوع، وتحبُّ قضاء أغلب وقتها دون أن يُغطى جسدها رداء، هذا الأمر بدأ منذ صغرها ودام معها إلى اليوم وقد يدوم إلى أدم الدهر.

كتمت سارة أنفاسها عندما أبصرت وشم حيوان العقرب السام على جانب سُرَّتها، كان ذيله طويل ومنتصب لأعلى يطوّقه رمز بُرج العقرب المُشير طرفه إلى دلالات جنسية، كان وشم أسود ملئ بتفاصيل جسد العقرب، جسم العقرب المنقسم لثلاث أشقاق، أوله الرأس الصلبة وآخره ذيله المجتمع فيه سُم العقرب، ومنتصفه البطن وهو أضعف أجزاءه.

عندما فكَّرت بسنت في رسم وشم، اصطحبت معها سارة إلى ذاك المحل المخصص لطباعه الوشم، واختارت هذا التصميم، فيما قامت سارة بإخْتيار صورة لتنيْنين ذو أجنحة حادة أطرافها مُسننة يعانقان بعضهما البعض، و أحدهما بالمقلوب والآخر مُعتدل، أحدهما أسود والآخر مُفرّغ (أبيض)، فكانا يرمُزان للشيء وعكسه، لقوى الخير والشر، القمر والشمس، البرود والحرارة، المياه والنار، وتركته يمتد على جانب ساقها.

أخذت سارة زجاجة النبيذ من على بسنت، ورفعت عليها الغطاء فأصبح وجهها مدفونًا تحته. قصدت اليوم أن تكون في القصر العيني، فأخذت تقود سيارة بسنت بعد أن دارت في الشقة تبحث عن مفتاحها الوحيد، النسخة الأخرى ضائعة لا تعلم أين اختفت، ربما تلاشت مع زحمة أعقاب السجائر وزجاجات الستيلا، ووقعت في يد حارس العقار الذى لا يبدأ يوم سارة إلا بمرورها أمامه وتسمع السب منه، فلا تعلم أنّه اليوم أبلغ الشُرطة عنهم!

شعرت سارة بخديَّها يتورَّدان حمرة لَمَّا خطت بوابة القصر العيني، ستُلاقى كل شخص تكره الآن بلا شك. هناك بعض الطُلاب يعرفون حقيقتها، أحدهم رآها ذات مرة في شقة بسنت تُجاور عُمَر صديق بسنت ومحبوبها. من الغريب أن تقع بسنت في الحب، لكنه الوحيد الذي استطاع السيطرة على مشاعرها، و رغم تأكُد سارة أن بسنت كائن لا يُوافق طبيعة البشر وخالى من المشاعر الإنسانية.

بعد أن كُشِفت حقيقة سارة من إحدى الطلاب راحت تُخبر بعض من زملائها، وتداول اسم سارة بين الطلاب بسُمعتها، كذلك اسم بسنت الذي ألتصق بها في كل حركة. لم يُكتم هذا النبأ، فكانت تتلقى سارة نظرة احتقار منهم، ورفض أكثرهم الحديث معها مما يزيدها غضبًا فوق غضب، بالكاد الشعور بالرفض يُحطمها يُدمرها.

هلَّ نوفمبر برياح قارسة، فاحتاجت سارة أن ترتدى سترة قطنية طويلة الأكمام تُدفئها، وكانت سوداء تمتص الحرارة، خاصة إن جسدها لا يتحمل البرد، هكذا يكونوا مواليد فصل الصيف. اليوم ليس بحاجة إلى أن يكون أسوأ بنسبة لسارة إلا إذا هطل المطر، فتكاد تشعر أنَّ اليوم هو يوم تعاستها. كانت تسير بين الطلاب لا تدرى سر تلك النظرات والمعاملات الغريبة، لا تعلم أن صيتُها ذاع بينهم أثناء غيابها الأيام السابقة. تصاعد الدم إلى وجهها فاحترقت حمرة خديها حتى وصلت إلى مبنى شئون الطلبة، لم تكن في حاجة إلى أن تشعر بالضجر أكثر عندما اقتحمت مكتبهم مُتخلية عن عُمرها، ومستقبلها من هذه الحركة. أمسكت بإحدى الموظفين من طرف كتفه تسأله عن إجازتها، فتقلقل الرجل وأخذ يرتبك، يُقلّب في الأوراق أمامه باحثًا عن اسمها.

صفحات كثيرة تراكمت أمامه ملأت ذاكرته به حتى عثر على اسمها، فمرر إصبعه عليه حتى آخر الجدول ليقول: يجب أن تلغى إجازتك المرضية وتعودى للدراسة قبل أن تنفصلي عن الجامعة.

اتسعت عيناها في دهشة.

- كيف ألغيها!

- يجب أن تحضرى الامتحانات.

فتحت فمها للحظة محاولة أن تبتلع مع قاله، وما إن خرجت من مكتب شئون الطلبة، حتى راحت تمُر في القصر العيني بين الطُّلاب شاردة الذهن.

احتاجت لأن تنفرد بنفسها قليلًا، و تتدبر في شئون دراستها، وتقرر إن كانت ستستمر في علاقتها مع الرجال تجذب النظر والقلوب، وتترك دراستها للأبد أو ترسُب وتُسحب أوراقها من الجامعة.

في مبنى الرئيسي للقصر العيني كانت تسير في روْاقه لا تدرى ما الذى جاء بها إلى هنا، تعلم أنها لن تفعل شيء، ربما عليها الرحيل ومتابعة غفوتها، إن كانت تظُن أنها ستنام في راحة بعد اليوم، فقد خسرت ذاتها، خسرت الحب، العائلة، الاستقرار، الأصدقاء، المستقبل، خسرت كل شيء.

اتسعت عينيها عندما أبْصرت ياسر، كعادته يتجول في كل مكان بالجامعة، ولا تهدأ قدماه إلا عندما تقفل أبواب الجامعة، ويكون آخر راحليها، كعادته يتفرس في وجوه الطلاب، والأطباء، والمديرين بفضول حتى بعث القلق في النفوس، وأصاب من حوله بالانزعاج وتمتك الخصوصية.

كان ياسر في تلك السنة يُحضر لماجستير العظام مما يُعطيه فُرصة بالتنقل في جميع أرجاء، وأقسام الجامعة دون أن يُقاطعه أحد، وأنشأ علاقات بأغلب الدُفعات القديمة والجديدة، وكان مُتسم بالنشاط والحيوية والإقْبال والحذر والفضول.

علاقته بسارة كانت من أقرب العلاقات له، ويتواصلون بشكل متقطع لكن في كل محادثة يتبادلون كل أحداثهم ومشاكلهم.

تفقدها عن قرب قبل أن يسألها عن حالها، وقالت:الإجازة والإمتحانات يشكلون لي عقبة.

- هل تحتاجين لمساعدة؟

يدرى ياسر بغيابها، ويعلم بشأن الإجازة المرضية، كان أول العالمين بذلك، لا يُخفى عنه شيء. شعرت سارة بدوار كأنما الأرض تدور من تحتها، فأمسكت برأسها، وقالت:

- احتاج لشراء كُتب السنة.

رفع ياسر حاجبيه.

- هل ضاعت!

حدقت سارة إليه مطولة، هي لم تشتريْها من الأصل، هزَّت رأسها مُفكرة بألا تعلمه بذلك، وقالت في تردد محاولة أن تكون مُقنعة:أجل، كما أنَّ بسنت اسكبت عليهم. . .

لم تشأ بأن توضح أنها ألقت (نبيذ) على ورق المحاضرات، فهزّت رأسها في ارتباك وأردفت:مواد كيميائيةٌ احرقت الورق، فصار كومة من الكربون لا قيمة لها. أومأ ياسر رأسه مُصدقًا أن حديثها مُضلّل، لذلك لم يحاولْ تقديم مُساعدة لها. في الفترة الأخيرة، أخبره أحدهم عن سارة وتواجدها في شقة بسنت، فأبْتلع آثامها وكتمها. لا يرغب في إخبارها أنه يعرف عنها هذا الأمر، فهو في انتظار معرفة المزيد مما تُبطنه.

ضربت سارة قدميها في الأرض بتوتر، حارصت على ألَّا تُصدر صوت حتى لا تميل رأس ياسر للأسفل، ويُفسر قلقها بأشياء جمة ليست فيها.

عانقت نفسها، ولفَّت رأسها من فوق كتفيها إلى اليسار.

كانت ستتطلَّع إلى النافذة التى تبعُد عنها مترين وترى سناء الشمس، لكن من بين المارة، والمرضى والمعاطف البيضاء المارَّة، لمحت رجلًا يُشبه كريم، هناك يقف مع إحدى مُديرين لجنة تقييم الماجستير. انقبضت نبضات سارة، لا يشبه كريم، إنه كريم. اتسعت عينيها وأشاحت بنظرها لبعيد، وسألت ياسر وهي تُعانق نفسها من البرد:

– من هذا الرجل؟ هناك على اليسار.

لاحظ ياسر توترها، فرفع يده وأشار على طارق، ثم سألها: ذاك الرجل؟

ضربت سارة بيده ليُسلبها بجانبه، وقالت في ضجر مُعتادة على حركات ياسر المزعجة.

– أجل هو... لا تشير إليه!

– حسنٌ، إنه طارق، أخصائي في قسم الأعصاب.

كانت سارة تدري أن ياسر يعرف عن طارق المزيد، بل يعرف كل شيء عن كل مار هنا، وهو سبب دوام علاقتها به، تُريد التقصى عن كل طالب في غيابها، تريد الشعور بالأمان، الشعور الذى افتقدته.

أومأت سارة وهي تُحدق لطارق، فيما سألها ياسر: هل تودِّين مُحادثته؟ سأُناديه.

نهرته سارة في حدَّة:ياسر!!!

بدت نبرتها خافتة عندما رأت ياسر قد خطا خُطاه تجاه طارق وسحبه من يده، فقد كان أنهى حديثه مع المدير.

تصافحا في حرارة، وجذَّبه من يده ليلف، فيجد سارة قد سارت بعيدًا؛ لكن ياسر ناداها بصوت عالٍ، صوت جهورى جعلها تتجمَّد في مكانها، وتتثبَّت كالشجرة في الأرض، فما أن استدارت، وجدت طارق وياسر يقفان قربها مخترقين مساحتها الحميمية. ضاقت عينيْ طارق، انبأته حاسته، وذاكرته بالفتاة التي كانت في دورة المياه، شعر بالإرتباك لوجودها، والحرارة الصادرة منها، ومؤثراتها عليه. كانت سارة تبتسم قدر المستطاع، ابتسامة صفراء، ولا تدرى أن هذا الرجل هو ما لامسته وليس كريم. عرَّفهم ياسر على بعض محاولًا ذِكر النقاط المشتركة فيهم كي يخلق حوار بينهم، لطالما كان خبير في تكوين العلاقات الاجتماعية.

اتسع ثغر ياسر بابتسامة حارة:

– هذا طارق من أشرتِ عنه!

ذابت ابتسامة سارة كذوبان الجليد على موقد عندما كشف عنها ياسر بقوله، وامتعضت قاسمةً ألَّا تُحدثه مرةً أخرى. رمق طارق سارة بنظرات أفادت الغرابة، كان يتساءل لِمَ قد تسأل عنه مرة أخرى، هل تحس بانجذاب ناحيته؟

تابع ياسر فيما أراد الطرفين في أن يرحلا.

– طارق إنَّها سارة، هذا الاسم الذي يُمكنك مُناداتها بها، طالبة بالفرقة السادسة.

رحَّب طارق بقول ياسر، وهو ينظر لسارة، ثمَّ مدَّ ليُصاحفها، فحدَّقت سارة ليده المعلقة في الهواء، وفكرت إن لم تُصافحه فيعود ياسر لمضايقتها، وإن صافحته لن يضر ذلك بشيء. ترددت نظراتها بين طارق وياسر، و حاولت أن تكون حذرة في سلامها، وتشابكت أناملهما، فاستشعرت برودة جلده، وسرعان ما انتكست يدها للخلف. كانت على وشك أن تدنو من خديه تُقبله، غفلت أنَّها في الجامعة، وبلعت ريقها، ورغبت بشدة في الرحيل مُتمنيَّة أن يكون هذا مُجرد تشابه بينه وبين كريم.

شعر طارق بملمس يديها عليه للحظة، وراقب تراجعها السريع، حتى ثارت داخله التساؤلات حول سارة، إن كانت هذه فتاة مُشابهة للفتاة التي كانت معه، إلا أنه يذكُر كريم حسن الذكر عندما قال (سارة... إنها فتاة ليل) لم يبد لطارق أنها تنوى نيَّة خبيثة نحوه، إن كانت؛ لكانت إنْدفعت كالمرة السابقة دون خشى، ولن يمنعها أحد. لعل المقصد كريم وليس هو، و نمت داخل طارق الشكوك حول كريم وسارة والصلة الرابطة بينهم، ليس حوار صحفى فقط.

لم يسمع طارق لقول ياسر بعدما نطق اسم سارة، وكان مرتبكًا مشوشًا، كذلك سارة التي فقدت سمعها في تلك الآن وبعد أن انتهت ثرثرة ياسر، انتبهت لقول واحد منه: طارق له أخوة وتوأم مُشابه، علاقتها بالناس هنا قويَّة حتى إنَّه قام بخطبة طبيبة زميلة لنا هنا، انتبهت سارة لكلمة "توأم" و"خطبة" فراحت تتطلع إلى إصبعه، إنَّه الخاتم الذي لمحته في يده من قبل، شهقت دون أن تُصدر صوت، وجالت أنظارها في الأرجاء باحثة عن بوابة للهروب، التي سرعان ما ستجد عاقبة أخرى تنتظرها.

24 من ديسمبر سنة 2004؛ بيتُ كارلا

كارلا

كانت بمفردها في المنزل، والدها في عيادته، واليوم أفرغت نفسها، وأوقفت كل ما لديها عندما أخبرها كريم أنَّه على ميعاد مع سارة مُفاجئ سيعرف فيه كل شيء عن علاقة سارة وطارق. المشاكل التي راودتها متأخرًا، وعلاقتها المتوترة بينها وبين طارق لم تكن أسبابها واضحة لها، وأصعبُ شيء الخيانة، والآن أصبحت متأكدة من أنَّه يراوغ مع امرأة أخرى غيره. أنْصتت كارلا لحياة سارة، والجانب النفسي الذي قصَّته، وكان مُهمًا بالنسبة لكريم أكثر من أي أحد، فكانت تُحضر لها مشروب ساخن وتمشى في غرف الشقة بالمسجل، ويتبعا قُطها الأبيض ذو الشعر الكثيف، والطويل يُصدر مواءه كي يحصل على المزيد من الطعام، فتُطعمه.

تنتظر كارلا قول الحقيقة، تنتظر معرفة تفاصيل أعمق مرّوا بها، قد قالت كارلا لكريم قبل ذلك: لم أعُدْ أحبُّ طارق، خدعنى وخاننى، أصعب شيء الخيانة، أعلم أن بينه وبين سارة علاقة، لا أستطيع إثْبات ذلك، فلم أرْهم سويًا من قبل، وكانت شكوكى لا تهدأ، أنا أكره، لا تتخيل شعورى نحوه كيف يكون، لقد تحمَّلت سارة معى بالقسم حتى أكشف ما بينهم لكن لا فائدة، زيادة على ذلك، أريد أن أكره أكثر بعد أن اعترفت سارة لي بعلاقتهم، أريد أي شيء يجعلني أكره أكثر، أي شيء.

ما كان كريم سوى أن يُهدئها ويخمد نيران غضبها، وقال: كارلا، لا أريدك أن تتصرَّفي باندفاعية، أنا في طريقي الآن لبيت سارة. هذه المرأة دمَّرت حياتي وحياة أخوتي، هي وصديقتها.

ربما سارة بجانب بسنت لا شيء يُذكر، لكن الحصول على أقوال بسنت مستحيل، حتى الشرطة فشلت معها فعذَّبوها.

– ياسر يحاول استدارجها لكن لم يحصُل على شيء، سارة من جلست معها وسمعت لأقوالها، بالتأكيد أخبرتها بكل شيء، لذلك تركتها معها، لكن سارة لن تكتب شيء مما سمعته في التقرير، ستكتُب الباطل وتُزيف الحقيقة.

قالتها كارلا بحرقة. أكَّد لها كريم: سارة من السهل استدراجها، سأحاول.

بعد ذلك، انتهت المكالمة بين كارلا وكريم، وقام باتصال مع ياسمين وإسلام، يخبرهم أنه قد اقترب من منزل سارة ويتأكد إن كان المسجل يعمل.

أنصتت كارلا إلى أن قصَّت سارة في المسجل، إنها تقابلت مع طارق، وسمعت لباقية قولها؛ إذْ تمتمت سارة : عندما ألتقيتُ بطارق في المستشفى، شعرتُ بشيء يجذبني إليه، ويصدُّني عنه في الآن نفسه، قلتُ في نفسي أنه عليّ الابتعاد عن هذا الرجل، وكنتُ في طريقي إلى ساحة الجامعة، اتجهت للكافيتريا لأحصل على شيء أشربه، تحدَّثت مع بعض الطلاب من دُفعتي، وعُدتُ لمنزل بسنت.

أنصتت كارلا لصوت كريم من خلال المسجل وهو يسأل سارة : هل ألتقيتِ بطارق مجددًا في الجامعة؟

هزَّت سارة رأسها نافية، وأجابته: تارةٌ واحدة. . . لم أذْهب للجامعة، حدثت بعض الأشياء سبَّبت لي إحراجًا وابتعدت. قابلته المرة الرابعة في الصعيد.

16 من نوفمبر سنة 2002؛ في القصْر العينيِّ

سارة

دخلت دورة المياه، وابتسمت في مرارة لَما حدّقت لوجهها في المرآة، استرجعت آخر مرّة دخلت هنا، كانت تغسل يديها من بعد التشريح، لقد تغيّر فيها كل شيء، لون شعرها الأسود ووجهها النضر الذي بدا شديد الشحوب، والأهم من ذلك، تبدّل جوهرها المتأرجح بين الأبيض والأسود كوشمها. تأوهت، شعرت بالألم مُضمر داخل معدتها التي انقبضت فجأة وشعرت بانفجار وعواصف، فدخلت إلى المرحاض، وأوصدت الباب بظهرها في وهنٍ. ككل مرة يحدث هذا، تتنهد وتُحاول التقاط أنفاسها المتقطعة، ثم تكتمها إلى أن تتقيّأ في المرحاض وتُخرج كل الكربْ بمعدتها في وجع.

رغم قدرها التعس، إلّا أن هذه المرة حالفها عندما دخل لدورة المياه طالبتين من كليّة الطب، طرقت إحداهم على أبواب الحمام وكان منهم باب سارة، لم تستطعْ أن تُجيب بكلمة، كانت مُلقاة على

الأرض وظهرُها تبلل بالمياه، ورأت الطالبة صدفةً أثر القيء من تحت الباب، قيءٌ دفيء جعلها من القلق تطرق بابها مجددًا ومن التعب لم تجبْ، فنظرت لزميلتها تشدّها وتجذب إليها نظرها لتقول لها:يبدو أن هناك حالة في الداخل.

يا لسخرية القدر! تحوّلت من طالبة إلى حالة مرضيّة. نظرت لها الأخرى وهي تحاول دفع الباب إلى الداخل: ساعديني لننقلها إلى الطبيب.

أخذ فتح الباب منهما مجهودًا لأنه كان مغلق، مغلقٌ بإحكام شديد، فقد أرادت سارة منع كل من يحاول معرفة ما تفعله. دخلوا ورأوها مغمغمة الأجفان، فاتحةٌ فمها قليلًا وقد بدا لسانها على طرف شفتيّها، فقالت إحداهم أنها حالة إغماء. مالوا نحوها، ووضعوا أيديهم تحت ذراعيها ليحملوها، فأستندت سارة عليهم فاقدة الوعي بالعالم الخارجيّ. بعد دقائق، أفاقت على سرير صغير في غرفة الطوارئ، وراحت تُحدق حولها، ظنت أن لم تأتْ إلى هنا بقدميها، وجدت الطبيب قد انتهى من الكشف، فسألته ما بها، لم يقلْ لها إجابة واضحة، كانت خرجت من غرفته وصوته يتردد في أذنيها (لا شيء، تبدين بخير، حالة إغماء عادية في دورة المياه ونقلكِ بعض الطالبات إلى هنا، لكنك الآن بخير)

ليست بخير! تتوجّع كل ليلة دامسة، كل تارة تأكل فيها يحدث لها هذا، تتألّم، تذهب للمستشفى أو تتناول عقاقير لتُخففّ عنها الألم لكن، دون جدوي.

16 من نوفمبر سنة 2002؛ بيتُ بسنت؛ في الزمالك

سارة

عادت دارسة الطب من القصر العيني لتجد بسنت لا تزال نائمة، الغطاء فوقها، لم تُزحْه، وراحت تدخل غرفتها لتلقى نفسها في تعب على السرير. كانت تتدبر شئونها في الجامعة والكُتب، سيرفضون أن تُقدم على إجازة سنتين، إلى جانب أن سارة بدت تشعر أنها تناست كل شيء في الطب، أذاب الخمر عقلها، وأهلك جسدها وقدرتها على التركيز.

زفرت سارة زفير عميق.

أغمضت عينيها محاولة أن تنام بعد شعور الإعياء الذى لا يكاد يُفارقها، تشعر به كلّما تناولت شيء، قلما ما تتقيّأ، ويا كُثر شعورها بالتعب عند الأكل حتى نحف بدنها، ولم تعُدْ ساقيها قادرتان على حملها.

تدرك أن هذا بسبب المال الحرام الذى تسرقه، و المال الذى تكتسبه من الزبائن، لكن أيُّ زبائن؟ لم تُرافقْ رجلًا سوى عُمر، إنَّهُ حبيب بسنت لكن قلبه مُعلقٌ بها، وهو الوحيد الذى يُعطيها سبب للحياة، والكفِّ عن محاولات الانتحار، لهذا تُرافق بسنت وتجلس في منزلها، وما بين الزائر، والدخيل ممن تعرفهم بسنت، كانت تتلوى وتتمايع فتأخذ منهم ممتلكاتهم راضيين عما يفعلونه راغبين التقرب منهم، فتمنعهم. لكن العاهرة صديقتها تُريد أن تكون صديقتها عاهرة، فتجُر قدميها للزبائن، إلا أنّ برود سارة ينفرهم منها، وكان أول من تقاضت سارة منه كان رجلًا غنيًا أكسبها فئات من الدولارات، وطالب جابر القوَّاد بإرسال إليها كي تُجاوره، و لَما رفضت سارة أبلغت بسنت جابر برفضها، فهرع إلى منزل بسنت، أخذ يشُدَّها من داخل دورة المياه بعد أن كانت تستحم، ونزل بها إلى فُندق لتُصاحب الرجل، فقضت ضعف ما أخذته في المرة السابقة فأدركت سارة أن حظها لا يُحالفها إلَّا بالحرام والمنكر.

قال لها أن تأتِ للمرة الثالثة، وأبتْ الحسناء، لكن جابر كأي قوَّاد أخبرها أنه مُجرد أن يُحيط أحدهم بهذا العالم، ويكشف أسراره لابد أن يكون منهم حتى يضمنون مأمنهم، ثم راح جابر بها إلى مصفف شعر ليُغير هيئتها فقص أطراف خُصلاتها المفحمة وأصتبغه بالذهبى الذى ساد صيحة سنة 2002.

جابر أصلَّه من إحدى القرى الشمالية، و عائلته ثريَّة، وكانت مكاسبهم عائدة من تجارة اللحم؛ إذ بدأ جابر في العمل كجزار لحم، وتزوج من النساء أربعة كما حلَّل له الشرع، وكان يُطلق النساء، ويتزوج بدل المرة عشرة حتى لُقِّب بين أهالى الحارة بزير النساء، وفي صُغره أخفى عن الجميع اشتهائه للمُحرمات.

عندما اشتدَت عليه الضوائق المادية طلب المساعدة من زوجاته ببيع ذهبهم، فأبوا طمعًا في الملك، فراح يطلقهن، وأخذ منهم الجواهر، ولم يعد يطيق حياته عاذبًا، تنامت داخله عُقد تجاه النساء كبزرة تفتّحت شجرتها بأغصانها المستندة على شُعيرات الجذور في باطن الأرض لا يدرى بها الناظرين، وراح يسير في الشارع، لَما يجد امرأة متزوجة حاملة طفلها في حضنها وملابسها تسر الجائعين؛ يتبعها بخطا هادئة حتى يصل إلى منزلها، ويطرق بابها، ثم يُهددها ببتر أصابع طفلها إن لم تفتحْ جسدها له، فعل ذلك مع المئات، وذات مرة قطع بالفعل أصابع طفل، حتى تحسَّنت حالته الماديَّة، وتزوَّج، فتفاجئ أن حدث ما كان يفعله مع زوجته وابنه، واعتدى رجلًا عليها يُهددها بقطع أصابع ابنه؛ لكن، جابر طلَّقها كغيرها، وتوقف عن فكرة الزواج مستقلًا عن عائلته عندما تعرف على رجل عربيّ عرفُه على عالم

الليل، والنساء الرخيصات هناك لا حصر لهم ولا عدد. أما عن سارة، وبعد ذلك، أخذها إلى زبون آخر ولم تكُن رفضت، وأدركت سارة أن الله كتب عليها الشقاء والبقاء في عذاب الدنيا. بكيت على وسادتها بكل حرقة وغصّة قلب.

بسنت

راود سارة في منامها بأن كانت تصغ لجهير بسنت تستنجد بها، فجالت بنظرها حولها في الصحارى الجافة، وما أن رأت بئرًا على مسافة أمتار منها اندفعت إليه بعاطفة سبعين أم، ما أن قاربت البئر فنظرت من أعلاه، لتُبصر رأس بسنت وما يحطها من ظلام دامس، وتُعاود استنجادها مُطالبة بأن تشد بها الحبل فتنجو.

راحت سارة دون تردد بسحب الحبل المتين تجاهها، وتشده بقوة، فكان أوله مريع وآخره فظيع؛ إذ خرج الحبل بجردق خشبي حاملًا في داخله دماء بشرية فاسدة، ولا يزال عويل بسنت يُداوى من قاع البئر، ووحشة الصحراء تكسو ظلمة. همس شيطان، ودمع ملاك، وقهقهة ذئاب مسعورة خلفها يفتحون أفواههم الجائعة. عيونهم سيفُها بتار، بؤبؤهم ثاقب كأعين الثعابين.

الظلام يقسو بظُلمته، والرياح تعوى، و أحدهم رفع رأسه وانتصب ذيله يجهر بصوته في السماء كيوم النفخ في الصور، وبسنت تحجم بالحبل متشددة به صاعدة للقمة، أما الحبل فلا يتساقط طرفه الأعلى ابتلعته الصحراء فعُقد بداخلها، وصعدت حتى خرجت غانية الصحراء، ومن مركزها تتساقط قطرات دماءها الفاسدة فتسقى الصحارى، وسارة تستنجد فلا ناج لها سوى رب السماء، ولا مُهلك لها سوى الشيطان، ولا ناح عليها كالملاك، وافترست الذئاب أطرافها، فانطوت في كونها للخلف حتى سقطت سقوط حر في بئر الخطايا، فلا رحيم لصراخها، ولا ذئب صهر بسنت، وجميعهم نفروا من رائحتها، فلا أذية أُلحقت ببسنت، ولا عاطفة انبثت بفؤادها، اكتفت بالسير في الصحراء، ورحلت الذئاب، وسجدت الشمس تحت العرش، فتشقَّقت السحب بنور الفجر، فلا مستغفر ولا داع، فتُغلق السماء باب التوبة وتُفنى الأجساد.

صحوت سارة لتجد بدايات الحلم في منامها تُصاغ لكابوس في حياتها. فتحت عيونها السود لتُبصر جسدها على الفراش، إنها ببيت بسنت.

قامت فخطت إلى دورة المياه، وبداخله انقبض قلبها فكاد من اضطرابه ينقضى، ثم يمدُّ الله في عمرها ما سُجل لها في ألواح القدر، فما أبصرته دماء فاسدة خبيثة ودماءُ شَرف، دماء غضبت فثارت

من جسد دنيء، سمعت آهات بسنت من غرفتها، فأيْقنت بالخيال يتجسَّد، وراحت لها بكل نبث قلبها، لتجدها واقفة تتكئ على الحائط بذراعها، والدم ترك أثره على ساقيها، فقاربت منها لتستقص ما جرى.

– هل النزيف عاد إليكِ!!

هزَّت بسنت رأسها التي ضربت بها في الحائط بقوة، فكادت أن تنفلق نصفين، ثم وضعت يدها على كتف سارة لتدفعها للخلف آبية امتداد أيادى العون لها، وتلك الأخرى وضع الله في فؤادها ألف ومائة وعشرة انفعال بميل وشفقة وحنو حتى كاد قلبها لا يتسع لشعور آخر.

أعادت الكرَّة:بسنت، بِمَ تشعرين؟

لقَّنت الحياة تعاليم قاسية نبأتها بألا تبوح لأحد، لكن مع تكرار النزيف ستموت إن لم تستنجد، وتراجعت للخلف لترفع ذقنها فتُناظر سارة. همست بنبرة صاحبتها الألم:جسدى يتمزَّق من داخلى.

– تعالى، سأذهب بكِ إلى المستشفى.

أحسست بسنت بعناق في صوت سارة، وأخذت بها تُحضر لها ملابس نظيفة وواسعة كى تستطيع السير، وسارت بسنت متكئة على سارة وهدفها مسقط رأسها.

خطت المُعذَّبة في الأرض خطا متأنيَّة كالكهل، وتابعت النهج على مهل، إلى أن جاوزت سيارتها في السهل، فارتخت جانب قرينتها، وشدَّت عصا بجانبها، ليتراجع الكرسي إلى الوراء، وما كانت سوى وحدات زمنية حتى كانوا في أقرب دار شفاء.

هناك كانت الرفيقة تسند بسنت عليها، واتسعت لهم ممرات الاستقبال فكانت بعد منتصف الليل بساعة، والعاملين يستقبلون الحالات المستعصية في الطوارئ، والأطباء يمرون دوراتهم طبقًا لجدول قلما ما يلتزمون به، فجلسوا على كرسيين حديديين اتسعوا لهما في انتظار مداوى نساء، وكان باطن الساعة تدور فيه العقارب على منوال متباطئ، حتى شارفوا طبيب يأخذ الفتاتين إلى غرفة الطوارئ.

احتجز الفاترة ناقصة الدين وراء ستار بعد أن سمع شكواها، وجلست سارة على مقعد في ركن الغرفة مترقِّبة من بعيد، علَّها ترى شيئًا من الكواليس، لكن الستار متين وحاجب كل دفين.

إنَّها الأمْراض الناتجة من الديناميكيات الجسَدية بين الزاني والزانية، فتصيب نعمة الله الجسد، الذى كونه من أعلاه لأسفله، فقمته العقل ومنتصفه القلب وآخره الجنس وكامله الروح، وبعده الكون، لحكمه تكوينه أن يرتقى من أسفله لأعلاه، ومن الجنس لوعى الذات، فالغريزة الحيوانية تُدنى من الإنسان،

والارتقاء منها يعي حفيدُ آدم بعاطفة فؤاده، وما بعدها وفي أعلاه العقل للتفكر في الكون، وداخله الروح لتدبر في خالقها، فالعقل أوْليّ والجنس ثالوثي، هكذا نشأت دول العالم الثالث وارتَقت دول العالم الأول، وتوسَّط الزمن عند العاطفة، فمَا قبلها الجنس فهو ماض، وما بعدَها العقل فهو المستقبل والأمل، وإذَا اشْتَهى الإنْسان الجنس فانْتكس للعَراء، وإن تصاعد برقي إلى العقل فتدافعت الأمم للرخاء.

وبالحديث عن الأمراض الشائعة بين أجساد حسناوات الليل وكل ظلام، فما يصابون به في أدناه وأعلاه وأوسطه، تُذاب عقولهم بالخمر، وتُهلك قلوبهم بالعبث، وأقوال الهوى التي أصبحت تتادول بينهم كأسماء الماركات، حتى أصبحت كلمة الحب بلا كيل ولا وزن، نتاجها من إفرازات تُنظف بمناشف خشنة، ثم تلوح دموعهم ولا حول ولا قوة لهم، وفي مسقط رأسهم توارت غصون الفحول المائلة كمحاريب غزال مع أفيال، وتتلاحم الفواكهة المحرمة فيراق الدماء ويعلو الصراخ، قيل عن المرض الجسدى لدي الحسناءات باضطرابات القلب التي تؤدى إلى المس بالأداء الفعلى، ووحش الاكتئاب بدائه من القلق، أما عن الممارسات من النساء فما يجرى لهم أن يُصابوا بانخفاض الرغبة الفسيولوجية ويتدنى آدائهم، كذلك الفحول.

من وراء الستار انْفرجت ساقى بسنت، فشاهد الطبيب جسور، وأنفجارات، وآثار سير دبابات، ومقذوفات صواريخ، ودماء سائلة، طهَّر آثار الحرب بمطيِّب بعد أن أجفل، ثم استأذن منها للحظات، خرج من وراء الستار وأعلم سارة أنَّ الحالة تحتاج لاستشارى متخصص.

انْقبض قلبُ الليِّنة حتى كاد أن ينكمش داخلها، وأنصتت لحديث آتٍ من الخارج فكان الطبيب الكاشف على بسنت يقول:توجد شابة في الداخل حالتها خطيرة، حالات تشبه الممسوات والاغتصاب؛ الشقوق في الرحم جاوزت العشرة سنتيمتر.

- ماذا قالت لك؟

كان صوت الآخر قوى ناضج، فأنْبأ سارة أنَّه أكبر سنًا من الطبيب الآخر وقد يكون الاستشاري.

- قالت إن زوْجها يفعل ذلك معها كثيرًا، ولكني لا أصدقها، فالرحم متورم.

- دعني أراها.

قاد الطبيب الإستشارى معه، فما أن دخلا غرفة الطوارئ، اتسعت عيني سارة، وأدركت أن الصوت لم يكن قوى وفقط بل مألوفًا، فهذا الطبيب كان يتحدث معها، ويساعدها للإنتباه إلى مذاكرتها

لأنها من المتفوقين، سيتذكر ملامحها إن رآها، سيعرفها ويُذاع خبرهم، هكذا تكون فتيات الليل، يتهربون من البشر دون إثم عليهم.

مالت رأسها للأسفل كأن الشرطة تلتقط لها صورة المحضر، وأطرقت بنظرها الأرض.

دخل الطبيبان داخل حجرة بسنت، وبعد إتمام الكشف قال الاستشاريّ بصوت أجش:يُمكنكِ الإعتدال، سيدتي.

استندت بسنت بيديها على السرير في وهن، وراح الطبيب يساندها حتى استوت في جلستها وعدلت ثيابها، ثم عاودت الجلوس، وأبقت رأسها منخفضة فيما تأملها الاستشاري من أعلاها لأسفلها، وسألها في هدوء: كم عمرك سيدتي؟

لم تقو بسنت على رفع رأسها من الصداع.

- أربع وعشرون عامًا. .

عبست، وتساءلت لِماذا بحق الجحيم يريد معرفة سنها.

أخذ الاستشاري يردد رقم سنها في همس كأنما يحفظه، وأمسك بيديها اليمني، وتابعها اليسري فلم يُبصر خاتم الزواج والعهد، وما إن انتهى، وضع يده تحت ذقنها فرفع رأسها وتلاقت أعينها، كلاهما يستطيعان كشف الكذب من لغة العيون، كلاهما يدركان كيف تكون العين عندما تكذب، كلاهما يعرفان عدد الرمشات أثناء الكذب، كلاهما يعلمان بميكانيزمات المخ أثناء الكذب.

- إن كُنتِ تدعين الزواج، فعلينا رؤية زوجك هذا لأننا سنكتب تقرير.

- لا أدعي.

قالتها بقسوة وهي تنفُض رأسها ليسلب يده جانبًا.

- أنتِ تكذُبين سيدتي، الرحم بداخله حيوانات منوية تعكس كلامك، غدًا سننزع الرحم.

ما إن قال الطبيب هذا رفعت بسنت رأسها لتُطالعه، بدت عينيها أقسى من أيِّ مرة سبقت، واستقامت من مكانها في هدوء محاولة أن تسير بخطى متنزنة كعارضات الأزياء، و لكن الشعور بالألم أفسد خطاها، ونهجت على خط متعرج حتى خرجت من باب غرفة الطوارئ، وهي تتمنى داخلها أن يكون بحوزتها جهاز تحكم إلكتروني يُفجر الغرفة بمن فيها من عقول مريضة.

تابعتها سارة حتى خرجوا من المستشفى، كان من المفترض أن تبيت فيها حتى حين العملية في الغد، و لكنها دخلت السيارة، وفيها انفجرت القنبلة من داخلها فضربت بعرض السيارة كأن الطبيب

تجسَّد أمامها، ودمرت أثاث السيارة، وحطمت نفسها، وهدأت روحها، فرفعت رأسها مستندة للخلف، سحبت نفسًا عميقًا لعله يعطيها حياة.

تلك حالات الجنون والقسوة التي تراودها وتُصيبها، تدمر كل شيء أمامها وإن كان ملكها، وفي عز الغضب تشعر ببطش يُزلزل جبال، ويُدمر قلاع، ويخسف قارات، ولا يخمد قلبها إلا بموت أحدهم، وتبخر سيرته مع البارود.

اعتادت سارة على مثل تلك النوبات التي تراودها، فكانت المسكينة في بدايتها تحاول تهدئتها، وبعدها رفعت بسنت السكين عليها لأجل محاولتها البائسة.

بعدئذ، اعتادت سارة أن تترك بسنت حتى تهدأ ثورتها، قد يستغرق ذلك أيَّام، وأحيانًا لا تهدأ إلا عندما تنتقم بسنت مِن مَن حال إغْضابها ولو بكلمة بسيطة لا تُذكر، وبحركة ليست مقصودة، وبنظرة حادة على غفلة.

عندما وصلا الثُنائي المضطرب، تركت سارة بسنت في غرفتها التي لا تُدخلها في الأغلب، ولا تَعلم لِمَ يكون صعب عليها أن تلمس بسنت أو تنام بجانبها.

لقد دارت بينهم مشاجرات حيال ذاك الأمر حتى انتهى ذات مرة بأن ألقت بسنت سارة في خارج المنزل عارية الملابس، وبعد دقائق من ثوراتها فتحت لها الباب داعية لكنها أنْهت المجادلات بأن تنام سارة على الأرض.

ما أصابها في صُغرها، كثرة الإعْتداءات بالضرب، والقسوة التي شاهدتها في طفولتها حتى بدت تسأل نفسها إن كانت الحياة تبدو صعبة في الصغر والكبر، وأدركت أن الحياة قاسية دومًا، وحظها عَثر، ما عادت تَطيق أن يتقرب أحدًا منها إلّا برضاها، فمن كانت تشعر بالميل نحوهم تمارس الدنائة معهم، ولا تتشرف بمقابلتهم تارة أخرى، ويكون ميلها جسدي، فلا عاطفة تنبض داخلها، وصارت أشهر فتاة في شارع الهرم بحدتها، وحرارتها، وتواجدها الصاخب بين الرجال، لكن سارة وعمر استثناء، فالود الناجم منهم يجعلها تصدق أن هذا العالم به قلوب رحيمة. أول سؤال كانت طرحته بسنت على عُمر في المطعم عندما أخبرها بحبه للقراءة:هل تقرأ في الأدب الإنكليزي؟

يتميَّز الأدْب الأنكليزي بأرقى التعبيرات عن الحب والعاطفة على خلافه الأدب الكلاسيكي الهادف للجمال والسلام.

أومأ عُمر مبتسمًا: لديَّ العديد من كُتب المسرحيات والروايات، القراءة تجعل القارئ أكثر عاطفة.

- أنت رومانسيٌّ إذن.

وابتسمت ابتسامة باردة أخفت وراءها نفاق الكون.

- يُعجبني ذلك.

كانت بسنت إذا تعمَّقت في علاقة، فهناك سؤال يجب أن تطرحه، وهي تنظر نظرتها الثاقبة في أعين الشخص: هل تثق فيّ؟

وإن ارتجفت الأعين وتغير هزيز النبرة، تُدرك كذب الشخص أمامها مهما أكد لها أنه يثق فيها، ولم تُبصر أحدًا ما صادقًا أكثر من سارة التي جاورتها، وعلمت أن ظروفها مماثلةٌ لها.

احتبست سارة نفسها في غرفتها، وهي تستمع لصوت أنين في الخارج، إنَّه بالكاد بسنت، حرصت على أن تكون في غرفتها محتبسة ولا تخرج حتى تهدأ.

تفاجئت سارة بإتْصال من جابر، لا تدرى بعد أنّ شريحة الهاتف خاصة ببسنت، لَمَّا ردَّت سمعت صوته الجاف وهو يطلعها على زبون أجْنبي ثري ينتظرها. عقدت سارة حاجبيها في دهشة : ماذا!؟

أيْقن جابر أنه صوت سارة، فقال:سارة؟ أين كنتِ؟

لم تفهم ما يرمى إليه، لكنه قصد أن شريحتها كانت مغلقة ولم يستطع الوصول إليها، فقالت ببطء: أبدًا، أنا متواجدة...

- ستصل إليكِ رسالة بعد دقائق بعنوان الفُندق.

مُشترى الهوى؛ قصر النيل؛ بعد منتَصف الليل

نور

إنَّه وفي عناق الليل بالفجر، وحيرة القمر بين الشمس والأرض، فترى السماء سقوط أبناء آدم في الضروات وتحت شهواتهم، كأي ليلة يلتقي فيها إحدى الرجال المبتليهم الله بمالهم ،وبفاتنات الظلام الدامس بعيدًا عن الأعْين.

خصرها يميل، فيُحدث موجاته، و شعرها يتطاير، فيسلب العقول، وما بين العقل والشهوة تتنادى عاطفة إحدى الرجال فيأتِ لها، إنَّه نور، لم تكنْ الغيداء ترمى في حسبانها رؤيته، في تلك الليلة كان اللقاء الأول بينهم، و عندما وصلت لها رسالة بعنوان الفُندق المشار إليه، ورقم الغرفة.

طلبت المصعد في فُندق قصر النيل، وانتظرت ثواني محدودة حتى وصلت إلى طابق مفروش بسجّاد أحمر، لتقف أمام باب غرفة 702. تنهّدت وهي تطرُق الباب، تتلفّت يمينًا ويسارًا لتتأكد ألا يكون هناك أنس يراها تدخُل له. فتح لها رجل رأسه مُشتعل بالشيب فأنْهارت كل توقعاتها أرضًا كأي مرة، تبادلا الشغف بعد أن أوصدا الباب ورائهما، واستأذنت سارة منه للحظات تكون في دورة المياه، و تتأمل وجهها الخالى من لمسات فرشاة التجميل، فقد بدا شاحبًا وهزيلًا، حتى الاستشارى عندما رآها لم يتعرّف عليها، وأدركت التغيرات التي طرأت عليها في الفترة الأخيرة فأهلكت بها.

تناهى إلى مسامعها من الجانب الآخر من الغرفة صوت ضَرب وعراك، ولم تكنْ تجد من الوقت ما يُلهمها لمحاولة تخيل ما يجرى بالخارج، فتفاجئت بالباب يُفتح حتى كاد أن ينكسر، واقتحم دورة المياه شاب يدعى كارم، إنه واحد من المساجين الذين كانوا مع نور ودفعوه لإرْتكاب الجرائم عند الخروج، وهو إحدى مخاوف كريم وطارق وإسلام من أن يتخالط نور بالمساجين والمجرمين، لطالما كانت سمات شخصيته تُشبه بسنت في الأذى والعدوانية والغضب.

شد كارم سارة من رأسها، فصرخت صرخة كدب علقت شوكة في حنجرته، استنجدت فسدَّ فمها بأصابعه التي غرسها في فمها حتى كتمها، وألقى بجسدها حتى وقعت على الفراش، فأرتمى جسدها البالى، ولَما حاولت الاعتدال أبصرت رجلين، كارم ونور يقفان إلى جانب بعض، وأمام أقدامهم جثة الرجل على الأرض لا تتحرك.

لا تدرى ما جرى أثناء وجودها بالداخل، كانت تُفكر بما سيُلحق بعد ذلك. تنهدت وتنهدت، وتراجعت للخلف حتى وصلت للحواف، واقترب كارم منها فأمسك بها من رقبتها، وشهقت شهقة أخيرة، شهقة لم يتبعْها شيء، وطبق الصمت في الغرفة كأنّهم صموا.

أخذ كارم يسحبها نحوَّه ويرفع سلاحه الأبيض ليشُق عنقها فينزف منها الجرح، وما كانت المسكينة أن تُداوى حتى تركوها، وعنقها ينسال من باطنه خيوط الدماء، فما أن اعتدلت على الأرض حتى شاهدت تحتها بقعة من الدماء تتسع من تحت جثة الزبون، وانقبض قلبها بنبضات كادت أن تتوقّف، فهرعت خارج الغرفة تبتهل بكلمات.

تغمغم ولا أحد يسمعها، تتفوه بالسفه والقبح حتى أن وقفت في الشارع، و يداها تغطى أثر الجريمة على عنقها وكلمات كارم الأخيرة تتردد في أذنيها: هذا للتهديد فقط.

آمنت سارة بقبح هذا العالم من حولها، واعتادت على هذا النمط والتسلسل في الأحداث التي تمر بها كل يوم، من مشاهدة قضايا قتل، وزنا، ومخدرات حتى وقعت في إحداهم، ليست هذه القضية، بل أخرى، لَما أوقفت سيارة أجرة بعد عناء من تواجد أي سيارة في هذا الوقت من الليل، ركبت في الخلف طالبة أوراق مناديل من السائق لتُطيب الجُرح.

تسمرت عيني السائق عليها في المرآة، وهو يتأمل تلك المرأة الغريبة، لم تعطْ سارة انتباه لنظراته حقا، وكانت لا تُبالي به، فهي تسير بين الناس بين العيشة وضًحاها على علمهم بهيئتها العادية، وأنها طالبة في جامعة القاهرة بكلية الطب.

لا أحد يدرى بحالات الوفاة من المخدرات التي تبصرها كل شهر، لا أحد يدرك قضايا السرقة التي ترتكبها فتيات الليل مع كل زائر، لا أحد يعلم بحالات الاغتصاب التي ستواجهها سارة بعد أن وصلت المنزل، وتفاجئت ببسنت تُخبرها بضرورة الذهاب إلى الطبيب، لكنها أبت أن تتحرك من مكانها الليلة وأنْقضت في الفراش دون حراك، رغم ذلك، أخذت من الزمن الكثير كي تغفل في النوم، وأواه الأليمة تصدُر منها.

وبعد أن دارت الأرض مدارها في ساعات، أفاقت سارة بتثاقل على صوت هاتفها. رقم بسنت الذي لا يكُف عن الاتصالات الواردة والمكالمات الفائتة، والرسائل المخلّة.

أجابت في صوت وهن، وكان الهاتف يلاصق شفتيها، إنه وكعادته جابر، سيُدمرها كما يرغب في ذلك، يُطالبها بأن تأت، فهناك رجل لا يجب أن تفوّته، قاصدًا نور ولم تكن تدرى باسْمه، فأبت أن تتحرك مُدعية التعب، وإن كانت أخبرته بجريمة القتل لألقى بها في الشارع؛ لكنه سيعلم حتمًا، فلا شيء يُخفى عن جابر. عندما أغلقت المكالمة وغفت في النوم تلعنه، كانت وحدات زمنية ضيّقة، وسمعت لصوت قرع على باب الشقة حتى كاد أن ينقلع، ففتحت بسنت بعد أن نادت على سارة مرات ولم تُجبْ.

راقبت بسنت من وراء العين السحرية لتجد جابر، رجل لا يحمل ملامح الوسامة، بشرته خمرية وشعره رمادى وأسنانه الغير متساوية تلونت بالأسود والأصفر كأسنان الحُصان، وكلما تحدَّث أطلق رزازه.

اقتحم مخدع سارة، وصرخ فيها كما اعتدات، فتحت سارة عينيها ببطء، وتقلَّبت على الفراش لتجد بسنت، وجابر أمام الفراش.

خطر في ذهنها أنّ بسنت اتصلت به لتتآمر عليها، وراحمتاه! ألا ينبُض قلبها كباقي البشر؟ قطّبت المسكينة حاجبيها تسمع لسبابه، وقذفه حتى أن أمسكت رأسها من كلماته التي تعج بفوضى داخلها، وما إن أطبق فاهه أخيرًا وجدته يتقدَّم نحوها بخطا واسعة كفهد يُلاحق فريسته، فأمسك بيدها، وثني أصابعها بقوة، فصرخت، فزاد إتّكائه، أشتد قبضته ناويًا كسر أصابعها.

صاحت اللينة بأسى، وشاهدتها بسنت فكان وجهها لا يُعبر عن أي مشاعر، إذْ قليلٌ من الألم لا بأس به، وكثيرٌ منه لن يكفى!

حياةُ الذل والقهر يعيشونها بين آن وآخر، و إن كان لهم سُلطة فتكون على الطبقة الأخرى من المجتمع التي تخاف فتيات الليل؛ إذ عندما تتواجد فتيات الليل بين الزبائن والقوادين لا سلطة لهم، ولا حكم على شيء، فيكونون مسيرين تحت قوم بطش، مُلأت أجسادهم بالشهوات، وابتعدوا عن التقوى، ثم بكل ما أوتوا من قوة أن يطر الناس في دهاء حسناوات الليل، لا شيء دون ذلك، فذكائهم يُنجيهم من تحت الذل والعذاب، وفي غالب الآوان عليهم أن يسيروا على النهج المكتوب، وإلّا السجن، و التشرد.

الزمالك؛ بيتُ سيء السُمعة؛ 24 من ديسمبر 2004

كريم

تلك المليحة أرْبكته، شتّته، شرَّدته، فهام في قولها الملئ بمعان حزن وبدا قلبه يميل و يميل، وكان ذاك الرجل أخذ من صفة أسمه "كريم" حُب الخير والزيادة، وأراد لو تمهله قليلا ليُعيد ترتيب الأحداث، ويسألها عن كل ما جرى بتفاصيله، فطالبها بالتوقف حتى إتْصال جابر لأنه سيتغلغل إلى داخل شبكات العاهرات، فيغفل عما قالته سابقًا.

أما الغانية فكانت بين الحين والحين، وبين النظرة والغفلة، تُطالع كوب المياه، الذي شارف على الثبُّت مكانه كالشجر، فلم يتقرب كريم منه، وأخذه الحديث بشغف، حتى همست:لِمَ لا تشرب؟

لم يلتفْت للكأس حتى.

– حدثيني ماذا جرى بعد ذلك.

بأيِّ شيء يمكنها أن تُحدثه؟

لقد أخذها جابر بعد أن رفع عليها سكّين وكاد أن يُقطع يدها، تعلم أنه لو فعل ذلك سيرغمها على النزول، والذهاب إلى الزبائن.

أخذها بعد أن تأمل بسنت، وأدرك أنها ليست بخير، استشعر شعورها بمرضٍ ما، لَما سألها ضللته، فكذّبها ككل مرة.

قاد جابر سارة إلى منزل نور، أخبرها أنَّه كان ضابط، فانقبض قلبها رافضة أن تنزل، وبعد صفعة ورَّدت خدَّها خرج بها من السيارة، وانتظرها بالأسفل لنصف ساعة حتى لا يتأكَّد أنها رحلت.

يفعل ذلك مع جميع الفتيات، فهناك الكثير ممن يعصونه، والقليل ممن لا يجادلونه، وواحدة منهم سارة التي بدأت لتوها تُجادله، فقرر أن تكون هذه نهايتها وآخر عهد بينهما.

دخلت سارة منزل نور ورأت رجلًا يقف في آخر الصالة بعد أن تركها تدخل، ولم يُبادها نظرة خبيثة حتى، أيْقنت أن هذه الزيارة غريبة غير مألوفة.

استرجعت أحداث الفندق، فأخرجت هاتفها من حقيبتها وألتقطت له صورًا، كان يخلع قميصه ويعطى لها ظهره فلم يرها، و ما إن استدار حتى دفنت هاتفها في حقيبتها، وضمَّت ساقيها، والنبض تشعر به في حلقها الجاف.

تبادلا النظر طويلًا حتى سألها أخيرًا: أين بسنت؟

ابتلعت سارة ريقها، تبيّن لها أنه طلبها ليحصل على بسنت التي سببت في سجنه، لم تكن سارة على إدراك بكل ذلك، هي فقط تُريد أن تلتقط له صورًا في منزله لإن وقعت في تحقيق القضيَّة تدَّعى عليه؛ إذ أن بصماته وبصمات كارم على قطع أثاث الغرفة.

هزَّت سارة رأسها وقالت في تردد: عن من تتحدث؟

كان ليُقهقه من سُخرية القدر الذي جمعته بها.

– أخبريني بمكان وجودها، وإلَّا ورَّطتك في قضية القتل.

رفعت سارة حاجبيها تحديًا: لِمَ لا تتكهن أن أبلغ عليك الشرطة؟

– الشرطة لا تدخل بيت شُرطيّ.

– ستظلُّ حبيس منزلك؟

– ليس طويلًا، فقد وصلت الشرطة لغرفة 702 بالفعل، والآن تبحث عنكِ، ألتقطت الكاميرات وجهك.

كان باردًا، و جافًا.

كان كالجبل عندما حدَّثها، وكان مُخيفًا أكثر مما توقَّعت.

راح كريم يسأل سارة عن تلك التفاصيل لكنَّها كذَّبت؛ إذْ قالت: مارسنا الجنس سويًّا، لا بأس به.

ضمَّ كريم حاجبيه ممتعضًا كأنه ابتلع خمر للمرة الأولى، شيئًا مما قالته لم يرقْ له.

– ماذا بعد؟

– ثم عُدت إلى منزل بسنت، هناك وبعد يومين، تفاجئت بها جالسة على الأريكة تُحدق لي بنظرة ثاقبة.

ارتجفت وما كان أن سألت ما بها حتى طلبت مني الجلوس، وبهدوء أطْلعتني على تقرير أشعة قامت به، ولا أعلم متى فعلت ذلك، ربما كان هذا أثناء غيابي.

ثم فتحت سارة التقرير لتقرأ نتائجه، فكان أن تلك المُعذبة مُصابة بداء السرطان الخبيث في الرَّحم، ما يُفسَّر تكرار النزيف من فترة للأخرى، وتورّم الرَّحم.

سألتها سارة متمنيّة ألا تحمر وجنتيها: هل أخبرتي جابر!؟

فنفت بسنت، كان هذا السؤال الأول الذى خطر على بال سارة بعد أن أصبح جابر إحدى مخاوفها في تلك الحياة المرعبة.

تابعت سارة سرد ما حدث: وتلك الخبيثة، أدْعت معرفتها بطبيب يزوّر لها ورقة مرضية بضرورة نزع الرحم، تلك الورقة إن استلمها أيُّ طبيب لن يُراجع وراء سبب السرطان لشهرة أسم الطبيب.

فطلبت منها بسنت أن تذهب إلى الطبيب، وتدفع له مقابل مادى يُوازى تكلفة العملية الأصلية، وبعد نقاش عنيد بين الطرفين راحت سارة بعاطفتها إلى المكان المشار إليه، وكان في منطقة شُبرا الشَعبيّة، وهناك كانت تطرق بابه، وفتح لها رجل في زيٍّ مدنى، أول ما تلاقت أعينهما سألته عن اسمه المستعار المعروف به بين الممسوات، وكان أن تأكَّدت أنَّه هو، وبداخل منزله، أُغلق على سارة باب المنزل، فتصاعدت ذئاب جائعة من داخل الرُده يصهرون بها حتى أن استنجدت وقاومت، فدافعت بالتراجع حتى سقطت في فهوة بينهم، وراح أحدهم يضربها حتى وقع جسدها في بئر الخطايا، وتحققت رؤية منامها، وترجرجت رأسها فنزفت نهر من الدماء.

أردفت سارة بكبد: كل شيء بات مدبر، ابلغوا الإسعاف.

كانت ساعات طويلة وفتحت عيني لأدرك أنني في يوم تاريخه توالى بعد يوم الحادث بيومين، وجدت نفسي في غرفة مرضى، وعلى جانبي فراشين يجلس على كلٍ منهم مريض أو مريضة، وتفاجئت بعد ذلك بطارق يدخل عليّ الغرفة ليخبرني أنّه الطبيب المعالج لي، وتلك كانت المرّة الثالثة التي رأيته فيها.

سألها كريم بعد سماع نهاية قصّتها: وما كان هذا؟

أجفلت.

– إنّهم زبائن من معرفة جابر، فيما بعد عرفت أن جابر، وبسنت عقدوا على أن يبعدونني عنهم بطريقة تتبرأ منها الوحشيّة.

– كان بإمكانك أن تردى الصاع صاعين.

أومأت سارة مؤكّدة.

– كان هذا ما يشغل بالي طيلة وجودي في المستشفى، لقد تحمّلت ما لا يُطاق، لكن بقاؤى في المستشفى غيّر كل شيء.

– ماذا جرى؟

سألها في اهتمام، كان ذلك واضحًا في نبرته، فكادت أن تبتسم وترد في لطف، أبْقت ملاحها جادّة أكثر من اللازم.

– بدأتُ أُفكر في التوبة، فقد وقعت في الحب.

لم تُضفْ سارة شيئًا، فلولا الحب، لولا الشوق لَمَا منعها وجعلها تتراجع، لتتغيّر مسيرة سارة، وتقع في حب إخوة الصحفي.

19 من نوفمبر سنة 2002؛ في القصْرُ العينيُ

كار لا

الطقس بارد نوعًا ما في الجيزة، إلا القصر العيني بسبب الزحام، وحركة المرضى التي تدُّب فيه بين الحين والآخر.

من بعد أن أُجريّ تحويل لسارة من مستشفى بمنطقة شُبرا إلى القصر العيني تحت طلب بسنت دون علم سارة، تلقَّاها طاقم العمليات المتخصصين في العمليات الجراحية، وكان أن تسببت الحادث بترجرج المخ وجرح خلفيّ، ثم بعد حين نُقلت إلى العناية المركزة، فلم تنبث بحرف.

تآكل التعب جسدها، وفمها لا يستطيع الشَفه من بعد العملية.

يدرك الأطباء حاجتها إلى فترة طويلة حتى تعود لطبيعتها، فكان مرور طارق متخصص جراحة الأعصاب يتابع حالتها في ثواني، ويحدد كميات المحاليل المناسبة لها.

في اليوم الثامن عشر من نوفمبر البارد؛ اجتمع طارق مع أخوته في الصعيد بعد أن اتصل به والده ليخبره بحالة والدته الخطرة، وما أن شاهد طارق حالتها كان تيقَّن أن بينها وبين الموت أيّام معدودة.

اسْتلمت كارلا خطيبته أمر المرور بين الحالات التي تركها لها، ما كان يجب أن يستلم تلك الحالات غيرها. اعترض المدير عن غياب طارق، فاعتذر، وأخبر كارلا بضرورة تواجدها مكانه تلك الفترة، وما كانت تمُر على الحالات حتى أبْصرت حالة سارة، فلا تدرى ما نوعها، وما الذى آتي بها إلى هنا، كانت الحالة الصامتة الوحيدة، ليست بحالة غريبة بقدر الحالات التي رأتها كارلا، لكنها أخذت تبحث عن أحدٍ ما كان يُتابع الحالة، وصدفةً ألتقت بياسر أمام الردهة القابعة فيها سارة.

سألها ياسر في فضول: سمعت أن سارة أجرت عملية، هل هي بالداخل؟

سألته في غرابة عن اسم سارة، فأوْضح لها ياسر الأسم الحقيقيّ للحسناء، ولم تُحاول كارلا أن تتدخل في تفاصيل مبهمة.

دعته كارلا للداخل فما أن رآها ياسر تجمَّد مكانه من رؤيتها، كان التعب والشلل يملأ أطرافها حتى الحواف. ضربت بقلبه أعماق الأرض من الدهشة، ولَما اقترب منها جلس أمامها يتأمل تلك الحزينة المتوجعة. ألتفت ياسر إلى كارلا الواقفة جانبه: ماذا جرى لها!

كان غاضبًا لأن قصة حادثها ليست مكتملة في ذهنه، و لعل هذا السبب الوحيد الذي آت به إلى هنا بعد بحث طويل عن غرفتها. هزَّت كارلا رأسها آبية أن تُسرد لياسر الدقائق: ارتجاج في المخ.

قولها كان مُقتضبًا أكثر من اللازم. تأمّل ياسر وجه سارة عن قرب وهو يقول: اسمها سارة زيدان. يَتيمة الأب، والدتها تكبرها بشتات أعوام، وهذا ما ينشأ بينهما خلافات دائمة لفروق العمر.

- هل تعرفُها يا ياسر؟

كانت سارة جالسة لا تسمعهم ولا تدرك وجودهم. قال ياسر: أعرفها، وأعرف بسنت التي أهلكت بها، مسكينةٌ تحتاج ليد العون.

ألتفت ياسر برأسه من فوق كتفيه وطالع كارلا: أتعرفين أحد ما يسكّنها في منزله وتعمل لديه؟

شردت كارلا للحظة، ثم قالت: أجل أعرف، كريم شقيق طارق قال لي من قبل أنَّه بحاجة لخادمة.

كانت كارلا حتى هذه اللحظة لا تعلم شيء عن سارة سوى الاسم الحقيقي، وتفاصيل الحادث، لا تدرك أن سارة في كلية الطب، أو لها صلة بكريم وطارق.

لم يُخبرها ياسر بشيء، إنَّه ينتظر اللحظة المناسبة فقط، وبالفعل، أخذت كارلا تتصل بكريم لتُخبره أنها ستحضر له خادمة، فلما كان الآخر في الصعيد أبْلغها أن تأخذ نُسخة مفتاح شقته من حارس العقار ، وتترك الخادمة في شقته إلى حين عودته.

21 من نوفمبر سنة 2002؛ القصر العينيّ

سارة

بدأت تعى بالمكان الموجودة فيه، إنَّها في مُستشفي، القصر العيني. هكذا بدأت تهمس في ذهنها. مرَّت أربعة أيَّام على تواجدها في سريرها، شعرت بالتعب عندما أفاقت، وكانت قُدرتها على الحديث لا تُساعدها، فما كانت تنطق واحتفظت بلسانها داخلها.

أخذت الممرضات يجرون عليها تحليلات لتحديد مدى خطورة الحالة ومدى التحسن، وكانت كل يوم تشاهد ممرضة آتية لها لتُحلل السكرى، ثم أخذوها بعد ذلك لإجراء رسم قلب، ولَما وفَّروا لها الطعام أبت أن تتناول شيء، عصت عن النعمة، فكان الممرض يمر عليها يجبرها على تناول الطعام، وكانت تفعل لعلمها بأهمية ذلك من الجانب العلمي.

اختفت كارلا اليومين السابقين، فلم تعرفْ سارة أنها الطبيبة المعالجة لها مؤقتًا. ألتقت سارة بياسر، دلف الغرفة وشدَّ كُرسي قُربها، فلم يكن ضيفًا مرحب به، لكنَّه تناجي معه وما كنت تُجيبه.

قال ياسر: كنتُ أمر عليكِ، ماذا جرى لكِ أي سارة! لم تكوني هكذا أبدًا، كنتِ دائمًا الطالبة المتفوقة، إنَّها بسنت بالتأكيد، تلك الفتاة التي لا خير يأتِ منها، الله يحفظنا من أصْدقاء السوء، فهم نوع آخر من الهلاك.

عبست سارة أوْ حاولت أن تعبس، فثرثرته كانت تُزعجها، ولعنت في الظروف التي ألجمت لسانها.

تنهَّد ياسر تنهيدة طويلة، وقال عن طيب خاطر: حاولتُ التواصل مع والدتكِ، لكن للأسف رفضت المجيء.

حدَّق ياسر في عينيْ سارة، وهمس كأنَّهما حبيبين منذ زمن: سارة.

لم تلتفْت إليه، كانت جالسة بلا روح، وتابع الآخر:ما طبيعة علاقتك مع والدتكِ؟

رُغم ما يجرى لسارة، و لكن فضوله – بلا مبالغة – لا يهدأ أبدًا.

للحظة حمدت سارة الله أنها لا تستطيع الرد، وكررت اللعنات في سرَّها علَّ صاروخ فضائي يطيح به أمامها في الحال.

22 من نوفمبر 2002

سارة

لا تزال في القصر العيني، ولا تزال كارلا غائبة، فقد طالت غيبتها.

حاولت سارة التحرُّك من مكانها، فساعدها ممرض، وأخذها خارج الغرفة فيما كانت المحاليل معلقة وطرفها في يدها.

سألها الممرض عن حالها، ففتحت فمها وفي بطء شديد: لا.. أ.. أهلبُ.. بشيء...

ضمَّ الممرض حاجبيه: بدا تحسن مخارج أبجديَّتكِ، هذا يُبرز تقُدمًا؛ لكنكِ لازلتِ تفقدين القدرة في السيطرة على خُطاكِ، سآويكِ إلى مرقدكِ.

قست الداعرة حال أشدَّ بؤسًا من غيرها، لقّنتها الحياة العذاب، وهناك أرواح لا تغتفر إلّا بتذوق الألم، وهناك أرواح تستعبد الألم ويعيشون جُنهم كل يوم، وتلك الروح الشريفة خلطت نفسها في خطايا الإنسان فتبرَّأت الملائكة منها، وقارنها الشياطين، لمثلها جنهم هي عين الرحمة، والوسيلة الوحيدة القابلة للتوبة، ومثلها لا يتعلم، ومثلها لا يغفر، وغيرها لا يستغفر، هناك هؤلاء يعصون، في البُعد السامي يبصر الله بما يعملون ويوم تُرفع ألواح القدر بأرواحهم فيُحاسبون.

شحبت بشرتها حتى جفَّت، فأبرزت مساوئ الدهر على خطوط وجهها النبيل، وكان الوهن يغدق في عروقها، يُهشِّم بدنها أشلاء أشلاء حتى يفني الجسد، وتخلد الروح، وتبتهل المنيبة قارعة سنة ندمًا رافعة شرف قدرها للسماء تتفرَّس في جلال سموِّها مُستغفرة، وراحمتاه بتلك الأنثى! ذاقة الألم، ساقيّة الوجع.

23 من نوفمبر 2002؛ القصر العينيّ

كارلا

كارلا اسم أصله فرنسيّ معناها الأنثى، المرأة الكاملة والصغيرة، اختاره والدها نسبة إلى امرأة فرنسية، أُغرم بها في فرنسا وقتما كان يقوم بمؤتمر طبيّ، ومن ذلك الحين لم تزل ذكراها عن باله.

دخلت تلك الانثى حاملة القلب الطاهر، والعقل الناضج، أنثى كاملة من صفات الجمال، لم تكن ذات جمال صارخ، وعلى أكثر ما اهتمَّت بهيئتها.كانت طويلة، شعرها أسود مُموج طويل يُغطى ظهرها وأشدَّ ما فيها من براق، عينيها واسعة تحمل فطنة، ورحمة لمن ناظرها. فُتن بها طارق منذ الفترة التي تعرف عليها مؤخرًا، ولَما لاحظت سيره الأعرج معها دون رسميَّات، اتصلت بوالده وبإسلام تُخبرهم بطبيعة علاقتها بطارق، وقالت: لا أحب هذا النوع من العلاقات؛ إذا سيتخذ النكاح ليَكُن الزواج رسميّ تشهد عليه العيون ويملأ السمع، إن كان غير هذا ليفلّ عنّي، وإلّا فليكن ليّ تصرفٌ آخر.

عندما سألوها ما قد تفعله به، فقالت أن بإستطاعتها سحب أوراقه من الجامعة لأن والدها أحد مُديرين القصر العيني، فحدَّثوا طارق لتحديد العلاقة بينهم، وراح يطلُب يد الحسناء من والدها، وخطبها طارق بعد بعض العقبات بينه وبين والده لأنَّه اقترن بفاتنات الشمال. مؤخرًا كانت كارلا في منزلها تُرتب أغراضها من الملابس، والحُليّ لإستعدادها إلى التنقل لبيت طارق، فعقد القران بينهم بعد أسبوع من اليوم، وفي لحظة ما فتحت أدراج فراشها السفليّة لتجد مجموعة قيِّمة من كُتب الطب الخاصة بالسنوات السابقة، والتي سهرت عينيها عليها خمسة أيام وخمس شهور وخمس سنين، وعُمرها وما أفنته في دراسة الطب.

احتفظت بتلك الكتب معها، وراحت تنقلها من بيتها إلى بيت طارق لتضعها في مكتبته بجانب كُتبه التي يحضر عليها الماجستير. كانت أكبر منه بسنتين ولم يُشكل لهم فارق وعقبة، كانا ثُنائي سعيد، وتدارت الأعين حولهما.

تذكَّرت اليوم حالة سارة التي ستأخذها إلى بيت كريم على أمل أن تكون حالتها سارت على التسلسل المتوقع، وأن بدأت تتلفَّظ وتسير بشكل متوازن على الأقل.

ضاقت عيني كارلا عندما وجدت فراش سارة فارغ، و عليه كرمشات نوم سارة الهائج، لكن جسدها خارجه. سألت عنها الممرضين، فأخبرتها إحداهن: إنَّها بالرواق، تلك الحالة لا تتحمَّل البقاء في مكانها طويلًا.

افترضت كارلا أن هذه من أعراض الاكتئاب لبقاؤها في العلاج السريرى أيّام مُتواصلة، وراحت تستقصى عنها كمن يبحث عن إبرة في كومة قش حتى وجدتها جالسة في الإستقبال، أمكنها أن تتعرف عليها بسهولة بسبب المحاليل المعلقة جانبها.

جلست كارلا جانبها دون أن تنظُر إلى سارة، وراحت سارة بعد لحظات تُتمتم:

- لا تطلُبي مني العودة لذلك الفراش اللَّعين.

قالتها ببطء وكانت نبراتها جافَّة، فأدركت كارلا أنها لم تتناول شيء منذ فترة.

ابتسمت كارلا في سخرية قائلة:

- سآخذكِ إلى منزل كريم، و ستكونين بحال أفضل من هذا، وستطيعي التسكُّع إن أردتِ، فكريم لن يُمانع.

رمشت سارة بعينيها وشعرت بصداع قوي كأنما القيامة قامت داخل رأسها.

- كريم من؟.

قالت كارلا من دون معرفتها بصدر القصة:

- إنَّه شقيق خطيبي، أغلب الوقت يكون خارج منزله، ويحتاج لأحدٍ ما يعتني بأغراضه ويُنظفها لغيابه الدائم.

لفَّت كارلا رأسها ناحية سارة متسائلة:

- أخبريني يا..

وتابعت كارلا في شيء من التردد بأن تُناديها باسم مستعار:

- يا سارة...

شعرت كارلا بشيء غريب عند قول هذا، ثم أردفت:

- أخبريني بحالتك الاجتماعية؟

هزَّت سارة رأسها نافية حتى كادت تشعر أنها ولوهلة ستميل رأسها للأسفل وتسقط أرضًا منفصلة عن جسدها، وكانت أشبه بعصفور طائر أصطدمت رأسه في الصخر، خفضت رأسها قليلًا، وحاولت أن تُجيب:

- أنا لست حية.

لم تلتقطْ المعني المقصود، فأطرقت بالصمت حتى تسمع لبواقي قول سارة:

- جربتُ حظي في الزواج، الحب، الصداقة، كلُّ شيء حتى أدركت أن كُتب عليّ الشقاء.

ابتسمت كارلا ابتسامة مشجعة لم تلمحْها سارة، وقالت:

- جربي حظِّك مع كريم، إنَّه طيب أكثر مما تتوقَّعي.

انتاب سارة إحساس برغبة في القيء، ولم تُردْ أن تسمع المزيد.

كان حلقها جاف ولُعابها مُر، وكارلا لن تتوقَّف حتى تجمع بعض المعلومات عن سارة؛ إذ عاودت سؤالها وبلطف:

- هل تناولتي أدوية في الفترة الأخيرة؟

أجابت سارة على هذا السؤال لوضوحه.

تنهَّدت في عمق وغطَّت نصف وجهها بيدها المُكبّلة في المحاليل، ثمَّ لفظت اسم دواء اكتئاب بصيغته العلمية دون أن تستهجي في نطقه كغير دارسين الطب والصيدلة.

لم تشأ سارة أن تُضيف لكارلا بشأن تناولها أقراص منشطة وحبوب منع الحمل. التفكير في الأمر يُزعجها، فأبقت نظرها موجّه للأرض لئلا تُكشف ضلالتها، أما كارلا فكانت تتحسب لأن تكون سارة تحمل أمراض معدية لم تُعالج منها، كان سؤالها نابع من جهلها بشأن نتيجة تحاليل الدم التي وقعت في يد طارق أولًا وتفحصّها، ليُدرك طبيعة الأدوية التي تتناولها بإستمرار، وبشكل يومي، لكنه كتم معرفته بهوية سارة حتى يعود من سفره.

تلك الأدوية تُشكل ضررًا على جسد سارة لأنها لا تستعين بطبيب، تعتمد على ما تبقى في رأسها من معلومات في الطب، وتغفل عن إجراء تحاليل الدم لتُراقب نسب تأثير الأدوية عليها، والكميات التي تتناولها، يا كثر ما تكون زائدة، فتشتد أعراض الاكتئاب.

سألتها كارلا:

- من كتب لكِ الأدوية؟

حافظت سارة على عبوسها: لا أذكر.

قول سارة سدّ فم كارلا عن طرح مزيد من الأسئلة، وبدت كارلا تشعر بالقلق من شخصية سارة، حتى إصطحبتها معها في سيارتها وهي تُفكر بأخذ بطاقتها منها لتُجرى تحقيق كامل عنها، وكان أول ما دخلت سارة منزل كريم قالت لها كارلا: سارة؛ أعطيني بطاقتك، سأُجرى إجراءات روتينية بسيطة.

وابتسمت كارلا ابتسامة صغيرة شاعرة بالريبة منها.

استدارت سارة بكامل جسدها، لا تذكُر أنها تحمل معها بطاقتها، أتحملها بالفعل؟ سألت نفسها، وبعد لحظات قالت لكارلا:

- يُمكنكِ أن تفتتح حقيبتي وتأخُذينها.

أدركت سارة أنها قد ارتكبت خطأ فادح بإعطاء كارلا الحق في فتح حقيبتها، فسترى بداخلها صور شخصية لفتيات ليل، وأدوية الاكتئاب، وشرائط الحبوب المنشطة، ستجد فيها مُطهرات، ومساحيق بوردة لتلطيف البشرة.

ابتلعت سارة ريقها الجاف وهي تُراقب كارلا تفتح حقيبتها، إنه خطأ فادح بلا شك، لكنها وسيلة لتجعلها تُدرك مدى طهارتها من القضايا والشُبهات.

لنقاء الأخرى أخذت تبحث عن بطاقتها، فما أن وجدتها بين أغراضها أخرجتها، ولم تلتفت لبقية المجموعة التي في حقيبتها.

أخرجتها بسلام، واحتفظت بها لوقت قصير، ثم قامت بإتْصال سريع لصديق شقيقها، وأملته رقم البطاقة القومي أمام سارة، ثم طلبت منه أن يسأل عن صاحبة البطاقة، وأخذت جانبًا لتُضيف له:

- وتُدعي سارة، أريدك أن تعرف سر الاسم المستعار لها.

أقفلت كارلا الخط، فنظرت سارة لها بعيني ضيقتين:

- هل هدأت نفسك؟

بيتُ كريم

سارة

عندما استيقظت سارة من ثباتها أدركت أنها لم تكُن بمفردها في الشقة؛ إذ لم تُغادر كارلا البيت، وكانت تتساءل عن سبب بقاؤها، لكن فضَّلت أن تحتفظ بالسؤال لنفسها. سارت بخطوات مترنحة في

الشقة، أبصرت كارلا جالسة في الصالة أمام الطاولة التي فيما سبق كانت تحمل أرقام فتيات ليل. لم تطق أن تحبس فضولها بداخلها، وسألتها عن سبب بياتها، و لا تنكر للحظة ما، أن بداخلها كانت تُفكر بالبحث في أرجاء الشقة لعلها تجد شيئًا تحتفظ به كنقود، أوْ ذهب، أو ساعات ثمينة، وكان وجود كارلا مربكًا وغير متوقع.

لاحقًا، أدركت أن تلك الشقة ستُكتب باسم طارق خطيبها، و كريم نزيل مؤقت يبحث عن شقة إيجار له بقرب من مقر عمله، وقريبًا ستُتوَج كارلا على العرش هنا في هذه الشقة الواسعة، ليست أكثر فساحة من شقة سارة، على الأقل.

لم تشعر بالراحة في هذا البيت، وللحظة ما، وعندما تلتفت بنظرها إلى كارلا شعرت أنها حبيسة هذه الجزيرة البعيدة عن حياتها الطبيعية، فأدركت أن هناك شيءٌ ما خطأ، وقد يفسر سبب شعورها بالتذبذب.

توالت الأيام بين سارة وكارلا في هذا المنزل دون أن تقوم سارة بأي عمل يحمل فوق كتفيها، كانت كارلا ملاك رحمة تتفهَّم كيف يكون المريض بعد الانتهاء من عملية جراحة خاصة والتعرض لحادث مما يؤثر نفسيًا بالسلب، فلم تحاول أن تتدخَّل في حياة سارة، وتسألها عن تفاصيل ذلك الحادث التي أخفتها في التقرير. الغريب أنَّها لم تذكر اسم أي أحد من المسببين لذلك الحادث، لم تعترف على أحد، أنكرت أن هناك أحدًا أذاها.

أدلت بالقول أنها تدحرجت على السُلم، فسألتها كارلا عن صوت الفتاة التي ابلغت بالإسْعاف، إذ أخبرتها سارة أنها صديقتها بسنت، وساد بينهم صمت لم يقطعه صوت.

في الآوان الأخيرة بعث صديق شقيق كارلا ليُبلغها أن سارة لا تحمل أيَّ شُبهات، حالتها الأجتماعية مُطلقة، ليست مُسجلة في سجلات الشرطة، فأعادت كارلا بطاقة سارة في يدها، وقد زال شعور القلق من قلبها كزوال شعرة من البيض، وبعد ذلك باتت سارة تشعر بالأمان في هذا البيت عندما استأمنتها كارلا على أغراضها أثناء غيابها في القصر العيني.

رغم عادات سارة على السرقة، واختلاس الأغراض في الظلام، لكن كانت كارلا تعتمد على أسلوب العلاج السلوكي بذكاءٍ معها؛ إذ أكَّدت لها مرات أنها تثق فيها، ولا تقلق من وجودها في المنزل بمفردها، حتى وإن كانت كارلا تخرج من المنزل خائفة من أن تسرقه سارة وترحل، والعكس يحدث لَما كانت تجلس في بيت كريم بمفردها لا تمس أغراضه بشر، وامنعت يداها عن وسوسة الشيطان، واكتفت

بالمال القليل الذي أخذته من كارلا نظير جلوسها تلك الأيام حتى أن يأتيّ كريم، ولغفلتها ببسنت وجابر ووالدتها وشعورها بالمرض.

لم تربط بين اسم كريم وكريم الصحفي، حتى تكهنت أنه مجرد تشابه أسماء، وليست صدفة لعينة.

اليوم الثلاثون من شهر نوفمبر، وفي آخره تفاجئت سارة من صحوتها بأصوات طرق مُزعجة. للوهلة الأولى ظنَّت أن هذا الصوت برأسها، استيقظت لترى أن هناك رجال مع كارلا في الصالة ينقلون أثاث العروس الجديد، ويستبدلونه بالقديم. رأت سارة رجلًا يُرافق كارلا في كل خطوة، و بدت ملابسه وهيئته نظيفة عن بقية العمال حتى ظنّت سارة أن وراءه قصَّة، فكان إسلام شقيق الأخوة الأكبر، رجل طويل القامة كالبرج، و عيناه سوداوين، وأطراف شعره بهتت للأبيض فدَّل على النضج.

ترك ذقنه تنمو لثلاث أيام، و أنفه طويل وخديّه ممتلئين فأضافا السماحة على وجه، وهو وبلا شك، كان رجلًا جذابًا أكثر مما توقَّعت سارة.

لم تتعرّف عليه إلا بعد اختتام ضجّة استبدال الأثاث، فخرجت من مخدعها ليتبادلون تحيَّة بينهم، فلم يُرحب بها، ولم يرفع يده ليُلقى تحية حتى إنَّها انتكست للخلف، وانطوت إلى جانب كارلا في حرج.

لماذا يبدو جلفًا جافًا؟ تساءلت سارة في ذهنها.

جلست سارة على الأريكة الجديدة المُغطاة بغطاء شفاف يحميها من الأتربة، فيما كان إسلام وكارلا يتحدثان عند باب الشقة، سألها: ما قصتها؟

هزَّت كارلا رأسها وقالت:لا شيء مثير، تمرُّ بواقع مرير.

قاطعها إسلام قائلًا: بدأتُ أقلق بعد آخر خادمة سرقتنا، يُجدر بكِ السؤال عليها.

أومأت كارلا، وهي تُزيح خصلة شعرها تطايرت أمام وجهها: لقد فعلت، لا غبار عليها، ولكن هناك مشكلة عاد والدي من المؤتمر الطبيّ، وعندما عرف بشأن والدتك أراد أن نُسافر لكم، أين سأترك سارة؟

مازال إسلام يجهل إطار حياة سارة، فسألها بغرابة:

- أليس لديها منزل؟

ترددت كارلا غير متأكدة.

- لـ... لا...

سألها من أين قد جاءت، فأعلمته بشأن الحادث ووالدتها، ثم حسَّم إسلام الأمر في غلظة:

– اصطحبيها معكِ للصعيد، ستجلس بيننا وتخدمنا. اجعليها تُجرب حياة الصعيد، لاحقًا سنتحدث بشأن ظروفها وحياتها لنعرف من هي.

صَعيد مصر والمسمي بالوجه القبلي، منطقة واسعة في مصر ممتدة من الجيزة حتى أسوان، وشتات المسافات يجعل هناك اختلاف في درجات التعليم، والثقافة وتمسكهم بالعادات والتقاليد.

بدأ تكوين الصعيد بعد أن وحَّده ملك مصر الفرعوني مينا قبل الميلاد سنة 3200، مما يفسر تواجد بعض الآثار في الصعيد السُفلي، وتمسكهم بعاداتهم وتاريخهم القديم، حيث ستُسافر سارة، إلى قنا، أشدَّ محافظات مصر العربية صرامة وحدَّة وتمسُكًا بالعادات.

2 من ديسمبر سنة 2002؛ مَحطَّة مصر؛ في المساء

سارة

كانت سارة قد تلقَّت خبر سفرها إلى الصعيد مساء آخر ساعات من شهر نوفمبر، وكانت أن جادلت كارلا حيال هذا الأمر حتى أظهرت عجرفتها، ورغبتها بالمكوث في المنزل، فأتصلت كارلا بإسْلام ليتصرَّف مع سارة أثناء غيابها؛ إذ راحت لمنزلها، وجالست مع والدها تُحضر حقائب السفر.

في حين كان إسلام يتناقش مع سارة ليتفاهم مخاوفها من السفر، ورفضها التام له، عبَّرت بإسباب غير مقنعة كتعبها من بعد العملية، وصعوبة التأقلُم في بيت غير منزلها! إذ راح إسلام يتصل بكارلا أمام سارة، وضغط على زر السمَّاعة الخارجيَّة، فأجابت كارلا الهاتف وارتعدت سارة لسماع صوتها، ستُنكر تعبها وادعاءاتها الباطلة.

سأل إسلام:

– كارلا، أخبريني إذا كانت سارة لن تستطيع المداومة على العمل بسبب العملية؟

نفيت كارلا هذا الهراء.

– سارة يُمكنها رفع أريكة، أخبرها بهذا.

أدركت سارة أن هذا ما كتبه القدر عليها بعد أن راحت في المساء إلى بيت والدتها، قرعت الباب لمرَّات، كانت آخر نجدتها من هذا العالم وتلك الحياة التي بلا أمل ولا معنى.

قرعت الباب منتظرة أن يُفجَّر من وراءه مفاجأة بحنين والدتها إليها، إنها المرة الأولى التي تشعر أنها طفلة بحاجة إلى والدتها. دبُّ القلق في سائر جسدها، وهي تدور يمين ويسار، وتُعيد الطرق بيد

مرتعشة لعلّ من استجابة، ولكن تلك اللينة لا تُدرك أن وراء هذا الباب هناك جُثةٌ ميّتة لا أحد يعلم عنها شيء، ولا من سائلٍ، ولا من قرين، فغادرت وقلبها المظلم تغمره موجة عاتية من التشاؤم.

هوت من حافة إلى هاوية أخرى آملت أن تشد بحبل النجاة منها، جرّت أذيال اليأس، وانقلبت راجعةً إلى ملهى الهرم، وكانوا يشيعون النظر إليها كالدخيلة. تردَّدت على من تعرفهم، ولم تحصُل على معاونات كما توقَّعت، فكانت أن انتهى الأمر بها في دورة مياه النساء المكتظة بأجساد النسوات المكتنزات منهم والنحيلات، تفرّست في الأفق، وتنهدت تنهيدة آلمت قلبها التعس.

ارتمت سارة على الأرض في كرب وإعْياء، سندت ظهرها للوراء، لفت رأسها لتُراقب النساء من حولها يرقصون على الغناء، بعضهن يتحدث بالغيبة، أغلبهم في الواقع.

امتعضت سارة، ارتاحت أخيرًا لانتهائها من سماع تلك الثرثرة، والنميمة على الزبائن، و كيف تبدو أجسادهم، و كيف تكون أزواجهم، ما هي جنسيتهم، وكيف لا يذكرون آخر شجار حدث مع فتاةٍ ما! الأمر بدا مزعجًا أكثر مما تتصوَّر، فغادرت، استرسلت في الفكر، واستعرضت المخاطر، مقررة مرافقة كارلا.

كانت ابنة الليل جالسة في القطار تستند رأسها على الزجاج، جانبها كارلا، وعلى الناحية الأخرى والد كارلا الذي شكرت الله أنَّه لم يتعرَّف عليها.

دمعت عينيها، وسمحت لدمعة أن تسيل على خدَّها، وهي لا تذكر كمّ المرات التي بكيت فيها، و لطالما كانت تتحسَّس من الظروف حولها، وغاوتها الحياة بالعيشة المتذبذبة والتنقل من البيت للآخر، ومن الرجل للآخر فلم تعُد تشعر لجسدها قيمة، صار أرخص من التراب، ومتداول بين الزبائن كالخبز، ألا تعلم أن جسدها فاني لطالما أخذت بالحيف من أغدق عليها بالحُسن؟!

نظرت كارلا لها فرأتها تبكي، ظنت أنها حزينة من تصرُّف إسلام معها، طريقته حادة في الحديث.

صوته دائمًا ما يكون عالى، كأنما يريد جذب جميع الأطراف إليه، عينيه لا تُنبأن بخير، بل تُحذران الجميع منه.

أخبرت كارلا لسارة عن إسلام، كان مهندس ديكور، ترك مهنته وافتتح معرض للأثاث متجهًا للتجارة، و عندما علم بشأن زواج كارلا، وطارق راح يعرض عليهم العون، والمساعدة في كونه يستورد الأثاث من الخارج، ويمكنه تصميم الشقة بلمساتٍ فنية.

تنهَّدت كارلا، وقد أشاحت بوجهها بعيدًا عن سارة، لطالما لا تُجيد التصرف في تلك الحالات، والتعبير عن مشاعرها يُشكل لها متاعب. أما سارة، فمالت للأمام حتى ثُنيّ ظهرها، و انفجرت في البكاء، وكتمت صوتها داخل نفسها المُتكبِّدة. كانت تُفكر كارلا بشأن ملابس سارة؛ إذ لاحظت من خلال المبيت معها أنها لا تحتاج للملابس، لقد سمحت سارة مرَّات لكارلا أن تدخل دورة المياه إن احتاجت منها شيء رُغم وجودها فيها.

شاهدت كارلا كيف تُبدل سارة ثيابها كاملة في الصالة دون حياء، لولا كون كارلا امرأة مثلها لكانت ارتابت من تصرفات سارة. الوضع في البداية بدا مُريبًا، وغير مُريح لها حتى أيْقنت مع تكرار ذلك أنها طبيعة سارة، في الفترة الأخيرة كانت تتبادل سارة ملابسها البالية بملابس كارلا، ثم وفَّرت لها كارلا قطع ملابس قديمة من الخاصة بها ترتديها في المنزل، شعرت سارة بالضيق لكونها طويلة وذات أكمام، فقصَّت الأكمام وجلست في راحة.

حملت كارلا همَّ ذلك الشأن، ففي قنا لن تستطيع أن تسير سارة بدون حجاب وعباءة طويلة، لن يسمحوا لها.

استغرقت الرحلة ثمانية ساعات في القطار، وكلا الطرفين من كارلا وسارة لا يعلمان بما ينتظرهما في محافظة قنا. لم يخطُر في بال كارلا أن خطيبها قد صادف سارة من قبل، لم تدرك أن مشاعره مالت لسارة عاطفيًا من أول لقاء بينهم، لم تدرى بوالدة طارق التي عبَّرت عن رغبتها في فسخ خطوبته بكارلا. دقَّت الساعة التاسعة مساءًا في محافظة قنا، وقد وصلا أخيرًا، أما كريم فهو هناك ينتظر.

في المساء

وصلت سارة إلى منزل العائلة في الصعيد، واجهت بابًا حديدًا ضخمًا أمام البيت. كان أن طرقت كارلا بالقفل في الباب حتى يسمعها أحدًا من الداخل، وبعد ثواني شاهدوا طفلًا صغيرًا يهرع لهم، فكان خالد. فُتح الباب وساروا على أرضٍ طينيةٍ غير مستوية، رأت سارة على جانبيها حديقة مكللة من المصابيح المضاءة، تخطوا تلك الأرض ليقفوا أمام باب آخر حديدي قصير يُمكن لأي شخص العبور من فوقه، فظنت سارة أنه مصمم لمنع الحيوانات. بدا لها أن هذه العائلة مُحافظة ولها أعداء ومخاوف كثيرة، وستتعب كثيرًا في الداخل.

لَما رفعت رأسها أبصرت أن البيت مكوَّنٌ من ثلاث طوابق، كان واسعًا يسع للعشرات، ومن الناحية الأخرى منه تمتد حديقة واسعة فيها جميع الخيرات وما تشتهى البطون، فكانت فكرة التنظيف والخدمة في هذا البيت في حد ذاتها متعبة.

لم يزول الصداع من رأس سارة، عندما نزلت من القطار شعرت بالأرض تدور من تحتها، وخرَّت أرضًا متساقطة، لقد شاهدت كارلا أعراض غير مألوفة لحالات الإغماء، فتصلَّبت ساقيّ سارة، وارتجفت يداها ورجلاها كأنَّ أحدًا يخنُقها، وتشكّلت رغوية بيضاء على طرف فمها، وهمد جسدها وأصيبت بالضياع، وتمتمت قول غير مفهوم، فتلك إحدى دلالات على إصابة سارة بمرض جسدي من الكحوليَّات.

هبَّت كارلا لمُساعدتها؛ إذ تركت الحقائب مع والدتها وهمت لمساندة سارة إلى أقرب مقعد لا تشعر بسير الناس حولها، فقط ما فكرت فيه أن تُعاونها، فتركتها تستند على كرسي بعد أن طلبت من أحدهم إفراغ مقعده، وأحضرت لها مُعطر قويّ يُنبها بالحياة الخارجية، وما كانت ثواني حتى استفاقت سارة، بلطف سألتها كارلا: أنتِ بخير؟

ندمت كارلا حيال حُكمها على حالة سارة، وتبين لها أنها لن تصلح للعمل في المنزل، لكن الآوان متأخر لذلك.

عبست سارة، وهي تلتقط أنفاسها من الجزء الجنوبي من البلد، اكتفيت بهزِّ رأسها لعلها تكُن دلالة على وعيها، وطمأنتها كارلا أنَّها ستأخذها للمنزل تسترح؛ لكن لفترة ليست بطويلة، ما إن دخلا حتى كانت تُناظر سارة الصالة من حولها المنقسة لنصفين. احتوى النصف الأمامي للمدخل على أربع مقاعد، كل مقعد في جانب، وكل مقعد كان أشبه بمقعد ملكيّ، رغم ذلك فالجلوس عليه أعسر من القعود على الشوك، فالنصف الثاني بدا أضيق وعلى جانبيه أريكتين ملمسهما أقرب إلى الخشب في صلابته فيُثنيان العظام! وما بينهما سجاد، وما بعدهما خمس مخارج، أولهم كان في الوجهة أمامها، بدا لها كشرفة واسعة تجمعت فيها مقاعد خشبية صلبة عليها وسادات لا تعبث الراحة عند الجلوس، وكانت الشرفة على يمينها ويسارها درج يفتح على الحديقة الواسعة، كانت بقية المخارج على جانبي المقاعد الموجودة بالصالة، مخرجين على الجانب الأيمن، واحد منهم يوصَّل لدورة مياه ولمطبخ أوسع من صالة بيت سارة، مخرج أخر يصعد للطوابق الثانية، ومخرجين متبقيان في الطابق الأول على الجانب الأيسر يفتحان على غرف، كل غرفة ضمَّت فراش وخزانة دولاب في بيت افتقر للأجهزة الالكترونية والمكيّفات.

دخلت سارة إحدى الغرف عن دون قصد رأت داخلها سيّدة عجوز، وكريم فيها، بسرعة أوصدت الباب خلفها معتذرة عن خطأها، لكن كارلا، دلَّتها على غرفة خاصة ستكون لها، وكانت بالطابق الأول. دفعت كارلا لها باب الغرفة، فلم تُبصر سارة أحدًا فيها، ودخلت فيها جاذبة خلفها حقيبة سفرها التي احتوت على ملابس كارلا القديمة، وهنا ستعيش سارة، في بيئة غير التي تربَّت وعاشت فيها.

بعد ساعات

كانت كارلا تعلم أنها ستبيت يوم واحد ثم ترحل في الغد، لذلك لم تكن بحاجة إلى كثير من الملابس؛ إذ كانت حقيبتها شبه فارغة، وهو ما جعلها توافق على إحضار كُتب الطب خاصتها لطارق للفرقة السادسة والخامسة، كانت كُتب ثقيلة وسرعان ما تخلصت منها فأخذها طارق إلى رفّه في غرفته بالطابق الثاني.

تفقدت كارلا الغرفة الأولى بالطابق الأول حيث كان كريم ووالدته، رأت كيف كانت حماتها تعبة، وأطراف جسدها مشلولة عاجزة عن تحريكها.

سألت كارلا عن الطبيب المعالج، طبيب العلاج الطبيعي الذي اشتكي كريم منه لأن الحالة لا تتقدم، ولا يُمارس مهنته بضمير، يسرق الأموال ويعود في اليوم الآخر يتداعي العلاج وهو يقوم بتدليك لا أكثر. آخر ما وصلوا إليه أن يقف طارق وكارلا ووالده فوق رأسه أثناء العمل حتى لا يغش. نظرت كارلا إلى سلة الأدوية الموضوعة جانب الفراش على طاولة خشبية، إنها تعرف ماذا يفعل كل دواء من ذلك، وتابعت تاريخ الحالة من تقرير طارق عنها. بإمكانها أن تعالجها، أخبرت طارق بذلك، سيُساعدها والدها في ذلك ويتخطون الأخطاء التي ارتكبها الطبيب، وقبل كل ذلك، قاطع كريم مناقشتهم حول فكرة العلاج متشككًا في قدراتهم إذ أكد لهم أن الطبيب سيأتي غدًا، وبعدها يُمكنهم أن يحددوا ما قد يفعلونه.

المشكلة الوحيدة أمامهم أن كارلا على وشك الرحيل في خلال ساعات. غطَّت السيدة العجوز المريضة في النوم مبكرًا، واجتمع كل من طارق، وكارلا ووالدها مع كريم ونور ووالده في الشرفة، اكتفوا الستّة باضاءة مصباح السقف الأصفر الذي تجمَّع حوله الناموس، وكريم يتحرك كل قليل يُحضر لهم "البابور" وسط الجلسة ليُحضر أكواب من الشاي أحمر تروق لهم الحديث حول زواج طارق وكارلا، فكان كل شيء قارب على الجهاز، وبينما كانت كارلا متحمّسة لتلك الخطوة سعيدة أن يكون حلالها

تحت سقف واحد، كان طارق لا يزال باله مشغول برائحة أنفاس تلك الحسناء الأخرى، فكان يُفكر أن عاد إلى الجيزة أن يُجالسها ليعرف آخر أخبار عنها، و يتعمق داخل شخصيتها متناسيًا كارلا، وكان بين حيرة الزواج والعزوبية كأي رجل هش، فما كان يميل للتعبير عن مشاعره حتى يتأكد منها.

استلم نور كوب الشاي من يد كريم، وباله شارد عن كلمات الحديث المتطارية في الأرجاء، كان يتدبر بشأن الرجل الذي تركه في الفندق، بالرغم أنه لم يقصدْ في نيّته القتل، إلا أن ما حدث خالف توقعاته.

كان أن قرع باب غرفة الفندق ففتح له الرجل المشتري، ذلك الرجل المشتري له قصة قديمة مرَّ بها مع تُجار المخدرات، في صغره كان واحد من البنين العاملين مع تاجر مخدرات صغير، والذي سرعان ما أصبحت لديه نفوذ وسلطته، وكانت تحت يديه شبكة من عشرين صبي حتى كان له صيتُه في الحي، وأتخذ قرار بأن يوسِّع نشاطه إلى مساحيق البودرة، فلما وقع رئيسهم في لجنة مرور من بعد أول عملية أمسكوا به بتهمة الاحتفاظ بكيسين من مسحوق البودرة، إذ كان في الواقع نوع فاخر من الدقيق المستورد المختلف رائحة، وطعمًا عن الدقيق المصريّ المغشوش، لذلك لم يستطع الضُباط تحديد كونه دقيق، واعترف الرجل على نفسه، وفي خلال فترة تواجده بالسجن أُصدر قرار لجميع الضُباط في شارع الهرم بالبحث عن صبيان رئيسهم، فكان نور واحدًا منهم، وبعد أن فشلت الشرطة في البحث عنهم، عاد نور بكل تصميم، إذ دخل بيته ذات يوم بعد أن اتفق مع قائده برسم خطة كاملة لمعرفة أماكن شبكة المخدرات، والتي بها راح يُشوِّه حاجبه بجُرح، ويقتلع شعره إلى أن أصبح أصلع، ثم دخل السجن مع حجرة رئيس شبكة المخدرات.

حاول أن يستدرج منه أيِّ شيء، و حاول معه لمدة ستة أشهر، لم يُعلمه رئيس الشبكة بشيء سوى أنَّه كانت له بعض العلاقات النسائية، ومنهم بسنت التي راح يبحث عنها.

خرج نور من السجن في هيئة مواطن عاديّ باحثًا في شارع الهرم عن تلك الفتاة اسم شهرتها بسنت، عندما تلاقيا طلب منها المجيء لشقَّته، وبعد ذلك، لم يحصل منها على شيء، وتفاجئت الشرطة بكون مساحيق البودرة دقيق مستورد، فأخرجوا رئيس الشبكة من السجن بعد براءته. تصاعدت أقوال عن نور المشهور في شارع الهرم باسم ديفيد عن دخوله السجن بتهمة تعرضه مع بسنت في قضية آداب، فابتعدوا عنه وكذلك ابتعد نور عن هذا العالم، وكانت حقيقة قضاءه في السجن لا يعلمها أحد سوى أخوته بعد ضغط شديد.

بعد أن قُبض على جميع الشبكة، وكان رجل منهم في الفندق مع سارة، بعد أن اقتحم عليه الغرفة كان تبقي رجل واحد. أراد استدعاء أحد يعرف طريق بسنت ليأتي ببقية الشبكة، وكان بعض القبض عليهم جميعًا أعلم والده بحقيقة المهمة وانتهى الأمر.

أصبح يواجه مشكلة مع ياسمين التي لا تدرك شيء عن عمله وسبب دخوله السجن، حاول الاتصال بها فلا تُجيب. إنها وبالأحرى ترى اتصالته، تتعمّد تجاهله حتى يتوقف، لكنه لا يكُف، لن يكُف، وتلك الحسناء تُفكر بالزواج من منتج السينما الذي تعرَّفت عليه مؤخرًا فتضمن حصولها على الجنسية المصرية، والإقامة في مصر، ولن تعود للبنان، لم تعُدْ تحب كونها لبنانيّة.

تفقَّد كريم أيادي الجالسين حتى تأكَّد أن جميعهم حصلوا على حصتهم من كوب الشاي، فأصبح يشغل باله بأي شيء حوله من عمل صغير أو كبير بعد أن تلقى اتصال من زميلته بالعمل تُخبره أن مدير الجريدة غاضب بشدة عن عمله، قالت له أن زميله الذي أعطاه أرقام فتيات الليل قام بالحوار الصحفي بدلًا منه، أضافت له أن الكاميرات صوَّرت كريم مع سارة في الرواق يدخلون دورة المياه، لم يُحاول إثْبات عكس ذلك لأن المدير مقتنع بأن طارق كان حاضرًا الاجتماع بدلًا منه.

واجه كريم مشكلة مع مدير عمله انتهت بأن طُرد من الجريدة، وأصبح عاطلًا، هو الآن كذلك، لكن حتى هذه اللحظة لا أحد يعرف، لا يريد أن يعرف أحد. سيسخر نور منه لأنه لم يستطع الوصول إلى فتيات الليل كما أنّ نور يرفض استغلال كريم للبشر، وإمساك ذلّة عليهم. سينهره طارق إن تحدّث بهذا الشأن لِما فعلته سارة معه بالجريدة، لن يستطيع طلب عون من إسلام لأنه يرفض فكرة وجود فتيات ليل على الكوكب، فكان أول الناس من عارضه بهذا الشأن.

نهض كريم من الأرض، وتربَّض على أريكة خشبية اتسعت له ولطارق وكارلا. هدأت أفكاره، وتنفس في راحة مقررًا ألا يُقيم حوار صحفي مع فتيات الليل، أبدًا لن يفعل، كانت فكرة سيئة.

ساد صمت ثقيل في الجلسة بعد أن انتهى نقاش والد كارلا مع والد طارق بتحديد ميعاد كتب الكتاب، وعندما ارتشف الجميع أكواب الشاي راح كريم يجمع الأكواب من أيديهم ليضعهم على صينية ويتحرك بهم إلى المطبخ، فقاطعه والده متسائلًا: لِمَ تتحرك؟ أين الخادمة التي جئت بها من مصر؟

استقام كريم في وقفته، وألتفت لكارلا:

- ألازالت نائمة؟

رفعت كارلا رأسها تحدّق إليه وكان النسخة المطابقة من طارق.

- هل أوقظها؟

- لتصحو وتغسل الأكواب.

حين نهضت كارلا من المجلس العائلى خطت خطوات واسعة حتى دخلت الصالة، ف\و انقطعت الكهرباء في المنزل، تعثرت خطواتها لكنها تماسكت بأقرب شيء لها وثبتت يدها على الحائط، أما من الجانب الاخر من الصالة فكانت سارة نائمة لا تشعر باختلاف، بينما كان البقية في الشرفة لا يرون شيء، فطالب طارق من كارلا العودة للجلوس معهم، لكن اعترض كريم، وراح المطبخ بخطوات بطيئة،و بصعوبة تمكن من فتح الأدراج عاثرًا على شمع ليُشعله.

كانت الهواتف غير مجدية وقتها لتُنير لضعف قدرتها، وما إن أشعل كريم الشمعة أشعل ورائها واحدة أخرى، وحملهما بين أطراف أصابعه ليخرج بهما، يري كارلا متسمرة في مكانها كأنها عالقة، فناولها واحدة، ودخل بالأخرى للشرفة. دخلت كارلا غرفة سارة حاملة في يديها الشمعة فوجدتها غارقة في ثباتها، ثبَّتتها على طاولة جانب السرير، وبهدوء ربَّتت على كتف سارة، ولكن سارة لم تكن على استعداد لتقديم أي خدمة لأحد إن استيقظت، أدْعت التعب لتتابع نومها، فيما كانت كارلا تشعر بالكسل للخروج إلى الشرفة، و ظلت بجانبها إلى أن استيقظت وجلست على السرير.

فركت سارة في عينيها الناعستين، ثم حدَّقت لكارلا بصعوبة، وتحدثت بصوت خافت:

- كم الساعة؟!

أجابت كارلا بعد أن خمَّنت الوقت:

- الواحدة بعد منتصف الليل.

هزّت سارة رأسها من الإحباط، أرادت أن تخبر كارلا أنها لم تنمْ كفاية، لكن كارلا قطعت حبل أفكارها:

- تعالي واجلسي معنا بالخارج.

بالرغم ما كانت كارلا هادئة في نبرتها، إلا أن سارة شعرت بالتوتر يملأُها من أعلاها لأسفلها، وكانت تنهض في تردد، راقبت خطواتها الضيقة وهي تكاد تتخطّى الغرفة فتكون في الصالة، لكنها سمعت أصوات طارق وكريم تتردَّد من الشرفة، فجمَّدت مكانها، وقد بدا لها الصوت مألوفًا.

جاهدت سارة في رسم ابتسامة على ثغرها، وقالت:

- هناك رجال في الشرفة، ربَّما عليّ تبديل ملابسي التي نمتُ بها.

تأملتها كارلا ولم تحسُب لذلك، ثم قالت:

– حسنًا، سأنتظرك في الشرفة.

حتى هذه اللحظة بدا كل شيء هادئًا إلا نبث سارة المضطرب عندما أبصرت وجه كريم، وطارق، ونور في مكان واحد، وراجعت بذاكرتها عن الصدف التي جمعتها بها حتى ترتب كل شيء في ذهنها، وما كانت سوى أن دخلت الغرفة، وفتحت حقيبة ملابس كارلا، وجدت ملابس للمنزل، إنها كثيرة، تكفي لإسبوع دون غسيل، لا يوجد من بينهم سوى عباءة سوداء للخروج، جميعهم للمنزل، بالطبع كانت ملابس طويلة وواسعة، لا تُناسبها. ارتدت العباءة السوداء، وغطَّت شعرها ووجهها بلفة من طرحة سوداء سقطت من العباءة السوداء، وهي تلتقطها من الحقيبة. غطَّت رأسها، ووجهها وأطلقت لساقيها الريح خارج البيت، فتعثرت بالعباءة وارتطم جسدها في الباب الحديدي الصغير مُحدثة صوت وصل صداه إلى الشرفة.

رفع كريم رأسه قليلًا وحدق للأمام ليري ظلًا يتحرك. ظن في البداية أنه ظلًا حتى أدرك أنه جسمًا لَما خرج من الباب الكبير الخارجي، ألتف لكارلا:

– هل الفتاة التي جئتِ بها خرجت؟

انتفض والد كريم من مقعده: سمعتُ صوتًا عند الباب الخارجي، هل هناك لصٌ؟

شدَّ كريم يد كارلا وراءه وهو يقول:

– إنها الخادمة، لقد هربت، تعالي معي لأنكِ تعرفين وجهها.

في الخارج، أخذت سارة تبحث عن محاولة للفرار من هذا المنزل، و لا تعلم سبب تجمُّع نور مع كريم وطارق، لا تجد بينهم علاقة واضحة. لفت رأسها يمين ويسار في الشوارع المظلمة الغير مستوية عن سيارة أجرة، و لكن أين تجدها، وكم معها من المال لتصل إلى محطة قطار.

لا أحد في الشارع سواها، فكَّرت أن ترتد على البيوت كالمتشردة ولكن هنا في قنا لن يستجيب لها أحد، قد يؤذونها ولن يكونوا رُحماء بها، أقلَّة في ملهى الهرم كانت تستطيع الجلوس دون أن يتحدث معها أحد.

– ها هي!

أشارت كارلا من بَعيد، فلحق كريم وكارلا بسارة في خطوات مسرعة. دخلا خلفها في الشوارع الجانبيّة. كانت خطواتها سريعة، لكن ليس أسرع من كريم الذي وقعت تحت يده، وأمسكها من ذراعها فجذبها إليه ولفَّها ناحيته، فتلاقت أعينهما:

- سارة!

نفضت سارة ذراعها بقوَّة وتراجعت للخلف، كانت ترى كارلا آتية خلف كريم، ليست ببعيدة لكنها لم تسمع لاسم سارة. ضغط كريم على ذراعها، وهو يشدها إلى طريق المنزل: تعالي! سنعرف قصَّتك.

أخذها كريم إلى المنزل، وكانت كارلا تتبعهم، لم تفهم سبب هروبها، حاولت إعطاء أسباب مقنعة لكن بدا لها أن هناك قصة طويلة وراء سارة، الأمر ليس كرهها للصعيد وفقط.

عندما وصلا المنزل كانت الكهرباء أضاءت البيت، وساءت الأمور، أصبحت سارة تقف في دائرة محاطة بأهل البيت، وما بين توتر طارق عندما رآها، وغضب كريم من وجودها وما ألحقت به في عمله، وما بين استغراب كارلا ونور للأمر كله، كان والد كريم يري أمرًا غير ذلك؛ إذ قال:

- لماذا هربتي يا بنت؟ هل تُخفين شيء؟ هل أنتِ بنت؟

اتسعت عيني كارلا في اندهاش، فيما كانت سارة واقفة تعتصر عرقًا وجفَّ حلقها عن الحديث. ردّد والد كريم:

- تكلَّمي! هل تهربين من أحد؟ أمْ تخفين فضيحة؟

ساد صمت رحيم.

نظر والد كريم إلى كارلا قائلًا:

- كارلا، خذيها للداخل، واعرفي حقيقتها.

ارتعشت سارة.

ترددت كارلا.

- أيُّ حقيقة يا عمّي؟

- أيُّ حقيقة؟ بحق الله! هذه المرأة هاربة من أحد ما ولا تتحدَّث.

بين ذلك وبين حديث والد كريم، شاهد الجميع كفًّا قويًا ينزل على خد سارة فكاد أن يقطع وجنتيها. نزل مرَّات يصفعها، فكانت يدي كريم قوية دفعت بسارة، حرقت وجهها وجمَّعت الدم في عروق خديها، أبكى عينيها وحرق قلبها، وصاح فيها: انطقي! انطقي!

ارتمت سارة في حُضن كارلا التي أخذتها بعيدًا عنهم، وتراجعت بها للخلف، نهرت كريم:

– حرام عليك! إنَّها إنْسانة.

زفر كريم غيظًا، واستدار بجسده من الغضب، لو وقعت عينيه على سارة يعلم أنه سيضربها ضربات متهورة حتى تخرج من البيت. أخذت كارلا تدخل مع سارة لغرفتها، ووراء الباب من الخارج يقف خمس رجال ينتظرون رؤية قطعة قُماش تُثبت طهارة العاهرة.

جلست سارة على الفراش تبكي، لم تعتد البكاء أمام أحد لكن هذه المرة بكت بكل حرقة حتى تحولت عينيها لمياه، وما كانت كارلا سوى أن نسيت سبب هربها ومحاولتها التي فشلت وترتب عليها نتيجة سيئة، فجلست جانبها وضمّت سارة إليها، تلك الفتاة جُرحها بألف جرح فكانت أكثر الخلق حاجة للعناق، عناق طويل لآخر العُمر.

حاولت كارلا إظهار مشاعرها حتى ظنَّت أنها باردة وعقلانية لحد شديد. قالت كارلا:

– أعلمُ أنَّكِ مُطلّقة، هذا يجعل تغير في الجسد، لكن إن أخبرتهم بذلك لن يُصدِّقوا.

لم تهدأ دموع سارة، وتنفست نفس عميق زفرته مع كلماتها:

– ماذا عليّ أن أفعل؟!

همست كارلا وهي تجذب بمعصم سارة:

– سيكون جُرحًا بسيطًا، وينتهى كُل شيء.

قالت الشقراء في صوت أوهنه الأسي:

– أرجوكِ كارلا، لا.. لا تفعلي هذا.

كانت تنزعج كارلا كلما فكرت بهذا الشأن، وأن يُصمم عمَّها على فعل هذا بها عند زواجها، فأرجعت كارلا رأسها للخلف ونظرت في عيني سارة التي بدتا كحقيبتين منتفختين، واستحال ضيقها إلى شفقة.

– ليس لدينا حلًا آخر.

بحثت كارلا عن أداة قاطع في الغرفة فلم تعثر على واحدة حتى يئست، واستحفل جنونها، ونظرت إلى سارة مترددة، لن تستطيع الخروج لإحضار واحدة، فهم ينتظرونها بالخارج حاملة بين يديها قماشة مُلطخة بشرفها.

كانت تعلم سارة أن ذلك سيحدث،ولكن لن تفرج عن ساقيها بأي شكل وأمام طبيبة! لن تكون كبسنت كشفت عن ذراعها، وغرست أسنانها فيه بإنتقام كما تنهش الضباع أنيابها في اللحم النيء، وقد اشتهت العذاب الجسدي فخفف من بأس الألم النفسي، كأنّ حُكم الدنائة عليها بمثابة السيف السليط على رقبتها.

رفعت سارة رأسها للوراء حتى كاد ينطوي عُنقُها، تنهَّدت بعمق وقد سال على شفتيها خيط دماء خطا سيره على خدَّها الملتهب بأنين، استطاعت الشعور بقلبها يدق في حلقها، ومرارة الطعم في فمها، وذراعها الجريح، وصرخت من القهر.

اِنْصبَ كريم نحو الباب، ووقف أمامه، لقد أوشكت كارلا على ما ظنَّ، سيكشف عورة تلك المرأة وترحل ويغفل أهل البيت عنها. لا يريد بقاؤها، إن شعرت بالتذبذب في البيت ستعترف على بأي شيء، ستدَّعي الأثم فتوَّرطه. يدرك مدى خطورة تواجدها، لكن لابد أن يكون صلبًا أمامها وألَّا يُظهر اللين.

ثنيّت كارلا قطعة قُماش نظيفة حول ذراع سارة وهي تُعاتبها على فعلتها.

– ما كان عليكِ فعل ذلك.

قالتها في شيء من التردد، فلا يوجد طريقة أخرى في رأيها. تابعت كأم تنصح ابنتها:

– عندما تخرُجين طهرى فمك وأسنانك من أثر الدم، لا تتحدثي أحد، ولا تكررين ذلك!

شعرت سارة بشعور غريب يُدفء جسدها، تلك النصائح والأوامر لم تعتدْ على سماعها، دائمًا ما يأمورنها بأن تكون بين أهل الشر والخناسين الخبيثين، هذه المرة كادت أن تصدق سارة أن هناك أحدًا يهتمُ بها، فابتلعت قول كارلا عن سعادة. أومأت كالطفلة: حسنًا.

فكَّت كارلا قطعة القماش من على ذراع سارة وغطَّته بكُم العباءة، ثم مسحت بطرفها ثغرها حتى زال أثر الدماء عن سارة. تبادلا النظر دون أن ينطق أحدهما بشيء، على جانب ما كانت سارة سعيدة بذلك الاهتمام، فمن الناحية الأخرى لم تعرف سارة الوجه الاجتماعي الحقيقي لكارلا. إنها حنونة مع

المرضي فقط، والآن بدت سارة في رأيها تصلُح لفعل أي شيء وتبدأ في خدمة أهل البيت، لن تتحمل مزيد من دلالتها وأعراض مرضها.

همست كارلا وهي تكور قطعة القماش بين يديها.

– سأخرجُ لهم، لا تتحرَّكين إلا بإذني.

– حسنًا. . .

قالتها سارة، وتابعت بعينيها خطوات كارلا المتجهة لباب الغرفة، وأرادت مزيد من تلقى الأوامر، تلك الأوامر التي تُشعرها بوجود أحد ما يهتم لأمرها، بأحد ما يهتم للفتاة المختبئة وراء سارة فتاة الليل.

وبعد أن أظهرت كارلا شرف الأنثى، قرّروا أن تبقى شابة الليل في بيتهم لأدم الدهر!

3 من ديسمبر سنة 2002؛ محافظة قنا

سارة

يومٌ آخر في الصعيد، كان يومًا تعيسًا عن سابقه، لم تُرتب سارة لأحداثه البتة، كانت الأحداث تتوالى كسلسلة متلاحقة؛ لا تتمكن من الالتفات لأي حدث بشكل كامل حتى تتفاجئ بالآخر.

في الساعات الأولى؛ من اليوم الثالث من ديسمبر بعدما خرجت كارلا بقطعة القماشة، ركب الجنون كريم ونور عمَّا رأوه، أراد كريم الصراخ في كارلا لأنها كاذبة، بالتأكيد كاذبة! بقيّ نور صامتًا لا يهمس بشفا، استمتع بمشاهدة ما يجرى من بعيد، وما أن انتهت مسرحية كريم المتبذلة صعد لغرفته في الطابق الثالث واستلقى على سريره.

كان لطارق رد فعل هادئ، فأخفى توتُّره بقدر الإمكان، حاول التحكم في نظرات عينيه الدائرة، وحركات يديه، وابتساماتها المظللة، فكونه طبيب يجعله يُدرك الفرق بين شكل بُقع الدم الناتجة من الغشاء أو جُرح؛ إذْ أن دماء الغشاء تطبع في بقاع القماش، وأماكن كُثري في زوايا القماش رجوعًا لطريقة وضعها داخل الجسم، بينما بُقع الجرح تكون مرتكزة في نقطة واحدة بالقماش، وهذا ما غفلت عنه كارلا. والد كارلا لم يهتم لذلك، فقد كان يمقت الفكرة من بدايتها ولم يحبذ رؤية ذلك.

بينما كان والد كريم يحمل تلك القطعة بين يديه فرحًا كأنَّها لزوجة ابنه، وحينها امتعضت كارلا من ردَّه فعله ودخلت تجاور سارة بعيدًا عن الحفلة التي بدأت في الخارج عن عودة السلام للبيت.

أصبح وجود سارة آمن، وبشكل ما سيكون دائم في هذا البيت، وأصبح وجودها معضلة لدي القاطنين فيه. بات وجود فتاة ليل في بيت به رجل يهوى النساء، ويضعف أمامهم كطارق يُعزز رغبته في

المرام إليها، فقد اعتقد أنها لن تُعارضه، وسترغب في عرض جسدها لتُرضيه. كان وجود فتاة ليل في بيت صحفي أمر مُثير جعله يتراجع عن فكرة إلغاء الحوار الصحفي، ويبدأ يُراقب تصرُّفات سارة، وينصت إلى كل كلمة تقوها علَّه يستنتج منها شيء.

أصبح وجود فتاة ليل لها معرفة ببسنت في بيت يتواجد فيه ضابط مشكلة، و ظنَّ أن وجودها مدبرٌ له؛ بلا شك، وأنَّها في لحظة ما ستؤذيه لأنها تعتقد أنها لا تزال تحت المراقبة، فراحت تبحث عنه. في وقت ما كانت سارة خائفة، وتريد الهرب من المنزل، كانت لا تدرى بشعور الرجفة والخوف داخل كل رجل منها. كانت تتحرك بينهم دون أن تتبادل الحديث مع طرف غير كارلا، بدأ يومها الساعة الثالثة بعد منتصف الليل عندما خرجت من ردهتها لترى كارلا وطارق يجلسان على الأرض، أمامهم طاولة خشبية دائرية بأرجل قصيرة، كان فوقها كُتب الطب، فبدا لها أنَّهم يُذاكرون، كانت تحسدهم على سعادتهم، وتلك الابتسامات المتبادلة، ابتسامة المحب الغارق في عشق حبيبته تختلف عن ابتسامات مشتريين الليل المزيفة الحاملة معانٍ مبطنة دنيئة.

لم تشأ أن تقتحم مجلسهم، اكتفت بالنظر في بقية أرجاء المنزل فلا أثر لأحد غيرهم، فاستدارت وخلدت للنوم في صمت، وهذه المرة لم تبكْ.

صحيت الساعة السابعة صباحًا على صوت زوَّار. سمعت ضجيج وصخب مبعوث من الخارج، فتساءلت إن هناك فرح أحد ما. غطَّت جسدها بالعباءة السوداء، وخرجت لتجد سيدة واحدة هي من أحدثت هذه الفوضى العارمة. إنها ثويبة؛ امرأة قصيرة القامة، مكتنزة الجسم؛ خديّها كثمرة البندورة، وعينيها رزقاء مُحطمة طبيعة الوراثة في الصعيد.

ثويبة لديها زوج ثري، وبيت واسع يعيش فيه ثلاث فتيات، بيتها جاور بيت عائلة كريم، العائلة المعروفة بإسم شبانة. تقوم ثويبة بأعمال الخياطة، والتنظيف، والطبخ بمفردها أغلب الوقت، بينما تترك بناتها يرعون البقر والحمير، ويتولى مسؤولية مزرعتها رجل أمين يمر عليها كل يومين يرش المبيدات الحشرية ويسقي الزرع، وفي آخر الشهر يجمع المحاصيل ويأخذ نصيب منها.

أما زوج ثويبة فيعمل في أرجاء قنا في المحاسبات، ولا يعود البيت إلا في وقت متأخر من المساء. أوعت سارة عن سبب الضجة عندما هلَّت ثويبة بحفيدتها من ابنتها الرابعة التي لم ترثْ ملامحها، وما أن خطت سارة بين أهل البيت كانت تُشاهد الطفلة الليّنة تمر من بين ذراعي طارق إلى كريم إلى كارلا إلى

غيره حتى قضوا ساعة يحتفلون بالمولودة بالشربات والطعام، وكان آخر مكان استقرت فيه الطفلة بين ذراعي سارة في الشرفة على الأرض حيث ربضت.

شعرت سارة بالتحذير من نظرات كريم إن فكّرت مجالستهم على مقاعدهم المرتفعة عن الأرض، وألْتمست الحذر مكتفية بأن تربت على الطفلة، وتمْسح أصابعها على رأسها كأنما تمسح على قطة، بجانبها كان يجلس خالد بعد أن انتهى من اللعب في الحديقة، أراد أخذ الطفلة منها، فتعاملت سارة معه ببراءة، وبدت امرأة لطيفة، وناعمة عما توقَّع كريم أن تكون، عما توقع نور أن تكون. ظلّ كريم يراقب إيماءتها ظنًا منه أنها ستحدث الفوضى عم قريب في هذا البيت، عليه أن يتصرَّف قبل إقامتها. هناك مُسدسٌ في غرفة نور، إنه المسدس الخاص به وتحت رخصته، إن أُطلق منه رصاصة لن يحاسبه أحد، أخذ كريم يتدبّر فتك سارة اليوم حينما يغيب أهل البيت في غرفة والدته المريضة.

في الصباح

أخذت كارلا الطفلة من سارة بعد أن أخبرتها أن عليها الذهاب مع ثوبية إلى المطبخ لأنها ستعلمها بعض الأشياء. لم تُدرك سارة عن أي أشياء تتحدث كارلا، لكنها بدت مرحبة بأي شيء تريده كارلا من الآن فصاعدًا. قبل أن تنهض سارة لاحظت نظرة كارلا إلى الطفلة، كانت نظرة تحمل شعور العناق، ولَما قامت من الأرض رمقت طارق بنظرة أخيرة، فرأته مبتسمًا.

كان يداعب أصابع الطفلة اللينة، ينظر إليها تلك النظرة التي لا يفهمها سوى العشاق عن رغبتهم في الإستقرار والإنجاب، تلك النظرة التي شعرت بالحميمية بينهم، والإبتسامة، والهمس المنخفض، والعهود المبطنة.

حاولت إشاحة النظر عنهم قدر الإمكان إلى أن سحبتها ثوبية من يدها للمطبخ. بدأت سارة تعي ما قصدته كارلا ب(بعض الأشياء) عندما رفعت ثوبية أكمامها لتكشف عن ذراعيها المكلبين بأساور الذهب، وفتحت ثلاجة المطبخ لتخرج منها جميع الأكياس، والأطباق من الطعام الطازج منه والحامض، حتى سألتها سارة: لماذا تُفرّغين الثلاجة؟. . .

أرادت أن تفهم فقط، لكن ثوبية لم تجب؛ إلا بعد أن أصبحت الثلاجة فقيرة من الطعام.

– ستنقلين هذا الطعام للثلاجة الموجودة بالطابق الثالث؛ لأنّنا سنحضر طعامًا بمناسبةِ الحفيدة الجديدة.

حتى هذه اللحظة؛ لم تدرك سارة أنَّهم سوف يذبحون الماشية، ويكلفونها بتنظيف لحمها، وتقطيعها. أخذت ثويبة تستكشف قدرات سارة في المطبخ، فراقبتها وهي تنظف الصحون، وتقطع الخضار، وعظام الحمام، والفراخ.

أصاب سارة شعور بالانزعاج؛ عندما قارنت ثويبة أداء سارةببناتها مقارنة، وقالت أن سارة بنت مدللة لا يُمكنها فعل الأشياء البسيطة التافهة التي تقوم بها بناتها وهن نائمات. الوضع في بدايته لم يرح سارة، فهي لا تحب تلقى النقد السلبي، و حاولت إثبات قدرتها على فعل شيء في المطبخ؛ لكنها رسبت في تقييم ثويبة. استرجعت كيف بدوت في المدرسة الإعدادية، والثانوية، فقد كانت طالبة متفوقة، ولا تتلقى النقد إلا القليل؛ لكن، وفي هذا البيت، الوضع أشدُّ بؤسًا.

استأذنت سارة منها، وكلفت نفسها بحمل أكياس الطعام للأعلى، أفضل من سماع مزيد من الإطراءات المزيفة. بعدما صعدت الطابق للطابق الثالث؛ رأت ثلاجة كبيرة في آخر الرواق تنتظرها كي تضع فيها الطعام، فبدأت رحلة تعبئة الأكياس ثلاث مرات صعدت فيها ونزلت سارة، وفي المرة الثالثة ،وبعد أن انتهت أخيرًا، صفقت بيدها أمام الثلاجة، فتنافضت الأتربة في الهواء كما يتنافض الدقيق.

شعرت بجسمٍ آت خلفها، فاستدارت لتجد نور، كان يرتدي جلباب أبيض طويل، يمسك بطرفه ويرفعه لأعلى عند خصره ليكشف عن سرواله الجينز، كان الوحيد من بين طارق وكريم الذي يرتدى جلباب، لم تفهم السبب؛ لأنها لا تعلم أن نور قضى أغلب حياته في الصعيد متنقلًا بالجلباب على نقاض كريم وطارق الذين اعتادوا حياة المدينة بأزيائها الصاخبة.

تسمر نور أمام باب غرفته مستندًا بيده على الباب، فدفعه، تعلّقت عينيه على سارة للحظات، ثم قال: تعالي.

سارت سارة في الرواق بتوتر حتى توقفت أمام غرفة نور لتجده يدور في الغرفة، بدا أنَّه يبحث عن شيء، سألته: كيف يمكنني مساعدتك؟

لا تزال تتذكر الحادث، وكيف كان يحدق إليها كأنَّما ينوى افتراسها. هز نور رأسه دون أن يلتفت لها.: نظفي الغرفة.

توقعت أن يقول شيئًا غير ذلك، ربما انتظرت منه أن يُهددها لتتطمئن أن الشرطة قبضت على أحد ما. لا تعرف، فهي حائرة، ومخدرة قُربه. دخلت غرفة نور، وازدادت حيرة عندما ظل يحدق إليها

دونما يتحدث بشيء. كان يراقبها وهي ترفع غطاء السرير، وتخلع الأغطية من على وسادات الفراش. ظنت أنه سيغادر ويتركها، إن ظن أنها ستبدأ بالحديث فهو مُخطأ، فهي لن تتفوه بشيء.

تدرك أنه سيتظاهر بالغباء، وتقع نفسها في فوهة، فكانت تريد أن تُظهر صمودها، لكن كيف وهي مُهددة من الشرطة، و منه بالأخص. سلب نور طرف جلبابه لأول مرة منذ أن دخل البيت، فأدركت سارة أنّه يشده لأنه قصير لا يناسبه، فقد كان لشقيقه إسلام، فالملابس في هذا البيت تورث من الأكبر للأصغر، كادت سارة أن تضحك لكنّها كتمت ذلك.

عقد نور ذراعيه أمام صدره كما لو يحاول تفادى ضربة ملاكم، سألها: ما قصتك؟

طافت سارة حول الفراش، وواجهت عقبة في أن تمر بجانب نور، فوضعت أغطية السرير على ذراعيها من ناحية مرورها بنور حتى لا تتلاقي أعينهما. فتحت سارة نافذة الغرفة لتسأله: أيُّ قصة؟

رمش نور بعينيه من ضوء الشمس المتسلل من النافذة.

– ما هو اسمك؟

– سارة.

ابتسم في سخرية.

– لا أحد يعرف سرّك أكثر مني صدقيني.

كانت لتضحك لسذاجته. راحت تضع سارة أغطية الفراش على طرف النافذة في الشمس، وتأكدت من تثبيتهم، ثم استدارت بجسدها، فشاهد كيف يتمايل خصرها وهي تقترب نحوه، فخطف أنفاسه وحاول تمالك نفسه بألّا يلامسها.

قرأت سارة شعوره بالارتباك في عينيه، وقالت:

– أنت غبيٌّ يا عزيزي.

ابتسم نور ابتسامة واسعة لم تفهم سببها، ابتسامة اقلقتها، فسألته لتُخفف من حدة توترها:

– هل تريد مني تنظيف شيء آخر؟

قالتها وهي لا تنوى أن تضع يديها في شيء آخر، فعملية التنظيف تجعلها لا إراديًا تُفكر في القتل.

– لعلّكِ نزيلة مُستجدة؛ لذا سأخبرك بشيء واحد. أنا لا أحب أن يلمس أغراضي أحد سواى. هذه غرفة كريم الصحفي، الذي أوقع بفتاة ليل في منزله.

قالها نور، وخرج، فراحت سارة تعبث في غرفة كريم. فتحت خزينة الملابس فلم تجد شيئًا ملفتًا، بعض الملابس المدنيّة برائحتها القذرة، وفتحت الأدراج فلا يوجد سوى شواحن هاتف، وبعض العملات الفضية. هذه الغرفة فقيرة من أي ورقة تدل على مقال صحفي، أو أي رسالة بُعثت لكريم عن فتيات الليل. وقع هاتف كريم تحت يدي سارة. فتحت جميع الرسائل، والمكالمات الفائتة، والمكالمات المتصل بها، وكانت جميعها أرقام غير مسجلة، لا يوجد رقمها بينها، ربما يكون حذفه من القائمة.

مرَّرت جميع الأرقام إلى أن صادفت رقم بسنت، وتوقَّفت عنده، فاتصلت به. أرادت أن تطمئن على بسنت كيف وصل بها الحال؟ هل أجرت عملية؟ هل ماتت من السرطان؟ أمْ تلقت العلاج ووقع شعرها وستبتعد عن العالم الذي كانت فيه؟ قُطع حبل تفكير سارة عندما سمعت رنات هاتفها في جيبها تحت العباءة، التي وسرعان ما رفعتها لنهاية فخذيها لترى رقم كريم المسجل باسم مستعار.

عضَّت سارة على شفتيها غضبًا حتى كادت أن تمزِّقها. كيف لها أن تكون حمقاء إلى هذا الحد؟ هي السبب فيما هي فيه الآن، عليها أن تعود للجيزة وتلقن بسنت درسًا أقسى من دروس الحياة. ستلحق بكارلا وتذهب معها، لكن قبل الرحيل أرادت أن تُدبر لكريم مشكلة ما يقع فيها حتى يبتعد عنها، يبتعد للأبد.

خرجت سارة من غرفة كريم، تركت هاتف كريم حيثما وجدته. مرَّت على غرفة أخرى، لم تعلم أنها غرفة نور، ولكنها ستعبث فيها لعلّها تجد شيء ما. فتحت الأدراج وخزانة الملابس، فتشت تحت الفراش، ولم تجد شيئًا مهم، سوى خزانته التي عثرت عليها في خزانة ملابسه، لا تعلم ما فيها، لا تهتم في واقع الأمر لأن الخزانة تحمل فوقها مسدسًا، فحملته بين راحة كفيَها؛ لكنه كان ثقيلًا، فاحتارت أين تضعه. خرجت به من الغرفة، وشعرت أنها حاملة كفن مُغرق بدماء، لا يجب أن يراه أحد. دارت يمينًا ويسارًا، سمعت صوت خطوات قادم من الأسفل، لا تدرى من هو، وتمنت ألا يكون نور كي لا يزداد الأمر سوءًا.

دخلت لغرفة كريم، تركت المسدس في ملابسه بخزينة الملابس، وتابعت التنظيف لئلا يشك أحدٌ بها. كان القادم نور الذي وقف أمام غرفة كريم، عندما تأكد من وجود سارة عاد لغرفته. كان يريد مسدسه لإحتفال اليوم، ففتح خزانته، وبحث عنه، لكن الخزانة لم تحمل فوقها شيء، فتحها وفتح جميع ملابسه، فلا أثر لمسدسه.

تسمر نور في مكانه لبرهة، فكر في من قد يحاول أخذ مسدسه دون علمه. لا يوجد سوى كريم الذي طلبه منه آخر مرة ليهدد به فتاة ليل في المهندسين، ورفض نور أشد الرفض، ربما فكرة سديدة إن دخل لغرفته، وبحث عنه، لكنه تذكر سارة التي تنظف غرفة كريم؛ لذا لربما لو انتظر للمساء سيتغيّر كل شيء، و سيكون لنور رد فعل مبالغ فيه، وسيطرد كريم إلى الجيزة بعد شجار عنيف، وكانت فرصة سارة لإفساد بقية أفراد البيت.

في المساء

حبطت كل أفكار نور، وكريم، وسارة حول أذية طرف من أطراف المنزل بعد أحداث جرت غيرت مسار المنزل. غيم الظلام محافظة قنا، ومعه تصاعدت الأجواء الصاخبة بالمزامير، وزغاريط النساء التي شكّلت لحن شرقي طويل لا ينقطع إلا بصوت بندقية. بندقية حاملها إسلام، لا تدرى سارة كيف فعل ذلك واقتحم البيت بها وضرب رصاصات في سماء الشُرفة، كان مُهللا. بقدر ما بدا مخيفًا في طلَّته لم يبث الرعب في نفوس الحاضرين، وبدا تقليديًا في رؤيتهم، أما سارة فاسترجعت عراكات ملهى الهرم.

عرفت سارة بعد انتهاء تلك الضجة أن تلك البندقية المستندة في إحدى زوايا الصالة بندقية صيد، فتوقعت أن تكون لصيد حمام، لكن بدا أنها بين قوم مختلفين عن مدنيين الجيزة. كانت بندقيَّة لصيد الفئران، هكذا سمعت من إسلام وهو يخبر أهل هذا البيت الملئ بالجذران عن أنَّه سيتكلف بمهمة صيد الفئران، وما أن انتهى من سرد خطط تلك المهمة التي تتكلَّف بأن يتجمَّع الجميع في الصالة تلك الليلة؛ أدركت سارة أن البندقية ملك لرجل يلقبونه بـ(الحج سالم).

سالم هو الجزار الذي يملك محل على ناصية شارع هذا البيت، والذي أتي في اليوم التالي ببندقية أخرى، ودوتأصوات الطلقات صباحًا ومساءًا ولم ينعم أحد بالنوم في غرفته. بعد حفلة حفيدة ثويبة؛ تفاجئت سارة عندما كُلفت بتقطيع لحم الذبيحة في المطبخ حيث أُحيطت بكُتل من اللحم المخليّ من العظم، كما كلّفت بتقشير البصل والثوم، وجمع الخضروات اللازمة من الحديقة لطبخها.

لم تصدق أنها تواجدت بين هذا الكم من اللحم لساعات، وهم بالخارج يحتفلون، لم يهتموا بوجودها في المنزل. طلبت من كارلا أن تساعدها، لكنها تلقت ردًا صدَّها، حيث قالت كارلا:

– أيُّ عبثٌ هذا؟ أُقطع اللحم؟ لقد أخذت كفايتي من تشريح الجثث في الكليّة. لا تدعيني أفعل هذا بكِ.

تحولت كارلا لشخصية أخرى لم تعرفْها سارة، ويئست من طلب يد العون.

تعلَّمت سارة كيف تُقطع يدها بدلًا من تقطيع اللحم. شعرت فجأة بهروب طارق من الحفلة، وكان يحمل مرجع في يده، وخرج إلى الحديقة حيث كانت سارة تقطُف من شجر الليمون التي تغنّي لها محمد مُنير. استطاعت أن تشعر بطارق قريب منها كأنّما يحاول تقبيلها. سرعان ما تراجعت للوراء فزعة، وتساقطت من يدها الثمار. قدم لها اعتذارًا لم يغير من الموقف شيء، وانحني ليجمع الثمار، فيما شل تفكير سارة.كان ينظُر في عينيها، يرمش بجفنيه قليلًا، ولم تكن تدرى ما يفكر فيه الآن، لكنه كان خارجًا من الحفل كمن هرب من أرض مُستعمرة.

سألت المحتاج عن حاجته، فطلب منها أن تجمع خضار حار لوجبته، وانتصب يضع الثمار في يديها، و يحتضنهما، فيرمى لها ابتسامة دافئة تلك التي يتبسم مثلها لكارلا. غلف شفتيها بالنظرات، وغادر تاركًا أثرًا في قلبها لم يُسبق لها أن شعرت به. بدا الأمر يدور في صمت، فجميعهم بالخارج جالسين في الصالة يتشاورون في أمور خاصة لا تعلمها. كانت تتوقع سارة أنها إذا خرجت من المطبخ، فستجدهم منشغلين في أمور هامة، فقد يكون نور يبحث عن مسدسه في غرفته حتى الآن، وإسلام يتتبع أثر الفئران الفطنين الذين لم يقربوا من مصيدته الفقيرة من قطع الجبن، وكريم يرقب إيماءات المتحدثين حوله في فضول، وكارلا وطارق غارقين في الحب أو المذاكرة، فالاثنان في رأي سارة، نوعٌ آخر من العذاب.

تحطّمت توقعاتها عندما انتهت من تقطيع اللحوم، ومرت على دورة المياه في رواق المطبخ، لتخرج منه. وجدت نور، وكريم، وطارق، وكارلا، وإسلام متجمعين في شكل دائرى يلعبون بورق اللعب، فتجمدت مكانها من الصاعقة التي نزلت عليها، وأخذت تتساءل للحظة، وماذا عنها؟ وعن قطع اللحم؟ ورائحة الدماء اللعينة الغارقة فيها؟ أبردت قلوبهم من الشعور؟

فكَّرت في أن تُشاركهم، لكنها ترددت بين رائحتها، والمكان الذي ستجلس فيه بينهم. كان الأمر أسوء عندما دخلت سارة بدلت ملابسها، وخرجت من غرفتها ترتدى سروال أسود، وقميص أبيض يعطى الناظرين إحساس بالنظافة.

جلست قرب كارلا في تردد بعد أن أزاح طارق مكانًا لها مبتعدًا عنها، وما كانت لحظات حتى قالت في صوت صاخب: اقطعوا هذا الدور، سأشاركُم اللعب. لم تدرك سارة كيف كان صوتها عاليًا، فكان خارجًا منها لتُجذب الانتباه لها، لكنها لا تُلاحظ نبراتها أغلب الوقت، وتصرفت كما كانت

بالملهى حينما تُريد لعب الورق. مُلأ الجو حول سارة بشحنات من التوتر، فسمعت من جانبها همس كارلا:

– أخشي إخبارك أن رائحتكِ لا تحتمل.

وتلقَّت صفعة من كلمات كريم: لا أُلاعب الخادمات. تفاجئت بنور وإسلام ينهضان من مكانيهما على التوالي، وما كانت لحظات حتى تابعهما كارلا وكريم، فلم يبقْ سوى طارق يجلس حائرًا ما بين فكرة لعب لعبته المفضلة، وما بين الجلوس مع غريبة. كاد قلب سارة ينفطر.

– هل تلاعبني؟

حاولت أن تكتم دموعها قدر ما استطاعت، دعت داخلها بألا يرفض طلبها.

هزَّ طارق رأسه وكان مخيبًا للآمال: آسف عندي اللحميّة!

كادت أن تبكي، كادت أن تنفجر، فتماسكت، وانكسرت.

الإدْمانُ الجنسيّ؛ في المساء

طارق

كان يستذكر الأوراق التي قرأها مع كارلا أمس. شعوره بالارتباك والتشتت ما بين والدته المريضة، وحفيدة ثويبة التي لم يُحضر لحفلتها أبدًا عطَّلته. كان من الأفضل له أن يُعيد ما ذاكره معها، لذ طلب منها أن تنام، وسيراجع كل شيء بسرعة. لكن مواد الطب أقوى منه، فغلبته وشعر بالنعاس الشديد. كان بمفرده في الصالة جالسًا أمام كم من الورق لا حصر له ولا عدد. كانت جميع الأوراق على الأرض بشكل غير مرتب، فوضوي كعادته. شعر بمرور سارة من خلفه. خرجت من غرفتها في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، و توجهت إلى المطبخ، وفتحت صنبور المياه لتشرب منه، وقالت في نفسها مذاق المياه هنا مُريع عن الجيزة. بدأت تصدق قول كارلا حول المياه الموجودة في وسط حديقة المنزل حيث يمكنها الضغط على الساقية ضغطة قويَّة، فتحصل على مياه نقية. وضعت القدح جانبًا بعد أن انتهت من الشُرب، أدركت لتوها أنها لن تستطيع المداومة على النوم، فهناك شيء ما يشكل لها إزعاج، ولكنها لا تعلم ما هو؛ لربما الاكتئاب الأسود، وذاك الأرق اللعين.

كانت نبضات قلبها المتضاربة بشكل جنوني، ولكن لا يوجد سبب بعينه، فكالعادة تنقلب براكين مزاجها في لحظة دونما تدرك السبب، إذا سألها أحد تجيب في اقتضاب "لا أدرى"، وتنطوى في عالمها، ووحدتها مستنزفة صفوة الحياة وزهرتها. لمحت طارق عندما خرجت من رواق المطبخ الطويل.

سارت من الجانب الخلفي، وكانت تسمع لصوته الرجوليّ وهو يُناديها، فأجابته. رجا منها أن تدخل لتتفقَّد والدته إن كانت تُريد شيء، فراحت تزيح باب غرفتها برفق، اعتقدت أن تكون نائمة، وتفاجئت بإسلام يجلس على مقعد جانب غرفتها، يعانق نفسه بذراعيه ويتحدث معها في هدوء، فسألتهم سارة إن أرادوا شيئًا، لكن إسلام عبَّر عن شعوره بالاكتفاء، فخرجت في سلام غريب.

أوصدت الباب خلفها وهي تتذكر قول كريم حول الطبيب الخاص بوالدته الذي لم يأتْ اليوم رغم أن هناك جلسة خاصة. شعرت سارة أن حالة والدته تسوء يومًا بعد يوم، فقد كانت تستيقظ في المساء، وتنام في الصباح، تتأوّه كل لحظة، ولا أحد يسمع لأنينها سوى الله، هي من جمَّعت أبنائها من أشقاق في منزل واحد، ولكن رغم من ذلك كانت تشعر أن كل منهم في عالمه، وإن كان بجانبها.

مشيت سارة نحو الشرفة حيث كانت فارغة، لم تشعر بعيني طارق خلفها يراقبان خطواتها. كانت تسير باضطراب، فقدرتها على السير باتزان أصبحت صعبة؛ رغم إقلاعها فترة لا بأس بها عن المواد الكحوليّة. راقب طارق خطواتها، واحتفظ بتعليقاته لنفسه؛ إذ شكَّ أن سارة مصابة بمرض عصبي ستتصاعد أعراضه مع الوقت.

طارق

كانت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، لا يزال طارق في مكانه جالسًا، بينما غفل إسلام في مقعده وهو يتحدث مع والدته. كانت شابّة الليل تقف في الشرفة، أمامها أريكة خشبية عريضة تمنعها من الاستناد على السور الاسمنتي للشرفة في راحة، ففضَّلت الوقوف. كانت تحدق في الساحة الخضراء أمامها، لا ترى شيء سوى ظلامٌ دامس. ظلام قاتل، وخلفها تشعر بأنفاس طارق وهو يذاكر، وتسمع خطوات إسلام، وهو يخرج من غرفة والدته ليتجه إلى الطابق الأول. أخرجت من تحت معصمها إصبع نيكوتين كانت قد حصلت عليه من غرفة نور، وأشعلته بقداحة المطبخ التي احتفظ بها في جيبها بعد أن ارتشفت المياه.

كانت تدخن بنشوة كأنه السيجار الأخير، وبعده ستقلع. لم تفكر في الاقلاع عن السجائر بشكل جديّ، ولا عن الكحوليات، ولكنها فقط لا تمتلك الفرصة لتناولهم الآن. شعرت أنها حبيسة عالم آخر، عالم لا تشعر فيه بالاطمئنان.

أحست بطارق جانبها، وكان عبير ما يفوح منه، لم تستطع تحديد إن كانت رائحة جيدة أم لا، لكن بدا أنه عطر كارلا، فقد كانت قريبة منه اليوم، لاحظت سارة هذا، وتكتَّمت، هل يجذبها؟ ليس مُثيرًا؛بل إنَّه عادي، عاديٌ للغاية، وجسمه مكتنز بعض الشيء.

يكفي أنهُ يُشبه كريم، فهذا يجعلها تنتفض كلما تلاقت أعينهما، لكن بعد ذلك أخبرتها كارلا أن طارق يحمل ندبة على جانب يده، وقالت أنها الفارق الوحيد بين كريم وطارق من حيث الهيئة.

أكدت لها أنها لا تعرف شخصية كريم بعمق، فكريم له عالم غريب بين الطبقة العليا، والسفلى التي لا يسمع عنها المجتمع سوى في صفحات الحدوات والوافيات، لا تدرى كارلا إن كان يُخفي شخصية طيّبة بداخله أم لا، لكنه على الأقل يتعامل بلطف مع الجميع، ويكسب ودَّهم، هذا عكس ما شعرت به سارة، فحتى الآن لا يزال نبض قلبها يقرع كالطبول.

وقف طارق بجانبها طويلًا دونما ينطق بشيء. كان يود أن يسألها عن حياتها، صلتها بكريم، فيما كانت تريد معرفة صلة نور وإسلام بهم. من هم؟ وما صلة القرابة بينهم؟ ولكنها مشوّشة لا تستطيع الانتباه لشيء، وطارق قريبٌ منها إلى حد جعلها تُفكر في عناقه، فخطت خطوة للجنب، واقتربت منه، ولكنها شمتتلك الرائحة الانثوية المزعجة، فعادت حيث كانت تستنشق الدخان كأنَّه آخر نفس قبل أن تقضى. حدّق طارق في الظلام الدامس الذى بدا يتآكل في الحديقة، فعجز عن رؤية أي شيء.

استمتع برائحة الشَجر، ونسمات الرياح الباردة، وسقسقة الصراصير في أمسية لا يدرك ما سوف يقضى فيها.

- اليوم؛ أعلم أننا كُنَّا نُعاملك بشكل سيء، أنا آسف.

احتوت سارة السيجار بين إصبعيها لتلوح بها في الهواء، و انتبهت للاعتذار، ولكنها لا تعرف في أيّ قائمة تُصنّفه، ولكنه كان لطيف، و إلى حدٍ ما قبلته، لأنها تُريد ذلك. هذا الرجل يجذبها بشكل أو بآخر، فمنذ الصدفة الأولى، وهناك شعور غريب يتخللها من أعلاها لأسفلها. غيَّرت سارة دفَّة الحوار ولم تنظْرإليه

- سمعتُك تتفوه باللاتينيّة إنها اللكنة الخاصة بالمصطلحات الطبيَّة، وسمعتها أكثر من مرة. تُجيد سارة الحديث بها، ولكن لعلّها نسيَّت بعض المصطلحات، بل الكثير. لا يزال بداخلها كم كثيف من تلك الكلمات اللعينة، أرادت أن تلفت النظر حولها، فهي تريد أن يتذكر طارق أن سارة قابلته في

القصر العينيّ بصفتها طالبة، كما كانت تريد أن تعرف كارلا هذا، وإن كانت لا تدرى كيف سيكون ردَّها. ستتفاجئ رُبما، أو ربما ستُساعدها.

لم تتخيل أن كارلا سوف تغضب أشدَّ الغضب، وتُرتب حساباتها نحو سارة. أومأ طارق رأسه، وقال في نبرة مُحملة: أُحضر للماجستير.

ثم لفَّ رأسه من فوق كتفه ليُطالعها. كانت متصلبة صامتة، تُشيح النظر، وكان السيجار لا يزال مكبّل بين أصابعها. عض بنواجذه على شفتيه متسائلا في نفسه؛ ماذا لو دنا من نيرانها ولامسها، بالطبع لن ترفض، لكنها لن تُريد ذلك أيضًا. تبادلا الحديث حول كُليّة الطب، حتى أكدت على قول ياسر فيما سبق عندما أخبر طارق أن سارة متوقفة في السنة السادسة ولم تُتابع الدراسة.

كان يتساءل عما تُفكر فيه، ماذا ستفعل، وأيُّ تخصُص ستتقدم فيه، فكانت إجابتها مُشوَّشة، وغير واضحة، تدور حول مركز واحد ولا تتثبَّت. أخبرته بتفكيرها في طب الأطفال لأنَّه أسهل الأقسام، فسألها لِمَ لا تتخصص في طب النساء أو الرَّمد، ولكنها لم تُجبه، احتفظت بجميع الأسباب لديّها.

كانت تُريد أن تتخصص في طب الباطنة أو جراحة؛ لكن مع جميع الظروف المحيطة التي لا تسمح لها بأن تحلُم لم تعُد تفكر في شيء. ساد بينهم صمت، صمت ثقيلٌ، لم يتبعْه سوى اقتراح سارة بالجلوس في الحديقة، هناك حيث لا يُمكن لأحد رؤيتها وهي تُضاجعه.

الهلاوس؛ في الحديقة

سارة

في الظلام يصحو الخوف، ومع الليل تصحو الذكريات، وتتهافت الأرواح.

حيثما تتواجد سارة، عزيزةٌ عليها تهفو حولها، والدتها تُناظر أبعادها من العلو، ولا تدرى الأخرى أن والدتها في ذمّة الله وجُثّتها في غرفتها، و رائحتها في شقتها، والمجاورين لها لم يدروا بخبر الوفاة بعد حتى أن انتفخ بدنها، فلله ما أعطى، ولله ما أخذ.

تظن أنّها ترى شيئًا ما يحوم حولهم، وصوت رفرفة أجنحة، لكن سرعان ما يتلاشي الصوت.

– لماذا نرقُد تحت الظلام؟

سأل طارق هذا السؤال لسارة، وهو يتحسّس الأرض الطينية الجافة من تحته، يتمنّي ألا يكون جالسًا على الشوك والدود الأرضي. لا يرى شيء سوى البيت يبعُد عنهم أمتار، وطرف إصبع النيكوتين المضطرم في يد سارة، يشعر بجسد سارة جانبه، جسدها دافئ فغمرته الحميمية قُربها.

قالت سارة ورئتيها مملؤةٌ بالدخان:

– هذه الطريقة المثلي التي يُمكنك أن تراني فيها كما أنا، فأنا لا أريدك أن تنظر لوجهي، يكفي أن تشعر بي، أن تسمع لنبضات قلبي؛ أن تَشُمَّ شذي عطري، أن تتذوق كلماتي، وتُلامس نبرتي، فتكون حواسك مُسخرةٌ لي، بطريقةٍ ما ستدرك ما بداخلي، فتعرفُ مَن أنا.

قليلون من يفهمون الروح، قليلون من يدركون سرّها. تنهّد السامع على ما سمع، ثم ابتسم، وطغى الصمت على حديثهم. أدارت رأسها من فوق كتفها، تنظر إليه مفكرة. اطفأت إصبع النيكوتين لَما انتهى عُمره، ودفنته جانبها، فأصبحا لا يرا شيئًا بعدما كان حريقه آخر السبيل لعودتهم.

قليل من ضوء البيت ينعكس عليهم، فيرون أطراف أجسادهما. شعر طارق بأناملها تُلامس يده المستند بها على الأرض. كانت أطرافها دافئة، ترتجف تحركاتها، كأنها مترددة، تشعر بشيء خاطئ، فهناك شعورٌ بداخلها لا تستطيع السيطرة عليه، وكل شيء داخلها يصرخ. مالت برأسها لتقترب منه، على وشك أن تُقبّله، وتعتصر تُفاحة آدم بين شفتيها، فتسارعت أنفاسها، وعادت أعضاء جسدها تتوتر لفرط قربهُ منها، وحين أن كانت تُفكر بطبع قُبلةٍ ناعمة على ثُغره كانت أن امتزجت أنفاسهما، وبات من الصعب معرفة قلب مَن الخافق مِن قلب مَن المضطرب، وقل لأحدهما أن قربه يطيب جروح قلب الآخر، وتلك الشقراء بحُسنِها، لا تُبادل القُبل، لا تولّد الحب، فهي تُضاجع، تُمارس الشغف، تفعل الزنا، وترتكب القبح.

ذلك التعبير للشغف بينهم حين تعجز الكلمات والأرواح والقلوب عن إيصال المشاعر بين العاشقيّن، فإنهم يلجأون إلى تبادل ذلك الحب عن طريق الأجساد، فذاك الجنس أعمق تعبير للحب وأكثر إثارة وتفاعلًا، وأعمق تعبير لصناعة الحياة واستمرارها. مُوسيقي عالمية لا تحتاج إلى سامع، لغة تتحاكي بها الأجساد برنين متناغم تتحدث فيها عن عشق وحب وتوحد ورغبة في استمرار الحياة. لغة تحكى الكثير، وتقول الكثير، وتعبر عن الكثير، وتخلق الكثير.

للحظة بقيّ مُشوّشًا لا يُفكر حتى بمقوامتها، فإن ملامستها له جعلته ينهار بسرعة، و رائحة جلدها الرطب يُدير رأسه. ضاجعته في الظلام فبات هزيزهما كالغزال عندما يركض، وتوقّفت في حركة

صادمة، كان يستطيع الشعور بها وهي تعلوه، لا يراها بوضوح لكنه تمكن من الإحساس بخصلات شعرها تُداعب وجنتيه كلما اهتزّت.

صوّبت النظر إليه، نظرات كالرصاصة تنطلق نحو هدفها مباشرة. وهمست المليحة قُربه: قُل شيئًا.

ما عاد يهلب بأطرافه، ما عاد في دُنياه، وما عاد يُريد البُعد، آهة من الليل تصدر، وجُمد في مكانه فاقدًا النطق، لا يقوى على سحرها، ما يجرى معه، لا أحد في مقامها، لَما يُبصر فتنها يستوقف بالقول: الله! فغمزة منها تقتُل، وبسمة منها تُحي، ولضحكاتها وشهقاتها ألف رواية ورواية مما تعدّون!

ردَّ المُهشَّم هامسًا: أنتِ جميلة؛ لكنَّكِ. . . جميلةٌ فقط. . .

اسْتحيَّت، فغابت، ولموضعها عادت، صمتًا آخر خيَّم عليهما.

حتى أن في الظلام يرى قُبحها، يُدرك جمالها البرّاق، فذاك القالب الخارجي الذي تجتذب به الرجال، و جمال الوجه والجسد الفاني، لن يرى شخصيتها، لن يُدرك باطنها، لم يفعل أحد ذلك من قبل، لقد يئست من الناس، ولوحدتها وعلتها سبب.

سارة

راحت المنكودة إلى ردهتها، وغابت في مرقدها، لم تنمْ كما رغبت، طالت جلستها على فراشها تفكر في حياتها العابثة بعد أن فشلت جميع محاولاتِها، وطُمس حظِّها في أرض تحت الأرض.

كانت تُخفي جريمتها كل يوم، شهوتها التي تكبحها، فمارست العادات سرًا، مرّة بعد مرة بكل حرقة حتى انفجرت في ملابسها فرطبتها، لم تُعدْ قادرة على تحمُّل المزيد هنا، وعقلها يطفو في كأس الخمر يترنّح يمينًا ويسارًا على فريسة تذلل تحتها.

قد راق لها طارق أكثر مما تخيَّلت. شعرت بالحب تجاهه، وأنبأها القلب بفوهة أخرى.

تلك المصورات المتحركة الناجمة من القطبِ الآخر من الأرض، ترام لإسقاط العقول وهدم النفوس، وتُحمِّل على الشباب ما لا يُطاق، لكنّ الفساد يكسو، والجهل يعُم، والحروب تُقام، الأجساد تُبث، والعُرى يتلوَّن في كل صورة هنا وهناك، لَما ثار الشباب انطوت الصبايا، تخطَّت أمُّ الدُنيا حاجز التصفيات في الخمس الدول على سطح العالم في التَحرُّش، وعمَّت الأمراض، فتكتَّمت الحكومات سرًّا لعلاجها، أصبحت العلّة حرجًا والعلاج حرجًا، والفكر إعاقة، مُباركٌ لمن كسب الحرب، وتُعسًا لنا خسرنا نقاء جوهرنا.

بكيت الفاتنة، وكادت تظنُّ أنها ستنسى مرارة الأيّام، و لكنها عاودت الإبحار في حُزنِها، وكانت هذه المرَّة مختلفة، سيبعثُ الله لها من يرشُدِها، علَّها تغفر، علَّها تهْتدي في مسار حياتها حيث الطبيعة النشيطة الطفرة آبية أن تستكين، فتكُف عن إيقاع الإخوة تحت شهواتها.

الشقُّ الثالث

الجَانبُ الرَوْحانيّ

تقدم فتاة الليل للتوبة ونظرة المجتمع لها بعد ذلك

في صَعيدِ مصر؛ 4 من ديسمبر 2002

سارة

زفرت سارة في ضجر كالثور بعد أن سمعت طلقة أخرى تنفذ من بندقية إسلام والحاج سالم الجزار. كانت في المطبخ تنظف أرضه بعد أن قست كارلا في تذمُّرها حول رائحة عفنة لا تعلم مصدرها، وكادت سارة أن تُخبرها أنها رائحتها على سبيل الغضب والسخرية، لكنها ابتلعت لسانها.

إنها الرابعة عصرًا في منزل عائلة شبانة. قبل ذلك، قد بدأ يوم سارة مبكرًا عندما استيقظت على صوت نيران، للوهلة الأولى ظنت أن هذا كابوسًا فأنتفضت من فراشها، وبعد أن خرجت تفاجأت بإسلام كان يقبض على فأر وألقى به خارجًا، فتنفَّست سارة الصعداء، ووضعت يدها على قلبها، لم تتخيل بعد ذلك كيف سيجرى اليوم لطالما كانت هذه هي البداية؛ إذ صارت تجول في الشقة تسبُّ، وتلعن بألفاظ لا تتلفّظ سوى في مشاجرات بارات الهرم؛ ألفاظ لم تقع على السامعين الحاضرين.

بعد حملة التنظيف التي فرضتها كارلا؛ راح نور يطالب سارة بتحضير الفطور، وكانت ساعة، وانتهى الفطور من على طاولة الطعام. كان الجميع يأكل في الشرفة تحت سناء الشمس وعلى رائحة الخُضرة، وطارق يجلس مع والدته في غرفتها يفطر معها هاربًا من نظرات سارة، وشكوك كارلا. كانت سارة سعيدة بكون طارق خطيب كارلا في الداخل لا يُرافقهم، فتلك النظرات بينهم، والهمس الذي لا تسمع منه شيء كان يجعل الغيرة تشتعل داخل سارة، و تكاد أن تنفجرُ غيظًا. لم تُبصر الحب يومًا، ولم تبصر محبين متآلفين مثلهم، وتمنت لو أن يحبها أحد نصف هذا الحب، ويحمل في عينيه نصف الحنان الذي يحمله طارق.

حضّرت كارلا حقيبتها مساء الأمس مع والدها، وكانا على وشك السفر إلى الجيزة، فكان طارق يفكر بأن سارة ستبيتُ في البيت معه، وكارلا غائبة، بات الوضع يروق له، فيما كانت تُفكر سارة بأن وجودها مع نور يومًا آخر، وطلب منه بتنظيف غرفته يُشعرها بالقلق والارتباك. لا تدرى ماذا جرى عن جريمة القتل، إنها تفكر بالمغادرة، وقبل ذلك سألت كارلا إن كان يُمكن أن ترحل معها، لكن كارلا لم تعطْ لها بال، لم تهتم بسؤالها.

سار الفطور على نحو هادئ، لم تعتذر سارة بشأن الشتائم، ونهضت تجمع الأطباق في صمت دون أن تلتقى عينيها بأحد. بعد أن وضعت سارة صحون الفطور في المطبخ، وقامت بتنظيفها؛ كانت

تسترق السمع لِما يجرى في الخارج، أنصتت لصراخ كريم، وعليله من الطبيب المعالج لوالدته الذي غاب أمس، ولا أحد يعلم هل سيأتي أم لا، لكنه في جميع الحالات قد أتي بعد عدّة اتصالات، وبعد أن أحضره إسلام من منزله، فخرجت سارة من المطبخ تستقبله، وتفتح لإسلام، وللطبيب باب المنزل الخارجي، أما الداخلي فدومًا ما يكون مفتوح لكثرة الزائرين.

دخل الطبيب غرفة والدة كريم. حاصره كريم، وسارة، وكارلا، ووالدها، وطارق كان موجودًا. الجميعُ يُراقب ماذا يفعل الطبيب، بعد أن انتهى من جلسة العلاج كان لكارلا، ووالدها، ولطارق، وسارة تعليق يختلف عن تعليق كريم الذي لا يفهم في الطب حرف؛ إذ قام الطبيب بتدليك، وبعض التمارين الضعيفة لوالدة كريم، وانتهى على ذلك ثم طالب بالرحيل، و لم يفعل شيءِ يزيد عن هذا؛ سوى أن قام بقياس الضغط والنبض، وسجَّل أنّه مرتفع عن المعدل العادي، فلم ينتبه أحد لشيء غير مألوف، لا يعلمون أن هذه واحدة من علامات سكرات الموت وقضاء الله.

خرجت سارة من الغرفة، ولا تدرى أن هذه السيدة ستُقبض روحها، وتُطلق صرختها الأخيرة وهي تمسكُ في يدها. اشتكيت كارلا من هذا الطبيب، عقَّبت على أن الحالة تحتاج لإهتمام أكثر من ذلك، وشدة وقسوة في التمارين. كان والدها يوافقها الرأي، فيما كان طارق في حيرة، وعقله توقَّف عن إنتاج شيء. بينما كانت سارة تعلم أن هذا الطبيب لم يفعل شيء جديد تركتهم يتناجون، وآخر ما توصلوا إليه أن كارلا ستبقى هنا في المنزل مع والدها يراعون الحالة، ستقوم كارلا ببعض التمارين لوالدة كريم لتُساعدها على المشي والحركة، وسيُساعدها والدها، وهكذا انقطع آخر حبل نجاة لسارة في الرحيل من الصعيد.

سارة

صوتُ الطلقات هدأ نوعًا ما، ليس كما أرادت سارة، لكنه توقّف، وأدركت سبب توقفه، ليس لأن الجذران قد ماتوا جميعًا، فعلى العكس كانت تشعر بواحدٍ منهم يركض في المطبخ، رأته وهي تقطع الخضار، فسلبت يدها، وسقطت السكينة منها عموديًا، فكادت أن تجرح قدمها العارية، لكن حفظها الله منها، إلا أن هناك فأرًا آخر لامس قدمها فصاحتن وصرخت، وتراجعت للخلف، فأتي إسلام لها ليضرب بالنار في زوايا المطبخ.

لم تُبد سارة رد فعل سوى أن خرجت من المطبخ تلعن في الطلقات، وفي الجذران، والمطبخ، والصعيد، وجميع ما صادفته في طريقها حتى اصطدمت بجلسة خالد ورجل دين، فجُمّدت مكانها، كأنّما

أُلجمت ساقيها في الأرض، وابتلعت الشتائم فعلقت في حنجرتها، تأملت ذلك الرجل، رجل يتعجب بسُبحان الله، ويتألم بالحمد لله، ويحصى النِّعَم بالأسماء التسع والتسعون التي وسعت كل شيء.

كان العجوز له لحية بيضاء طويلة تصل لصدره، وحاجبيه أحرقهما الشيب، وجهه يميل للحمرة، أما رأسه فيُغطيها قبعةٌ بيضاء، يرتدي جلباب أبيض. كان كل شيء فيه يميل للأبيض وللنور، وكانت ملابسه غير موفقة نسبة إلى سارة، فالأبيض أكثر الألوان التي تُمقتها.

جالت عينيها فحصًا في صالة البيت، حاولت أن تهرب إلى مخرج، لكن الرجل رحَّب بها، وناداها بلقب، فعلمت أنها المقصودة. لفتَّت فتاة الليل لتواجهه، وخالطت يدها بيده لتُحييه، لكنه ألقي السلام من مسافة، فانتكست يدها خلفها كأنما تُخفي شيئًا ما مستحية منه.

كادت عروق وجهها أن تتصلب من الارتباك، لا تدرى ما يريده منها. طلب الرجل منها كوبًا من الشاي، وبعد فترة كانت قد دخلت المطبخ لتُشعل الموقد، لكنها غفلت على أنهم يستهلكون "البابور" بدلًا من ذلك، فأخذته، وراحت أمام الرجل، تحت قدميه تقوم بإشعال الكاز، وتضع المبرد على أرجل "البابور"، فيما أخذ الرجل يجوِد القرآن، ويردد خالد وراءه آية بعد آية، وكانت سارة تشعر بانزعاج، أيقنت أن إسلام توقّف عن ضرب الطلق بسبب خالد الذي لا يستطيع حفظ القرآن، وسماعه من الشيخ، أو ربما اشتكى الشيخ من إسلام.

كيف ينظر رجلُ دين لفتاة ليل؟ الإجابة معروفة، لكن، كيف تنظر فتاة ليل رجل دين؟ إنه الأمر الأعسر الذي واجهته سارة عندما حدثها الرجل، وهي تسخن المياه. أخذ يسألها عن اسمها، وعمرها، فكانت تُجيب، وفي بعض الأسئلة تُضلل، وفي الأسئلة العامة لا تُمانع بالصراحة، أغلب إجاباتها كانت صادقة. سألها ذو اللحية البيضاء عن الأجزاء التي تحفظها من القرآن، فابتسمت ونظرت له لتقول:

– لا أحفظ شيء، حسنًا؛ كنتُ احفظ خمس أجزاء، كان هذا بالمدرسة، لكني نسيتُ كل شيء.

ترددت سارة في قولها، وتساءلت إن كانوا خمس أجزاء أم ثلاثة، فتلاشت الابتسامة. قال الرجل:

– ما شاء الله، يمكنكِ مراجعتهم، و ستتذكرين كل شيء.

ابتسمت سارة ابتسامة تعتذر فيها، وكانت تعنف في لوم نفسها التي لا تتيح لها الهدوء والراحة، هزت رأسها: كان هذا مُنذ وقت طويل، لا أردي.

قالتها وهي تُريد أن تخبره أنها لا تُحبذ فكرة العودة مجددًا لحفظ القرآن.

تتذكر سارة ما جرى في طفولتها، ليس معلمون القرآن الذين تحدثوا عن عقاب جهنم أكثر من وصف الجنة، ليس مُعلم القرآن الذي أخبرها أنّها إن فوَّتت فرض عليها أن تُصلّيه، حتى لو غفلت عن ذلك، حتى لو مضى وقتًا طويلًا عن ذلك، عليها أن تُصلي كل الفروض، سيُحسبها الله، ليس كل ذلك، ولكنها تذكر اليوم الذي قررت فيه أن تلتزم في حفظ القرآن، وبدأت تفتح خزانة والدتها، فهي تدرى أن بداخلها شرائط قُرآن قديمة خاصة بجدتِها، فتحت الخزينة لتجد شرائط للشيخ الشعرواي مدفوسة بين شرائط لأفلام إباحية مُصوّرة، كانت تلك الأفلام التي شاهدتها لأول مرة عن الكبار، وما بين الشتات الذي خلَّفته وراءها خاصة بعدما رأت زجاجة نبيذ في غرفة والدتها، راحت للمدرسة، فكان عليها أن تُسمع للمعلمة ما حفظته، لكنَّها غشّت، وأخذت تقرأ القرآن الموضوع داخل الدرج، لكن المعلمة سرعان ما كشفتها، فعاقبتها وأذْنبتها، جعلت جميع زملائها يسخرون منها، يتهمونها بالضلال والعبث، فالبعض ألقى عليها الكُفر.

كان الأمر مُوتر، فأصاب سارة بصدمة من الدين، ومن تعاملات المتدينين معها، نسيت ما حفظته في سن مبكر، لا رابط لذلك بالخمر، والنسيان الذي راودها، لكن، عراء الليل أضاف لمسته الإبليسيّة، وأنساها دينها بلا شك، فأصبحت تتردَّد من الحجاب، تفكر أنها ستكون مُنافقة إن كانت في الخارج تُغطي رأسها وفي فراشها عاهرة، فكيف ستقف أمام ربها.

قال الشيخ: أي ابنتي، لا تهجري القرآن، وانصري هذا الدين.

ارتبكت عينيْ سارة، وحدقت فيه طويلًا، فساد صمت، لم تُضف كلمة، لا تدرى ماذا تقول له. لا أحد يعلم بتلك القصة، كان يجب أن تُضلل الشيخ في بعض الإجابات، فأومأت برأسها، واكتفت بصبِّ الشاي له، ثم غادرت، وقلبها يحمل من الهم ما حمله الدهر لها.

قبل أن يغادر الرجل الطيب راح يتحدث مع إسلام، فأنبأه من سارة، شعر بشيء مريب تجاهها، فحدسه يخبره بشر، وكان إسلام لا يثق سوى بهذا الرجل؛ لذا قرر أنه عند عودته سيقوم بتحريّات أقوى مما قامت بها كارلا لينزع عنها الغطاء.

إسلام

قبل العصر بساعة تفاجئت سارة بقدوم فتاة صغيرة للشقة، تصورت سارة أنها بنت عشرة لصغرها. عندما دخلت أدركت سارة أنها معروفة، ليست بغريبة. ظنت في البداية أنها ستُلاعب خالد،

لكنها ألقت التحية على كل فرد في الشقة، ووزعت الابتسامات، ودخلت المطبخ، فخلعت حجابها، وبدأت في التنظيف، وتحضير الغداء. رغم أن العمل سيُخفف عن سارة، لكنها شعرت أن الأضواء تسرق منها، فُفكرت كيف ستُحطمها، وتطردها من البيت، وقررت أن تفتعل معها أي مشاجرة لتخرج، تُريد أن تكون هي المركز والشمس، راحت تدخل لغرفة والدة كريم بعد أن سمعت لنداء إسلام الذي كان عالي، ويُردد، فأدركت أهمية النداء، والأمر الذي يحتاجه منها.

ضاقت عينيْ سارة.

– ماذا؟!

– ستذهبين معيّ إلى الجيزة.

قالها إسلام بدون اكتراث، والتفت لوالدته المريضة بعد ذلك.

– ماذا؟!

تلقَّت سارة الخبر، ولم تستطع توقع المفاجئة.

– كما أخبرتك، حضّري أغراضك، فسنذهب للجيزة.

كرَّرها إسلام، ثم نهض من مقعده، وخرج.

– انتظر، مَن سيعمل بدلًا مني؟

سألته سارة في تردد، فهي تدرى أن غيابها لن يؤثر بشيء في المنزل، سيجدون غيرها في لحظة.

– فاطمة ووالدتها سيجلسون بدلًا منكِ.

قصد الفتاة الصغيرة بنت العاشرة ووالدتها، كان ذلك سريعًا أكثر مما توقَّعت، كأنّ كُل شيء مُدبّر دون إخبارها.

قرر أن يأخُذها لبيتِ كريم، ولكنها قد تهرُب منه، قد تفلت لأي ملهى وتغيب إلى حيث لا يجد لها سبيل، لم يخطر أي شيء من ذلك في بال إسلام، هي تعلم أن إسلام يكره فتيات الليل، لاحظت ذلك عندما سأل كريم عن الحوار الصحفي؛ إذْ بعدها عبّر عن ضيقه ومقته الشديد من الفكرة رافضًا فكرة "الظروف" و"الفقر" الذي يؤدي الفتيات إلى هذا الحال.

إسلام لا يعلم شيء سوى أنَّ سارة مجرد خادمة لا مأوى لها، لا يدرى بكونها طالبة تدرس في الطب، كما لا يدري بوالدتها في الزمالك. والدة سارة...! لقد انتفخت جُثتها وتعفَّنت، مضى على وجودها في الشقة أربعة أيّام، بدأت رائحتها تتصاعد وتخرج من ثنايا الشقة، وجهها تلوَّن للأسود، أسود

كالجحيم، وأطرافها تحولت للأزرق، أزرق كالمحيط، وبدأت أطرافها تتآكل، جزءًا في جزء، ولا أحد يدرى.

عند الرحيل بدأت أعراض المرض العصبي تزداد على سارة، فشعرت بقشعريرة مشابهة لشعور الكهرباء تسرى في أطرافها، فارتجفت، ودارت عينيها حولها، لم تُخبر أحدًا بشيء. الأمر لن يمر مرور الكرام بل سيزداد، وتتزايد الأعراض، ويصبح الوضع أشدُّ ضرارًا، ولكنها لا تدرك أن هذا المرض نهايته الشلل، والموت، الموتُ البطيء. لقد نسيّت الطب. لقد نسيت كل شيء.

4 من ديسمبر 2002؛ بيتُ كريم؛ في المساء

سارة

كانت رحلة القطار صعبة بعض الشيء بالنسبة إلى سارة فقط، فشعور القشعريرة يُرافقها أجلَّ الوقت ولا يغادر. كانت تظن أن أناملها تحتاج للحركة حتى يسرى الدمُّ فيها، فكانت تنهض من جانب إسلام وتسير في رواق القطار، لا تهتم بالناس وهم يشاهدونها، لكن الشعور يرافقها بشكل مزعج.

وضع إسلام بينه وبين سارة حقيبة كحاجز طيلة الطريق، فكان هذا أول شيء لاحظته قبل أن تدرى صوت إسلام المزعج أثناء النوم، فتضربه برسغها ويستيقظ، لكنها تنعم بالهدوء النسبيّ للحظات. أخبرها أنهم سيجلسون في بيت كريم، لكن لم يخبرها أن جلوسها فيه سيكون للأبد، ولا عودة لها للصعيد، فقريبًا سيعود كريم ليرى عمله، ويرجع طارق ليعقد القران بكارلا.

وصلا لبيت كريم بعد مشقَّة الطريق، و حينما دخلت سارة، وكانت تشعر بالتعب، شدّت حقيبة السفر خلفها على الأرض، وارتمت على الأريكة، فكانت المرة الأولى التي لاحظت فيها أنَّ الأريكة لونها قُرمزيّ، وأن الحوائط مطليّةٌ بلون السماء، وأنّ الصالة أوسع ممّا بدت عليه المرة السابقة، لقد بدا لها أنها كانت متعبة في المرة السابقة ولم تنتبه لهذه الأشياء.

وقف إسلام أمام سارة، و كان على مسافة منها، يُحدق إليها، وجسمه مُرهق، و قلبه ينبض في ألم، وعينيه لا تران سوى الضباب. تبادلا النظر لثواني طويلة، فبدت له أكبر عمرًا مما رآها في المرة الأولى، تلك الشرايين البارزة من تحت جلدها الشاحب تتلوّن بالأزرق وترمز للعصبية، كانت شرايينها ضيّقة من كثرة الإفراط في ارتشاف الكحوليّات، والأدوية.

لاحظ السواد تحت عينيها، وارتجاف يديها، فكانت يديها ترتجفان بشدة كمبرد يغلي على النار، وكاد أن ينفجر، حتى عقدت أصابعهما لتتحكَّم في حركتهما، لكن شعور الكهرباء في جسدها يزداد لحظة بعد لحظة حتى يغزي جسدها كُلّه.

كانت تُريد أن تسأله إن كان سيقف كثيرًا يُحدّق إليها، لكن منعها ذلك عندما خطى في الشقّة، وأخرج ملابسه من حقيبته ليدخل بها الغرفة، فتبعته بنظراتها حتى اختفي من سعة رؤيتها كما يختفي الضباب من أمام وهج الشمس.

بدأت قصتهما في صباح الغد بعد أن تأذن الشمس بالمغيب عن بيت يجمع ما بين فتاة ليل ورجل دين.

7 من ديسمبر 2002

سارة

قد مرَّت ثلاثة أيام على تواجد سارة وإسلام في المنزل سويًا. استيقظت سارة لتجد نفسها وحيدة في الشقة، ففتحت هاتفها. تلقَّت خمس مكالمات من إسلام ولم تعرْ انتباه لأيَّ واحدة منهم، فسألت نفسها كم الساعة، ونظرت لهاتفها لتجدها الثانية بعد الظهر. اتصلت بإسلام تدرى أنَّه سيطمئن عليها، ويسألها بعض الأسئلة التي سألها أمس، والتي سيسألها غدًا، فهو يريد التأكد من اكتفاء الثلاجة من الطعام، ومن نظافة البيت، وأنّ هناك مصباحين في البيت فقط مضاءين لا أكثر، وأن مُكيف الهواء مغلق لأنه جديد وملك لكارلا، وفي الخاتمة يسأل عن سارة إن كانت لا تزال تشعر بالتعب، يتعمد أن يكون سؤالها آخر سؤال، فهو لا يرغب أن يتعلق قلب المرأة به، لا يريد أن يغفل عنها هي الأخرى.

تابعت سارة النظام الجديد، فكانت تصحو عند بزوغ نور الفجر تُحضر الفطور لإسلام، و يتشاركون الطعام سويًا على نحو صامت، ثم تُعاود النوم. أخبرها أنّه ينقضي إلى المحل الخاص به، ولا يعود إلا على ميعاد الغداء، وبعد ذلك يرجع للعمل الذي ينتهي عند الثامنة مساءً، ويقضى بقيّة الوقت في المقهى تحت العمارة، ثم يصعد للمنزل ليغط في ثبات عميق، وبذلك سارة وإسلام لا يتقابلان في البيت سوى ثلاث مرات، و كل مرة لا تتجاوز النصف ساعة.

في الثلاث أيام السابقين، بينما كان إسلام في دوامة، فكانت سارة تخرج من المنزل دون علمه، فهي لن تتحمّل البقاء فيه طويلًا كعادتها، كما فعلت في المستشفى وخرجت من غرفتها، كما فعلت في

الصعيد وحاولت الهرب؛لكن هذه المرة تختلف، فعندما راحت لبيت والدتها في اليوم الخامس من ديسمبر طرقت الباب مرَّات، فلم تجد إستجابة، وعندما يئست من كثرة الطرق شمت رائحة عفنة تفوح من الشقة.

لم تصبر، ظنت أنها رائحة القمامة، أو أن مجرى المياه للعمارة قد تدمر، أو انكسر، وضعت ألف احتمال واحتمال بعيدًا على أن تتواجد جثة والدتها داخل شقَّتها، وعندما نزلت من العمارة أكدت على حارس العقار بشأن الرائحة، فأخبرها أنه نظَّف السلم ومدخل العمارة مرات ولا توجد مشاكل في مجرى المياه، لكن سارة رحلت، ولم تتساءل كثيرًا عن سبب الرائحة، اكتفت بسؤال جيرانهم، عائلة شريف الضابط عن والدتها، فأخبرتها ابنة شريف أنها خرجت ولم تَعُدْ، لا أحد يدرى أين تكون.

كانت عيني ابنة شريف تشتعل بنار الحقد، تضيق عينيها كالأفعي، نظراتها بعثت الرجفة لسارة حتى أن عادت إلى المنزل، ولا تزال تذكر كيف كانت نبرتها ونظراتها تتلاقيان في جملةٍ واحدة: والدتك خرجت ولن تعد.

في اليوم السادس من فصل الشتاء في ديسمبر، بدأت سارة ترجع للجامعة، التقت بمن تعرفهم هناك، و لكنها لم تُرحب بأحد، لم تُبادل السلام مع أحد، فقد كانت جافة، وصامتة حتى انتهت من مبتغاها، وقامت بكشف أعصاب، فلم يكن هناك وقت مماثل للكشف غير هذا، فكارلا غائبة، ولا تُريد أن تعرف كارلا شيئًا عنها.

اكتفت بإقامة الكشف، ثم سجَّلت الطبيبة لها بعض النقاط: شعور بكهرباء تسرى في الجسد، نسيان، و صعوبة في السير، صعوبة في حركة العين، مواعيد الطمث غير منتظمة مع أنيميا، أرق، تعب. احتفظت الطبيبة ببعض الملحوظات، فهي تعلم أن تلك النقاط لا تُشير لمرض محدد بعينه، ولكن قد تحتاجها فيما بعد، أخذت تسأل سارة بعض الأسئلة:

- هل تشعرين بتوتر في الفترة الأخيرة؟ هل تتناولين مواد مُنبهة؟ هل أجريتِ كشف نظر في الفترة الأخيرة؟ مما تشتكين أغلب الوقت؟

أجابت سارة بوضوح على الأسئلة، فهي تدرك أهمية الصدق في هذه اللحظة. خُتم الأمر بأن أقامت أشعة مقطعية على المخ، ورحلت لتنتظر النتيجة غدًا، وهي لا تدرى ما يُخبئه المستقبل.

إسلام

عاد من العمل على المنزل، قبل ذلك كان اتصل بسارة ليُأكد عليها أنَّه قادم. دقائق من بعد الاتصال و كانا يجلسان على سفرة الطعام. إسلام على رأس السفرة، وسارة تُجاوره في الكرسي المقارب له.

سار مشهد الغداء على نحو هادئ، وبشكل صامت مميت، لم يتبادل الطرفين الحديث حول شئون الحياة كالأيام السابقة، كان إسلام قد حصل على بطاقة سارة دون علمها، لا يدرى كيف فعل هذا، فهذا غير أخلاقي، هو يعلم ذلك، لكنها الطريقة الوحيدة لكي يسأل عن سارة دون أن تتردد وتشعر بالقلق، فهو يشعر أن هناك قصة وراء تشرُّدها، لكن لن تكون غامضة لوقت طويل.

أتمَّ الضابط تحرياته وتوصل للآتي (سارة اسم مستعار يعود لأشهر فتاة ليل قضت سنتين في شارع الهرم بين الرجال، والملاهى الليليّة. سارة تحمل الجنسيّة المصرية، والسعوديّة من والدها. سارة طالبة في جامعة القاهرة كُلية الطب البشري، توقَّفت عن الدراسة منذ أن كانت في عالم الليل، وقدَّمت إجازة مرضيّة. سارة تحمل علامة في سجلَّها المرضي عن جلسات نفسيّة قامت بها مع *طبيب نفسية وعصبية*.

لم يستطع الضابط جمع معلومات مهمة غير ذلك، فلم يصل له وفاة والدة سارة لعدم توفّر له أدلّة عن تصريح الدفن، فلم تُكن دفنت حتى ذاك اليوم، قد مرَّ إسبوع على تواجد جثتها العفنة في الشقة. أرسل الضابط تقريره إلى إسلام في طرد مع أحد العاملين في مكتبه بُناءًا على طلب إسلام الذي كان منشغلًا الفترة الأخيرة بمشكلة سببها له محامي صديقه، ذاك المحامي الذي طلب من إسلام أن يبحث له عن وظيفة، وبعد ذلك أتاح إسلام له مكانًا في دار أيتام يتولّي إدارته.

كان ذلك منذ شهر، وتفاجئ إسلام بالأمس أن إدارة دار الأيتام تقوم بتوزيع التبرعات لسلطات سياسية، وإدارات عُليا، تكتَّم المحامي هذا الأمر حتى تأكد منه، وبعد ذلك دخل إسلام في معضلة حول قضية فساد تدور داخل دار الأيتام، ولولا هذا لكان كشف حقيقة سارة وطردها في الشارع.

كسر إسلام حدة الصمت بصوتٍ رجولي:

– أراكِ مُتعبة اليوم، يمكنكِ أن ترتاحي، لن أمانع، سأجلس معكِ قليلًا.

واجهت صعوبة في بلع الطعام، فرفعت حاجبيها، وقد توردّت وجنتيها كأنما أحد ما صفعها.

– آه! هذا لطفٌ منك؛ سأكون بخير، لا تهتم. . .

لم ترغب في بقاؤه، هل أدرك من حارس العقار أنها تخرج من المنزل؟

قالتها ببطء، وهي تشغل نظرها بالتحديق على حركة يدها، وهي تُقلب في الصحن. لا تتفهم السبب وراء لطفه الزائد، فقد بدأت أفكارها تتجه للإباحية، وكان إسلام مصدر قلقها أينما تواجد معها.

سارة

نهضت من على السفرة في عجز لثُقل قدميها، وهي تشعر أن ركبتيها محمل عليها كيلو من الجرامات تُقيّد حركتها، و لكنَها حاولت السير، وبين الجيء والراحل كانت ترمق إسلام جالسًا على الأريكة القرمزية أمام التلفاز. لا تدرى ما يُشاهده، فتناهي إلى مسامعها صوت أخبار، بالتأكيد هناك أحداث سياسيّة تجري، أو مبارة جديدة، لكنها لا تُتابع.

انتهيت من فرغ الأطباق جميعها في الحوض، وتكاسلت عن غسلهما، فيما بعد قد تُفكر في ذلك، ولكنها لم تكن تعلم أن التعب سيزداد، وبعد ذلك لن تستطع التحرك من على الكرسيّ وستُعاق.

لفّت رأسها من فوق كتفها، وهي تتكأ بيدها على رُخام المطبخ، عابسة من الألم:

- هل أُحضِر لك شيء؟

لم يلتفت إسلام لها، هزَّ رأسه المكتظة بزحمة المشاكل، اكتفي بكوبٍ من الشاي، وإناء واسع من البلاستيك مكتفي بالمياه المشبعة بالملح، يخفض قدميه فيهما بعد كدّ العمل. قد رأت سارة أن فاطمة الصغيرة فعلت ذلك معه في الصعيد قبل رحيلهما، كان الوحيد من بين أخوته الذي يطالب بإناء الملح.

لا تدرى سارة عن قصة إسلام، وزوجته، وقصة الطلاق التي جرت بينهم، إنه يقوم بين اليوم والآخر بكل شيء يُذكره بها، فربما تعلق قلبه بها، وهو لا يخطر أن قلب قد يسع لهذا الحب، حب ملأه حتى الأطراف. سارة تُذكره بتلك الفتاة، ذاك الشعور بحمايتها وإحتواءها يلحُّ عليه. يسترجع صوت زوجته السابقة وهي تُهاتفه ليعود لكنه، وبقسوة قلبه يرفض، ولئلا تدوم قسوته، حسمّ الأمر.

وجود سارة معه جعله يُفكر في الزواج، تدبّر الأمر سرًا، لكنه غاب عن المنزل حتى يصرف التفكير في ذلك، فصار يُجالس قهوته، ويؤانس وحدته، وما بين الحين والآخر تخطر في ذهنه فيتصل بها، لا يجد سؤالًا سوى على صحتها، فيجعله في آخر المحادثة كي ينسج معها حوارٌ آخر، وهكذا ينتهى الكلام بينهم دون أن يضيف شيء.

لا يدرى كيف يفكر بسارة، ولكنها أحبَّتهُ دونما يعلم. أخذ يتفكّر في الزواج بها لكن قرر أن يكون الأمر سرًا دون عِلم أحد، فهو ينتظر تقرير الضابط على حالها وأسرتها، بعد ذلك قد يتخذ قرار يُغير من حياته البائسة.

سارة

تربَّعت جوار إسلام في تعب، فاتسعت الأريكة لكليهما. كان مزاجها سيء كأي يوم؛ لكنها استطاعت الانتباه لِمَا يشاهده في التلفاز، فرأت إسلام يقوم بالرد على الصحفي، لم يكن كريم الصحفي. سألته سارة عن سبب المكالمة الصحفية التي قام بها على التلفاز، فأفطنها بشأن دار الأيتام، تلك المشكلة التي تسبب فيها منذ ساعات. أضافت له في نهاية الحديث الذي لم تسمع منه شيء: تبدو وسيمًا.

قالتها وكل خلية فيها تحي باسم الحب. لم ينتبه لكلمة وسيمًا وهو يحدق للشاشة، عينيه مسمرة لا تدور. بدا لها أن هناك أمورًا تصرخ في رأسه، لا تعلم أمرًا واحدًا منهم؛ لكنها تنتظر بفارغ الصبر خروجه كي تفتح علبة السجائر خاصتها التي ابتعتها اليوم دون علمه. أدركت مدى نفوره من رائحة السجائر عندما تذمر من سجائر نور في الصعيد. ألحَّت أصابعها، والنكوتين يُفرغ من جسدها، وتمنت لو تصرخ، وتكف أفكارها عن الحك في رأسها لتعاطي السجائر.

كادت سارة أن تُفاتح إسلام بشأن الزيادة في مرتبها، فألف وثلاثمائة جنيه مبلغ لا يشبعها، فهي تريد الأكثر من هذا في اليوم الواحد ليس في الشهر. كانت تجني من ملهي الهرم أكثر من ذلك! لعلها غفلت عن شعور الإعياء، والقيء كل يوم بسبب مالها الحرام؛ لكنها دُهشت بإتصال لإسلام الغير متوقع.

اتصال جعله يهب من مكانه، ويترك المياه المالحة، ظل يجول في الشقة، ونظرات سارة تتبعه حتى أن انتهى، شاهدته عابس، هناك مشكلة، ما هي؟ لا تدرى، لم تنتبه لِما قاله بقدر ما كان تعبيرات وجهه تُشيء كمن جرع زجاجة من الحامض. أعتقدت أن هذا يخُص دار الأيتام.

واجه إسلام صاعقة لم يحسب لها، فبيته الخاص في الساحل الشمالي بالأسكندرية تركه للإيجار هذه السنة بعد أن قلّ تردده لهناك، اتصل رجل أمن القرية به ليعلمه أن هناك مجموعة من الشباب، والصبايا متجمعين في بيته، و المفتاح معهم من صديق إسلام الذي أدعي أنه سوف يؤجره منه.

كان إسلام في حيرة بسبب تلك الضجة، والمشاكل التي جرت في البيت كأنما وقع في دوامة، فالمستشار المجاور للبيت في طريقه الآن لرفع قضية على صاحب البيت، ألا وهو إسلام بسبب الضجة الصاخبة.

طالع إسلام سارة، نظر لها نظرة طويلة جعلت جسدها يرتجف، تساءلت عن المكالمة، لكنّه تلاشي من أنظارها، فقبع في الشرفة يقوم بعدة اتصالات ليسيطر على الوضع في بيته بالأسكندرية. دام الأمر لساعة، لكن الوضع مازال كما هو حتى خرج إسلام من الشرفة صارخًا: سارة!

انتبه لنبرته العالية، كان غريبًا ومخيفًا، ولكنه هدأ من روعه.

– سأذهب للأسكندرية، هناك مشكلة.

– هل أذهب معك؟

– ستستطيعين؟

أومأت وقالت في براءة:

– أنا بخير.

دخل إسلام لغرفته ليغير ملابسه، فيما كانت الأخرى تفعل نفس الشيء في غرفتها، وكان بيت الأسكندرية يعُج بحسناوات الليل، من لهم معرفة بسارة، وهناك سيجحب عن سارة كل ما هو باطن.

الإسكندريّة؛ في المساء

سارة

ترددت جملته الأخيرة في طنين أذنيها وهي تخرج من بيت كريم:

– سأُصلي وأُحضر قهوتي قبل أن أُغادر.

ارتديت سروال جينز أسود، وقميص سماويّ، طلت شفتيها بأحمرٍ حار، ثمّ همّت خارج البيت، واستندت أمام سيارته تنتظره. سمح لها الوقت بأن تنفث سيجارتها في الهواء دون قلق من إسلام، فقد اعتادت على أن يرتشف قهوته قبل الرحيل من البيت، فيما عدا الصباح. الساعة الخامسة بعد العصر، سيستغرق الوقت إلى بلد الإسكندر ما يقرب من ثلاث ساعات.

كانت ترجو ألّا تكون قيادة إسلام بطيئة؛ لأنّ هذا سيُصيبها بكآبة. لا تفطن إن كانت ستبيت في الجيزة أو الأسكندرية، فسحبت نفس طويل عندما شاهدت إسلام ينزل من المصعد، وألقت السيجار تحت قدميها حتى أفسدتها، فأماتتها بقدمها؛ لتُطفئ حريقها.

جلست جانبه على مقعد جلدي، وارتاحت فيه. تجاهلت ألم ساقها، بقيت مستيقظة لنصف ساعة في سيارته لا تعلم شيء عن المشكلة الأساسية في الإسكندرية، لو علمت لترددت في المجيء؛ لمعرفتها القوية بأن بسنت أصلها من المحروسة، فمن السهل أن تتواجد هناك.

استلقت سارة على الكرسي بعد أن أزاحته للخلف، فغرقت في نومها، ووقع عنها الغطاء فكشف عن نهدين ممتلئين من تحت قميصها، نهدين لم يرَ مثلهما من قبل، وتلك الشفتين المكرزتين تُناديه، وبات إسلام ينظر للطريق في تردد.

إسلام

كانت تستغرق الرحلة من الجيزة لعروس البحر وقتًا أكثر مما توقّع إسلام، ومن عند بوابة الإسكندرية يحتاج إلى تجاوز أكثر من سبعين كيلومتر حتى يصل إلى بيته في الساحل الشمالي.

هناك وعندما توقف بسيارته أمام بوابة القرية بدأت سارة تستيقظ على صوته الرجوليّ، لَمَا صحت ناظرت حولها، فشاهدته يقف أمام السيارة يتحدث مع رجال الأمن. كان يهذبهم ويعترض عما جرى. بدا عصبي إلى حد لم تشهدْه من قبل، فكانت تظنه من هؤلاء الرجال الهادئين. جذب إسلام رجلين من الأمن ليجلسان في الخلف، وقاد داخل القرية متجاوزًا بيوت غاية في الجمال. تأكدت سارة أن كارلا كانت مُحقة بأن تثق في ذوقه، وتساءلت سارة كيف يكون شكل الأثاث في محلّه، انْعطف إسلام أمام بيته، فنظرت سارة من خلال النافذة، إنَّه يبعُد عن السيارة بأمتار حتى تستطيع الدخول وصعوده سُلَّمه، لكنها تمكنت من سماع صوت الصخب والصياح، رأت مجموعة كبيرة من الشباب، والصبايا داخل البيت، فجميع الأبواب *مفتوحة، وجميع الأنوار مُضاءة كحال بيوت الدعارة*.

طلبت سارة من إسلام أن تبقى داخل السيارة، لم تتمكنْ من إخباره عن الألم الذي تشعر به، وأن قدماها بدا تتلوّى، وكانت من الوجع تصرخ في السيارة لكن لا سامع لها. دخل إسلام منزله، وكان اقتحامه مُفاجئًا لهم، فساد صمت مطبق في البيت بعد أن دخل.

بردت الحفلة، وبدأ رجال الأمن يطردونهم. أما عن إسلام، كان متوقع منه أن يغضب، ويتعصب كي يخرجهم، لكنه تلعثم وجمد مكانه، فالصبايا هنا يعرفونه، إسلام ليس غريبًا، فقد كان يطل على

ملهى في شارع الهرم لفترة، وتوقَّف، كانت طلَّاته السبب في طلاق زوجته، وشعوره بالذنب يطارده من كل الجهات.

أطرق إسلام بصره في الأرض حتى خرج الشباب، ورمقته الصبايا بابتسامات مبطنة حتى أن رحلن دون ضجّة. يعلم إسلام أنهم سيعاودون المجيء.

سارة

شاهدت أناس يخرجون من البيت، ويمرون أمام السيارة. رنت إليهم النظر، حاولت التعرف على أحد منهم فلم تتمكَّن. بعدئذ، دخل إسلام السيارة ليجلس جانبها، فكانت تشعر بالألم، وأخبرته عن رغبتها في الرحيل. الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وهم في طريق عودتهم للجيزة، تلقَّت سارة إتْصالًا من ياسر. كانت تعرف أنَّه رقمه، لكنها لا ترغب في الرد، وأغلقت مكالماته، فعاود الاتصال لمرَّات. ارجعت رأسها للخلف، وتنهَّدت في ضجر قبل أن تُجيب. قالت في صوت أجش: ياسر، نعم؟

قال بعد تردد: سارة؟ ظننتُ أنكِ بسنت. . . آه، كيف حالك؟ لا أدرى أين أنتِ الآن، كارلا أخبرتني أنَّكِ ذهبتِ للصعيد، هل هذا صحيح؟ حاولتُ الاتْصال بكِ لكن هاتفُك معطل، يؤسفني إخبارك أنّ نتيجة الأشعة التي قُمتِ بها غير واضحة، الطبيب يطلب منكِ أن تذهبي إلى مركز أشعة أفضل من القصر العيني، وتقومي بأشعة رنين.

أطبقت سارة في صمت طويل تنصت لقوله، ثم سألته: الطبيب لم يستنتج شيء من الأشعة؟

حدَّقت سارة إلى الرجل المجاور لها في تردد، فلم يبدو مهتمًا، خشيت أن يعلم إسلام شيء عن مرضها، فهي ستحاول تضليله فيما بعد.

قال ياسر: في الواقع لا شيء، لكن الأعراض قد تُنبأ بخطر.

– شكرًا لك يا ياسر، هذا لطفٌ منك!

أغلقت سارة الهاتف لتسمع إلى أسئلة من إسلام لا تنتهى، إذ سألها:

– ما كان هذا؟

هزَّت سارة رأسها، وهي تشيح بنظرها إلى الشارع المظلم من خلال النافذة:

– لا شيء، مجرد أشعة قمتُ بها.

قطب جبينه:

– أشعة؟ حسنًا، كيف كانت النتيجة؟

لفت رأسها نحوه، لم يسألها حتى عن سبب إقامة تلك الأشعة، كأنّه دارس الطب ويدرى بنوعية الأعراض. لا تُريد أن يعرف شيء عن إدمانها للكحوليات، فسيطلبون منها تحليل دماء.

هزّت سارة، وهي تشعر أنها أخفقت في أن تبوح له بشيء:

– حتى الآن لا أعرف، أخبرني زميلي أنَّ عليّ الذهاب إلى مركز أشعة لإقامة أشعة رنين.

أطلقت آهة، ثم أردفت في ضجر:

– لكن الأشعة مُكلفة بعض الشيء.

– كم المبلغ؟ ألف؟ ألفين؟ هذا لا شيء.

عاودت سارة التحديق إليه، لم ترَ رجلًا يتحدث عن المال بهذا العبث بقدر زبائن العرب في الملهى.

أرادت أن تمنعه عن ذلك، وقالت مبلغ خيالي لا يطالب لأشعة الرنين حتى يصمت.

– ثلاثة آلاف.

كانت تشعر أنها تكذب، فأضافت: لستُ متأكدة.

هز إسلام كتفيه غير مبالي:

– سنذهب غدًا لأقرب مركز أشعة، و سيكون كل شيء بخير، هذا بسيط.

زمَّت سارة شفتيها بإنزعاج، فهكذا قد يعرف أنها مُدمنة كحوليات. لم تدرك أنَّه سيتلقي غدًا تقرير الضابط، ويكشف عن خبائث حياتها، هذه الزيارة ستقلب حياة سارة رأسًا على عقب، لقد سترها الله مرة، ولكن دنائتها لن تختبئ هذه التارة.

8 من ديسمبر 2002

إسلام

اليوم أدركت سارة أنها بصحبه رجل ذو طابع سخي، يطلق يديه على أي شيء تُشير سارة عليه بعينيها.

لم ترغب في الحركة هذا اليوم؛ إذْ مزاجها لا يسمح لها سوى بالمكوث في البيت، كما أن حركاتها أشتدت صعوبة عن أي مرّة سبقت كأنّما صبت بأسمنت. لفّت برأسها، وأمسكت بكوب المياه بين

يدها، و لاحظت كيف كانت أصابعها ترتعش. تأثير قشعريرة الكهرباء التي تغزو جسدها، حاولت تغطية شعورها بالارتباك بالحديث، لكن بلا فائدة.

كانت مع إسلام في مطعم لمأكولات البيتزا، وكان يجلس قابلها، لا تنظر إليه، فقط تسمع إلى القصص التي يرويها عن نفسه، إنّه فخور بلا شك، لكن ليس لديها من الطاقة ما يسمح لها بأن تسمعه، بالتأكيد قصص ممتعة، فحاولت التركيز معه، وأبقت نظراتها عليه؛ لكن ذهنها حاضر في عالم آخر. لم ترد أن تكون هنا في الوقت الحالي، ولكن أصر إسلام معللًا أنها متعبة. قد بدا وجهها أشد شحوبًا، ونحافة عما كانت في الصعيد.

طلب لها فطيرتين من البيتزا المكسوة بالجبن، والخضار الطازج، استطاعت أن تشم رائحة توابل خفيفة المتناثرة كقطرات العطر حولهم، وباتت تفكر في إسلام على نحو مختلف. إنه رجل ثرى بلا شك بعد ما رأته سارة منه اليوم عندما بدّل بين سيارته وسيارة أخرى، وبعد أن قاموا بالأشعة، دعاها لشراء عطر وأدوات تجميل. تفاجأت بمعرفته ببعض أسماء الماركات الخاصة بالنساء، فأيقنت أن له ماضى سابق مع امرأة، ماضى لا يفتح صفحاته لأحد، ثم بعد ذلك اشترى كم كبير من الطعام أعترضتعليه لضعف مقدرتها على تناول شيء، ولكونها صائمة رفض حجتها.

قد بدا لها غير بقية الرجال الذين عرفتهم، فتميز بذلك اللطف، والود في قوله وفعله. لطالما كانت امرأة تتبع قلبها حتى تدمرت حياتها،و فجاء هذا الهاشم يصلح خرابها.

همس شيطانها: قبلة واحدة لن تضر.

لا مانع لديها بأن تسمع إلى قصصه البطولية، و جميع الأفكار التي خطرت في بالها عن سلوكياته معها. يحاول أن يعرض نقاط قواه من المال، والنفوذ، والكرم، والعاطفة. إن تملك قلبها سيفرض سيطرته، ويتحكم بمسار العلاقة، وهو يريد منها فقط أن تبدأ بالخطوة الأولى، ويكشف أوراق لعبه.

تراجعت سارة بمقعدها للخلف لمجرد أن خطرت تلك الأفكار في رأسها، تراجعت مسافة صغيرة لم يكدْ يلاحظها، صارت تُحدق لشفتيه محاولة تخيل حبيبته السابقة، وهي تقبله على نفس النهم السريع الذي يتكلم به.

وضع أمامه بيتزا محشوة بالجبن، وعلى سطحها قطع لحم مختلفة على حسب رغبته، لم تتعجب لذاك النوع من الطلب، فاللحم يجعل من الإنسان أكثر عصبية، أكثر ضيقًا، كثرة الطعام دلّتها على

شهوانية الرجل الذي تُجالسه. داعبت أطراف أصابعها وهي تُفكر، فكانت قلقة بشأن تحليلها النفسي إن أخفق في تقيم إسلام، لكنها لم تضع أيّ احتمالات أقوى من ذلك.

عندما وصلا للبيت، أتخذت خطوة جريئة نحو إسلام. انتظرت في الصالة، بدت مترددة بشأن الأفكار التي راودتها، وقلق أعضائها الذي اجتاحها منذ فترة، تابعت إسلام بأنظارها حتى دخل غرفته، فتح مدفأته الكهربائية، فأدركت أنه سينام.

دخلت الغرفة وراءه صادة الباب عن الإقفال، فحدق إليها بعينين ضيقتين، ودنت منه حتى اختلطت أنفاسهم.

استطاع أن يشعر بأنفاسها الدافئة تكوي وجنتيه، قلَّب النظر في عينيها، وهمس: ماذا؟

تلك الشقراء جعلت عاصفة تجتاح دقات قلبه، فهمست أمام شفتيه: أُريدك.

ظلَّ إسلام جامدًا لكن قلبه يدق في جنون، ووجه يحترق. حاول أن يدفعها أو يقاوم، وباءت محاولاته في الابتعاد بالفشل. داعبت أصابعها سترته حتى بدت تخلعها من عليه، وتلك العيون تصهره بحدتها، لم تنزعها من عليه.

حاولت إغواءه بممارستها الخافقة، فكشفت عن فروجها، واستلقت، كانت أفكار إسلام تشهد فوضى عظيمة، وعندما خلعت عنها الغطاء لم يستطعْ التهرّب منها، فتنهد تنهيدة يستجمع فيه ما تبقى له من قوى، وقد لانت أعضائه وارتخت أعصابُه؛ لكنّه، استدار آبيًا أن يخوض معركة جسدية.

سارة

كانت تعتقد في غمرة عواطفها أنه يشاركها أحساسها الذي يلتهمها؛ لكنه كان جافًا أكثر مما توقَّعت، كان جافًا بشكل لا يُصدق.

قطعت مسافة واسعة خارج المنزل، سارت بخطى غير متزنة قدر ما استطاعت أن تسير. كانت الدموع تنجرف على وجنتيها، وقلبها المنكسر، وإسلام خلفها في الشارع يتبعها، لا يعلم ما جرى، أفعلت هذا لأنّه رفضها وفقط؟

الطقس بارد، والساعة متأخرة. كلاهما في الشارع لا يراهما سوى المارة، وأمرهما بدا غريبًا، وملفت بصورة مزعجة لكليهما. شد إسلام سارة من ذراعها، ولفها نحوها، فأصبحت بين يديه، وتحت مواجهته.

تنفست أنفاسًا متقطعة من رجفة موقفها، لاحظ كيف أنّ ملابسها ليست معدلة، سوتها عندما لمحت عينيه تسيج النظر في مكان غير مكانها، وأشاحت بوجهها بعيدًا، فكانت أشدّ غضبًا والحديث معها في تلك اللحظة لن يُناسبها.

سمعته يقول: تعِ معي.

هذه المرّة لم تستطع منع نفسها من النظر إليه. كانت حدقة عينيها فارغة، ونبرتها صارخة.

– ومن قال إنني أرغب في ذاك؟

– هذا مكتوب على ملامح وجهكِ كلها.

أحست أنه يتحدث إليها بعجرفة وحاولت الابتعاد عنه. أيراها شفافة إلى هذا الحد؟ أم أنه يعرف تأثيره على النساء؟

دنا منها مسافة صغيرة، وأردف محاولًا أن يكون أكثر رقّة خاصة معها:

– سارة، أعلم أن ليس لديكِ منزل، كفاكِ جنونًا!

لم يرغبفي إضافة أنّها امرأة لقيطة، أحس أنه سيعكر الأمر عما يبدو له، فأطرق بالصمت، يريد أن يلقى منها ردًا، و لكنها صامتة، تطيل التحديق إليه دونما تنطق بشيء لربما الصمت أفضل له، فمازالت تحتفظ بشظايا الغضب داخلها.

كتمت سارة أنفاسها بقوة، ومسحت بطرف يدها ما تبقى من أثر الدموع على خديها. نظرت أرضًا وقد عقدت أصابعها:

– حسنًا، وماذا تعلم عني؟ أنت لا تعرف شيء، فصدقًا جميعكم حمقي حتى أنا لا أعرف نفسي، من أنا؟ السؤال الذي لا أجد له إجابة.

وضعت يده على صدره، فأحست أنها تجاوزت شيئًا ما، كانت محاولة لدفعه بعيدًا، لكن وهنها خذلها: ابتعد عني، أنا فتاة سيئة السمعة.

كانت نبرتها خافتة كصوت سقوط ورق الشجر في الخريف. ضم حاجبيه متساءلًا: وما أدراكِ أنني رجل صالح؟

كادت أن تضحك، لكن مزاجها لا يسمح.

– لم أشك في غير ذلك.

قالتها، وقد استدارت لتسير في جنون، وخلدت أريج عطرها خلفها، ولم تتفوه سوى بشيء واحد: أنا فتاة ليل، هذه حقيقتي، فما هي حقيقتك؟

غابت غانية العتمة، وقد طالت غيبتها، لَمَا حاول أن يلتقطها من الظُلمة.

ثلاثةُ أيّام لم يجد لا أثرًا بعد أن اعترفت بحقيقتها أمامه، فقال أن الليل في صمتها ضجة، وفي سرها عالم أبكم(*).

(*): الرواية الصحيحة: هو الليل في صمته ضجة، وفي سرّه عالم أبكم. (أدب – عبد الله البردوني – الليل الحزين)

سارة

عندما يتحدثُ البعض عن عالم الدعارة، فأنّهم يذكرون في قولهم فتيات الليل، لِمَ لا يذكرون رجال الليل؟ بالتأكيد النساء هناك لا تُضاجع الكؤوس!

هل النساء تُثير الشهوة؟ هل سارة كذلك؟ على رغم العمر الذي بلغته سارة، والتجارب التي مرّت بها، وعدد الرجال التي عرفتهم، فهي بشكلٍ ما، لا تعترف بأنوثتها الصارخة التي يهام الرجال إليها.

لقد شاهد القارئ معي كيف أن بدأت حياة سارة قبل ولادتها، وكيف مضت حتى أن صارت في هذا العالم، في حقيقة الأمر، هناك الكثير ممن يشبهون سارة، سارة فتاة عادية، كل ما في الأمر أنها تعاني من مرض نفسي المعروف بالشخصية الدرامية(3)، مرض تصاب به النساء أكثر من الرجال، لعلها الإجابة الوحيدة التي تفسر سؤالي بالأعلى.

تنشأ الشخصية الدرامية منذ الصغر، تتكون نتيجة سلوكيات المجتمع حولها، فهي شخصية سريعة التأثر بالأحداث، تجيد التقليد، تميل للاستنساخ عندما لا يعجبها وضعها؛ لذا، كانت سارة تتلون ذاتها الطاهرة إلى بائعة هوى، لأسباب وتداعيات تعود في المقام الأول لحياة والديها، ثم ما أن بدأت تتغلغل مع المجتمع، وتمكث وقتًا في المدرسة، فبدأت تقلد الفتيات الذين يكسبون الصبيان، وما أن كشفت حقيقة والدتها حاولت الاستنساخ تحت اسم سارة.

سارة اسم يبعث عن السرور، لكن حامله أشقي خلق الله.

هناك أسباب أخرى لإكتمال صورة شخصية سارة، وهي التجاهل في الصغر، الإهمال في التربية الذي أدي إلى هشاشة قلبها، وميلها العاطفي إلى غير المقربين، البحث عن الحب، الحب ثُمَّ الحب، فالحب ملك روحها كُلها؛ إن لم يكن عالمها بأسره.

ستظل سارة حبيسة الألم الوجداني حتى تجد لها الشريك الأبديّ، ولو لآخر نفس في حياتها، من يتحمل مزاجها الذي لا يُطاق، من سيقبلها كما هي، من يراها كما أشارت لطارق؛ لكنها لم تكن شفافة معه؛ تفتقد سارة للإدراك، الوعيّ الذاتي، التعمُّق في نفسها البشرية حتى أنْ خذلتها الأبجديّة، ولم يصل المعني العميق للسامعين، وكان الناس ينظرون إليها بعينين، وأرادت أن ينظروا لها بعين ثالثة عين لا ترى سوى ما في باطن الإنسان.

---

(3): الأسمُ العلميّ للمرض: Histrionic personality disorder (HPD)

أرادت أن يشعروا بها قبل أن يشعروا بأنها تستعطف مشاعرهم، أن يسمعوا لدقّات قلبها قبل سماع ألفاظها عن سَفه. أن يشمُّوا شذي عطر روحها قبل أن يشمّوا رائحة نبيذها، أن يتذوّقوا كلامها لِمَ فيه من رسالة قبل أن يتذوّقوا القُبح من حديثها عن نفسها، فتكون جميع الحواس مسخرةٌ لها، وبطريقة ما، سيدركون ما بداخلها، فيعرفون من هي. لا هذا ما عاشته، ما أن رغبت في الحصول على الاهتمام، بشكل ما، و لكنّهم يرونها فقط فتاة ليل. انظروا معي لقول (فتاة ليل) فإن كانت (فتاة) ترمز للشباب، و(الليل) رمزٌ للظلام الدامس حيثما تتواجد سارة، وتظهر كالخفافيش. فتاة ليل لا تعني كونها أنثي متزوْجة، أو غير عذراء، فهناك حالات متواجدة، حتى الآن داخل هذا العالم يتزوجون، ويهجرون عائلتهم، ويحتفظون بعذريّتهم ويتمتعون بكثير من المرح، وهناك من يلقي برضيعه أو يقتله.

هناك حالات مُتعددة، وحينها يختلف الرمز، يُطلق عليهم ساقطات، أو سحاقيّات، أو عاهرات، أو مومسوات هكذا عندما نتحدّث عن الدعارة الكلمة التي تُضاد التعليم، يظُن العامّة من الناس البعيدين عن هذا الكوكب الشقيق أنّ أغلب الشباب، والصبايا أصحاب تنسيق منخفض، فهذه خرافة لا شكْ.

تمتاز الشخصيّة الدرامية بذكاء مرتفع للغاية، وتفوّق في المواد المُعقدة كالفيزياء، وهو ما يُعطي إشارة لكون سارة ستشُق طريقها إلى النجاح منذ صغرها، أينما تواجدت في الواقع، ومثل سارة تُشاهد أمثالها من الكثيرين ممن حصلوا على شهادتهم من كليات قمة التي سكنت على الرّف بسبب العوامل النفسيّة.

منذ أن فارقت سارة إسلام، ومنذ هذه اللحظة، قلّبت صفحاتها، وكتبت لها بداية جديدة، وبدأت بكلمة واحدة، وفي سطر واحد، وفي صفحة واحدة، وفي كتاب واحد، لنفسٍ واحدة كانت في يوم ممزقة مشتتة، فالعددُ واحد يجمع كُل شيء ولا جامع له، وكانت توبة سارة أغرب الروايات التي مرّت على السامعين.

إسلام

ما هو الإسلام؟ مَن هو إسلام؟ إنّه كغيره من تلك الأسماء المخطوطة وراء أسماء مثل (دُعاء، آية، إيمان، عَبد الله، تُقي، ميرنا، هدى) لعلّ من تغلغل في هذا العالم الدامس شاهد أنّ هناك، رجال ونساء يحملون أسماء تحمل بواطنها معني دينيّ – أخلاقيّ، وكان أن اسم سارة الحقيقيّ واحد من الأسماء السابقة، وسببًا يجعلها تُمقت نسبها لأسم لا يعكس حقيقتها.

إسلام صورة أخرى من صور اضطراب الشخصيّة الدراميّة. إسلام صورة مختلفة عن سارة من بعض الصفات والسمات، لطالما عاش في الصعيد، ونشأت لديه فكرة سيئة عن الجنس، ثم تزوّج، وغادر. تغيّرت فكرته عن الحياة والجنس، لم تنشأ لديه العقدة كما حدث مع نور، لكنه حرر غرائزه ما بين النساء حتى فقد الحب تجاه زوجته، وطلبت منه الطلاق، لكنه غطى على ذلك الأمر بينه وبينها، و راحا يبحثان عن أسباب مقنعة للطلاق، وكانت أن أخبرت أهلها بحقيقته ولكن قضاء حياته في الجيزة منعهم حتى من الانتقام، فعاش بقيّة حياته هاربٌ منهم، لذلك يتردد قليلًا في الصعيد.

لم يحسُب للحاق بقية أخوته انه سيؤدي للفرقة، فكان هذا نقطة أخرى في صالحه، ولم يستطع أهل العروس الوصول إليه، ثم أن مؤخرًا عرف أنها تزوجت، ودفنوا تلك الفضيحة.

راح إسلام إلى الله بالمغفرة والتوبة متضرّعًا في خشوع المتشبْهين بالصحابة حتى أن اعترف بذنبه لأربع رجال صالحين، وداوم على الصلاة، إلا أن الحاجة إلى امرأة معه، وعاطفته، وكرمه، وإحتواءه لسارة، محاولاته لجذب انتباهها بالمال والكرم جلعته يخشي أن يتخذ خطوة نحوها فتجرحه، وظلّ ينتظر منها إشارة، لكن لم يتوقّع أن تحطم قواعد السلوك بينهما.

لدي إسلام أسلوب خاص في جذب النساء، فهو يشعر بالارتباك إن لم يكن مركز الإنتباه،و كل ما لديه من سبيل الحصول على النساء الماديات،و الملذات الحسيّة، كذلك سارة التي لا تختلف عنه، فالثنائي يملك إسلوب انطباعي بشكل مفرط يفتقر للتفاصيل حيث أنهم لا يجيدون التعبير عن مشاعرهم المتوهجة،و يتعثرون في الحديث بالرموز الخفية، وبواطن الكلمات، وكانت الصراحة أبرز السمات فيهم عند اللقاء الأول، وفي خلال التعامل الشخصيّ، لذا لم يتفاجئ إسلام من صراحة سارة معه، وعندما وقع تقرير الضابط في يده عن سارة، وكان من بين التقرير بعض الصور لها بين الرجال، وهي ترقص وتضحك، و أغلب الصور لها عارية ومُحاطة بحشد كثيف، مزّق إسلام الصور، لم يعبأ لماضيها، صبّ تركيزه على مستقبلها، على أن يجعل منها شخصًا آخر، باستطاعة الشخص المسرحيّ أن يُساعد الناس مثله، فكلاهما يحتاج للعلاج السلوكيّ.

لم يكن لقاء سارة وإسلام لقاء صادم بين فتاة ليل ورجل دين، بل كان لقاءً روحيّ. روحين متطابقين تلاقيان في نقطة واحدة. روحين أشد ما أن يكونا متفاهمين، ومتعمقين في شخصية الآخر.

يعكسان صورة الآخر؛ لكن لكون الشخصية المسرحية تتأثر بالظروف المحيطة حولها بحساسية، فهذا خلق فجوة شتات بين فكر إسلام وسارة.

15 من ديسمبر 2002؛ في القصر العينيْ

إسلام

أرهقه البحث عنها...

عندما رآها لم يستطع أن يرنو عينيه مباشرة نحوها، فكان ينظر إليها دون أن يضع عينيه على وجهها، ويتساءل عمّ شوه وجهها وأحرّق جلدها، وأفترس أطرافها.

كانت تستطيع التحدث، وتسرد ما جرى؛ لكنها لم تتفوه بشيء. أخذ يردد أسئلة صارخة كما لو ظنت أنه تحول إلى ياسر، فسألها عن صحتها. السبب الذي جعل خدها يحترق، وتلك الجروح العميقة في ذراعها الأيسر، وعندما نظر في عينيها أخذ الصمت يموج بينهما، لَمَا رأى حدقة العين في غير مكانها ما كان عليه أن يتفوه بكلمة، وابتلعته الدهشة، فأخذ يتأملها من أعلاها لأسفلها حتى شاهد آخرها، وكانت ساقها تلتوي، فأدرك أنها عاجزة عن السير.

خرج من الغرفة، وبحث عن الأطباء. كان كالثور الهائج يسير في الطابق حتى وقع تحت يده ممرضة، فسألها عن حالة سارة، فأدلته المداوية أن الحالة شبه سويّة، حتى أن قالت هذا فتصاعد غضبه أعالي السماء مخترقًا قوى السحب، فلم يستطع أن يصدق قولها، وبحث عن غيرها، من بين المارين من المرضي، والمحتاجين، اتصل بكارلا التي جاءت منذ يومين إلى الجيزة، وكانت بدورها جعلت إسلام يغفل في البحث عن سارة لِما كان يحضره لها من الأثاث والديكور.

اتصل بها، فأجابت في سرعة، و سمع صوت ضوضاء من حولها، كما لو كانت في مؤتمر، وتوقَّع أن تكون في البيت بدلًا عن ذلك.

– كارلا! أُريدك في شيء، لكن أسألك أن تبتعدي عن تلك الضوضاء.

وضعت الهاتف الخلويّ بين أذنها وكتفها:

– إسلام، كيف حالك؟ أعتذر لأنني بالقصر العيني، أنت تعلم.

تردد.

– سارة مريضة. . .

– سارة؟! أين هي؟

قالتها متفاجئة، وأجابها بنبرة باردة محاولًا إظهار اللامبالاة: إنها في القصر العيني. اختفت فترة، لا أعلم أين كانت، فأنا في مبني الأعصاب.

هزَّ رأسه واستدار يرنو ببصره نحو سارة حيث أن كانت في فراشها، ثم أردف في شيء من التوسل:

– إن استعطتِ المجيء، سيكون أفضل.

كارلا

كانت في القصر العيني عازمة على أخذ إجازة لفترة ثلاثين يومًا، حتى تُنهى إجراءات القران، وبعد ذلك تنتبه لأشياء مهمة، وهي نفسها قبل أن تفقد رونقها، يكفي أن فقدت حس الفُكاهة لديها.

تعلّمت شيئين في الفترة الأخيرة(أن تغلق هاتفها، ولا تجيب سوى التهنئات، وأن تترك لذهنها الوقت ليصفي فيه، وتتدبر شأن العيادة التي لطالما حلمت بها –في الفترة الأخيرة– أخذت كارلا تمر من بين السائرين حولها في الرواق، وتنظر بعينيها يمينًا ويسارًا دون أن تُحرك رأسها، كأنما شعرت بثقلها فوق جسدها، ولم تستطع منع نفسها من التفكير في طارق، فقد ظنت أن بجلوسها في بيت العائلة يومين ستتقرب إلى طارق ويتودَّد إليها. هذا ما حدث حتى أن أخفق في اسمها، واستبدل اسمها بسارة، حينها تثبتت في مكانها كالشجرة، حاولت أن تبتلع ما سمعته عندما عدل قوله، أكد على اسمها، ثم غير دفة الحديث بينهم حول أمور شتي لئلا تنتبه لسفهه؛ لكن مثل هذه التفاصيل لا تفلت منها، وبهدوء مررت ذلك حتى تأكَّدت من سوية خطيبها، حتى أن كرر نفس الخطأ القبيح أثناء نومه، وأطلق حروف اسم الغانية بنعومة أفقدت كارلا صوابها، فأفقدها عقلها، وما أدراه بكيد النساء!

في واقع الأمر كانت كارلا جاءت للقصر العيني باحثة عن سارة بعد أن أخبرها ياسر أنها طالبة في كلية الطب، وها هي قد وقعت تحت يدها.

طارق

تظاهر أنه تناسي سارة، فكلما حاول فعل ذلك يذكُر القُبل التي طبعتها على بشرته، كانت أقرب لمقطوعة موسيقية صاخبة، ودافئة في الوقت عينه، اختلجه ألف شعور وشعور، وهو يحيط بجسدها بين يديه. الليلة التي أمضاها معها بالحديقة كانا ينظران إلى السماء في صمت. قد خالج ذهن سارة أفكار خبيثة تجاه طارق، لكنها باعدته، وأبت أن تصنع شيء بينهم، فكانت أفكارها متأرجحة بين التوبة، والخطيئة، فراحت تقول: قُل شيئًا.

كان رده مخيبًا وكما توقّعت أن يقول، فقد قال:

– أنتِ جميلة؛ لكنكِ جميلةٌ فقط.

حاول التقرب منها، ولكنها دفعته، ولم تفعل، و لم يتولّد شيء بينهما في الحديقة.

لَما أدركت الأخرى أنّه لم يناظر سوى القالب الخارجي الذي يذوب فيه الرجال، فانتكست البائسة يائسة، وهو لا يزال يحمل بداخله طيّات إحساس الشغف الذي نما بينهما، لا يزال يرغب فيها لو تعلم.

سارة

اليوم الذي غادرت بيت كريم لم تستطع منع نفسها من النحيب حتى زال أثر مساحيق التجميل من على وجهها، وبدا مظهرها مريع وفظيع لا تسقط عليه عين إلا وأشاحت من قبحه.

سارت في الشوارع الضيقة، خطواتها مترنحة، تميل جوانبها لأقرب شيء حسي، فكانت تسير على نهج متعرج كالثعابين حتى أن ألتقطتها كلاب الشارع التي سرعان ما جردتها من ملابسها، وأبرحت الأذي في جسدها، ولكنها ليست كلاب إنهم بشر، لكن تصنيفهم لا يقل عن الثديّات الشرسة، ومهما أن حاولت الإفلات منهم فقط هوت بين مجموعة من الحيوانات الشرسة التي مزَّقت جلدها الشاحب، وهشَّمت لحمها حتى العظام، فتركتها رميم.

زاد دائها داء فوق الداء، فملأها حتى الحواف، وسكنت في ضواحي المدينة الصاخبة المخيفة ليلًا، فجحظت عيناها، ولم تشهدْ النوم. تعدّدت رؤياها اليقظة، وكانت أقسي من أحلامها، أشدَّ ظلمة، ألدّ غلظة، أجلّ جفاء، توسَّعت فيها الشنآن والشقاق.

كارلا

أخذت تسأل إسلام عن مكانه بالقصر العيني، وعندما وصلت تبدّل حالها، وانقلبت أفكارها، حينما شاهدت سارة دقَّ قلبها باضطراب، فاستحال غضبها إلى دهشة، وخالجها شعور بالشفقة والحنو، فيما أن كانت تُريد إزاحتها عن طريقها، لكن ما أن قيّدت أفكارها الشيطانية، وأسرتها بقوة حتى راحت تسأل عن حالة سارة، فما نطقت المليحة باسم الداء طالعتها كارلا بنظرات مندهشة، وقد ساد صمت مطبق في الغرفة لا يمزّقه سوى صوت المرضي المجاورين.

سألت كارلا لتتأكد مما تفكر فيه: أنتِ تدرسين الطب؟

كانت لتُضيف كلية الصيدلة في سؤالها، إلا أن تعاملات كارلا مع طُلاب الصيدلة يجعلها تتأكد أن ذهنهم لا يتسع لجميع أسماء الأمراض لسبب لا تعرفه.

أومأت سارة برأسها، فخطفت كارلا نظرة سريعة لإسلام حيث كان يجاورهم، وينصت لحديثهم.

كانت تدرك أن إسلام لا يعرف خطورة هذا المرض بمجرد سماع اسمه العلميّ، لكن سيحن الوقت لتخبره. تطلّعت كارلا للمحاليل المُعلق طرفُها أعلى، وطرفها الآخر في وريد سارة:

– كم المدة التي حدّدها لكِ الطبيب بالجلوس في المستشفى؟

لم تشك كارلا لحظة أنّ سارة قد تغفل عن معلومات الطب، فهي لا تفطن شيء عن تاريخها. أشاحت سارة بنظرها عن كارلا وإسلام، و نظرت في ركن بعيد، وناظرت روحًا تُطاردها، فارتجفت.

– من المفترض أن أرحل الليلة.

ارْتخت عيني كارلا، راحت تدفن يديها في جيوبها.

– تعلمين أن من قواعد هذا المرض ألّا تتعرضين للشمس أو الحرارة، تمتنعين عن تناول أي طعام غير صحي أو مصحوب بمواد حافظة، حاولي أن تبعدي عن مسببات القلق أو الضغط حتى لا تنتكسين.

عادت كارلا تتحدث بلسان الأم، فرمقتها سارة بنظرة حادة جعلت أوصال كارلا ترتعش، أحست لبرهة ما أنها أخفقت في قولها، لكنها راجعت كلامها لتتأكد أنّ ما من شيء خاطئ.

تصبح كارلا شخصية أخرى مع المرضي فتنسى لهم كل شر. استأذنت كارلا، وقد جذبت إسلام وراءها. خرجا يتناجون في همس لا يصل لمن حولهم من السامعين، نظرت إليهم سارة، بالتأكيد يتحدثون عنها.

إسلام

هذا المرض مُدهش!

ضعف جهاز المناعة، هلوسات، نوبات اكتئاب، نسيانٌ حاد، غضب، بكاء مع هذيان، قلق دائم، إرهاق، تشتت، انخفاض في الذكاء. هذا أشبه بالموت البطيء لدي سارة. كان بوسعها أن تكتشف ما لديها من قدرات؛ لكن بدا أنها ستفقد ذلك شيئًا فشيئًا. أعلمت كارلا إسلام بطبيعة هذا المرض النادر، وضرورة مُعالجته، في حين أنّ سارة تأخرت عن الكشف، فكانت النتيجة أن تُصاب

أطرافها بالشلل، وتموت في لحظات سريعة، لكن بعد الحادث الذي تعرضت له في الشارع سارعت بالنجدة، فنقلها فاعلوا الخير إلى القصر العيني.

أخذ إسلام يُراقب سارة من الخارج بين اللحظة والأخرى. احتسي كوب من الشاي الأحمر، وهو يذهب ويجيء في الطوابق بلا هدف. ذهنه مشغول بها، فيما هي كانت متربّعة في مكانها لا تتحدث مع أحد، ولا تتحرّك من مكانها، وكان الآخر يبحث عن طريقة ما ليُساعدها، أيظنّ أنّه الوقت المناسب ليُقربها منه، فيقدم لها ما ترغب ويضمها إلى منزله تحت اسم زوجته. أتري ستقبل؟

رجلٌ مشوشٌ! هكذا يكون عندما يتدبر شأن الزواج، سيكون خبرًا صادمًا لعائلته، لكن من يأبه؟ وللحظةٍ ما، أدْرك إسلام أنّه غارق في هيام هذه الأنثى حتى الأذن، وما لغرقه مُنجي.

15 من ديسمبر 2002؛ المهندسين؛ في المساء

- لِمَ هذا المكان؟

سأل إسلام سارة وهو يراقبها تستخلص شرائح الطماطم من شطيرتها. افترّ ثغر سارة بابتسامة ساحرة ذاب فيها، وتمني لو يطال في عمره باقيًا يحدق إليها: ألا يُعجبك؟ كانت الاختيارات مفتوحة لك.

بدت بريئة كالطفلة وهي تسأله.

اليوم لا تعلم أين ستكون بعد أن غادرت المستشفى بصحبة إسلام، لم تستطع مقاومة إلحاحة حول المجيء معه، كذلك ليس لها مكان آخر تُفكر فيه. واجهت بعض الصعوبات في السير بسرعة عاديّة، فكانت تمشي بتثاقل، وعن عينيها حجبتها بنظارة شمس سوداء الخاصة بإسلام، بدا شكلها مثير للضحك، وقد علّق إسلام أن عينيها لا تبدو بمظهر سيء كما تظُن إلا أنها تكره أن تلفت الأنظار بقُبحها.

ابتضع لها قميص ذا أكمام طويلّة باللون الأسود كما طلبت، لأنها أرادت أن تُخفي تشوهات جسدها إلا أن إسلام عارضها، فأتي بها باللون الأبيض حتى دار بينهم جدال لا بأس به وانتهى بالأسود.

عندما دخل السيارة ليُعطيها إيّاه طلبت منه أن يُشيح أنظاره بعيدًا، ويغلق نوافذ السيارة، حتى أن بدلت قميصها بالجديد الذي أدركت أنّه واسع عن المقاس التي ترتديه في الأغلب، وكان القديم مصيره الشارع، فأنطلقا بعدها إلى المكان الذي أشارت إليه بالمهندسين، وهناك طلبت منه أن ينعطف في

إحدى الطرقات ليبتاعوا شطريتين من اللحم، وما أن أحضر لها إسلام واحدة حتى خرجت من السيارة، و سندت عليها بظهرها.

تعلم أنها ستواجه مشكلة في الصمود على ذاك الوضع بسبب ساقيها اللتان تؤلمها، إلا أنه ستحاول. أخبرها الطبيب أن حالتها ستتحسّن خلال إسبوعين، وتتلاشي الأعراض؛ لكن عليها أن تواظب على علاج بالأدويّة لمدة لن تقل عن سنتيّن فالمرضلا يزال في جسدها، وكان العلاج الذي طلبه يبلغ قيمته مليون جنيه، فكان ذهنها منشغل بكيفية تدبُّر هذا المبلغ.

سارة

كان الحديث مع إسلام يدور حول بعض الأمور الخارجة عن حياتها، و لكنه وفيما بعد أخذ يسألها عن دراستها للطب، وحياتها قبل ذلك، حاول أن يتعمّق فيها، وباءت ردودها مقتضبة. لا تستطيع إنكار أنها تُريد إعلامه الكثير، ماذا تُحب وماذا تكره، بعض التفاصيل المملة قد تُغير من فتور الحديث بينهم من اللاشيء إلى كل شيء. قطع إسلام الحديث بينهم فجأة ليطلب منها هاتفها الخلوي، حينها ساد صمت مُفاجئ بينهم، وتسمَّرت عيني سارة عليه لتسأله: لماذا؟

ترددت حيال هذا الأمر.

- ما المشكلة؟

سألها وهو يدري بتجاوزه الحدود الشخصية بينهم. ابتلعت سارة ريقها الذي جفَّ لتوّه، وهزّت رأسها كإيماءة للرفض، فضمّ إسلام حاجبيه، وسألها في تهذيب:

- هل تُخفين أمرًا ما؟

تساءلت سارة للحظة إن لم يكن قد سمع قولها وهي تُخبره أنها فتاة ليل.

خيّم قلق مخيف بينهم.

- لا.

كان ردًا سدّ جوفه عن الحديث بشيء آخر. ماذا يُريد أن يرى في هاتفها؟ لا يوجد محتويات مثيرة سوي تلك الأفلام الممنوعة، بعض الصور لها عارية في سهرات جماعيّة، لن يجذبه شيء، لكنه رغم ذلك أصرّ.

إسلام

لم يطلْ إلحاحه حتى شعر بهاتفها بين راحة يده، فنظر إليها، كان يودّ أن يقرأ ما يدور في خلدها؛ لكن تلك النظارة حجبت كل شيء. قام بفتح حافظة الصور، ولاحظت سارة كيف كان يتجاوز الصور الخليعة، وعلى حين بغتة يتوقّف عند صورة، ويُطيل التحديق فيها، فما كان أن يدفعها الفضول لتميل برأسها نحوه فتشاهد أيَّ صورة يتوقف عندها. تراجعت للخلف لتسند على السيارة، وسألته في غرابة.

– أتُرغب في إقامة علاقة معي؟

انتبه إسلام لقولها، وقد حافظ على صمته، لاحظ كيف كان الجو مُخيّم حولهم وقد كسا السكوت الشارع كأنما ينتظر الجميع ردّه.

طالعها قليلًا، لكنها قاطعت حبل أفكاره قائلة:

– أليس غريبًا على رجل مثلك أن يهتم بفتاة مثلي؛ خاصةً أنّك تعرفُ حقيقتي. لِمَ تُحاول معي؟ لقد يأس مني الجميع.

سلب الهاتف بجانبه، ورمش بعينيه في محاولة لاستيعاب رسالتها، ونظر إليها بتهذيب مُحافظًا على صمته. أردفت الحسناء وهي تلوّح يدها بالشطيرة في الهواء:

– كان يُمكنك أن تُخبرني بذلك، فلست بحاجة إلى أن تعرض لي سُلطتك ونفوذك ومالك لأتقرّب منك، و لست بحاجة لأي من تلك المُغريّات في الواقع. كان من الممكن أن تكون أذكي من ذلك، أليس كذلك؟ على الأقل، لَما كُنت نزلت للشارع وبقيتُ في المستشفي.

دنت من أنفاسه قائلة: كنت ستوفر على نفسك الكثير.

خيّم صمت ثقيل بينهم، ثقيلٌ للغاية لم يتخلله سوى ضوضاء الشارع، وصوت المارة، وأنفاسهما.

كوّر شفتيه، ثم سألها:

– هل أنتهيتِ من طرح أفكارك الوَسِخة؟

بدت نبرته قاسية على حد لم تتوقعه سارة، فتراجعت للخلف في تردد تلوم نفسها. حفظت لسانها داخلها، وامتنعت على إطلاق الشتائم لنفسها، فشيءٌ ما يجعلها ترغب في الحفاظ على هذا الرجل، لتبقي علاقتهم دائمة.

شعرت سارة بحزن يختلج قلبها حتى أن تألّم داخلها، وكتمت دموعها.

رفع إسلام ذقنه قليلًا.

– تعلمين شيئًا؟ في ذلك اليوم، الذي رحلتِ فيه عن المنزل، كُنتُ قد بدأت أتدبر شأن الزواج.

بلع ريقه، وتصدّد عن الاعتراف بمشاعره أمامها، فلن يبدو ضعيفًا بقدر ما سيكون إضحوكة.

– الزواج بكِ.

أنهي اعترافه لتعلو نبرته بعد ذلك محاولًا أن يُغطي على ما قاله لتوّه.

– لكنكِ أغبي مما ظننت، تلك الأفكار التي ملأتكِ، هؤلاء الناس الذين يحيطون بكِ، هذا العالم الذي تعيشين فيه، وتلك المشاعر اللعينة، حياتك المتأرجحة دومًا بين الحياة والموت في كل لحظة، توقّعتُ أن تُخبريني بأنكِ... أيَّ يكُن؛ لكنني توقعت أن تُبعديني عنكِ لسبب ما لا أعرفه.

خلعت سارة النظارة من على عينيها، وثبتتها فوق رأسها، وهذه المرة جاهدت في إبقاء الدموع في عينيها، شاهدت إسلام يبتعد عنها حتى أن اختفي ظلّه بين الحشود، وضاع كل شيء لتتبدّل حياتها مرة أخرى!

20 من ديسمبر 2002؛ الزمالك؛ في المساء
سارة

دقَّ قلبها بعنف حتى كاد أن يتفتّت في صدرها، شعرت بطعم الحامض في فمها، والعرق يتصبب منها كملاكم داوم على التمرين لساعات، حرارة جسدها ترتفع فحطمت القياسات حتى أطلق جسدها نواقيس الحذر. استطاعت أن تشعر بأنفاسها تتقطع، أحدهم يكبس على فمها، ويعصر على صدرها بجبروت ليُميتها. شهقت شهقة كادت أن تفصم روحها عن أشقاق جسدها. وجدت نفسها على الفراش كانت في منزل بسنت بمفردها، تعلم أنّ لا أحد يدري بوجودها هنا أو بنسخة المفتاح خاصتها، خالجها شعور بالفزع لذلك الاحساس الذي أحسته متسائلة عما كان يكتم نفسها بهذا الغضب.

بالأمس كانت تشعر أن جسمًا ما يطوّق ذراعيه حولها، فارتعشت كسمكة في يد صيّاد، وأنتفضت من نومها في روع، وصرخت صرخة تحوّلت جُدران المبني لتُراب من حولها لصداها. قد عاودت على ممارسة الطقوس الأفاكة، رغم عدم إيمانها بها بشكل كامل؛ لكنها تؤمن بالجن والملائكة والشياطين والقرين، ولم تُعطْ تفسيرًا للأشياء التي تجري لها سوي أن هناك روحًا آثمة تنقرها.

نهضت من فراشها، كانت تشعر بالقشعريرة تسير في جسدها سريان الفيضان بلا رحمة. تفقدت غرف الشقة كأنما تراها للمرة الأولى، لا شيء مُثير، جميع الأشياء في مكانها بإستثناء الفوضي المُحدثة.

تناولت زجاجة من الويسكي أمس في المطبخ لتستيقظ في الصباح فتجد نفسها على السرير، لا تدري بما حدث، ومن فعل ذلك، إلا أنها عزمت على الرحيل، أوصدت باب شقة بسنت خلفها، ثم أخذت تشقُّ طريقها إلى إسلام.

إسلام

انطفأت شُعلة قضيّة دار الأيتام التي سُرعان ما ابتعد المحامي عن الدار وكسب القضيّة بإلقاء الإدارة في السجن، وإغلاق دار الأيتام إلى أن يحن وجود إدارة أخرى تتولاه، فيما كان المستأجرين في بيت إسلام بالإسكندرية أشدّ لُطفًا وأمنًا عن السابقين، ولّي حارس القرية بمشاهدة سلوكيات المستأجرين لكنّ الأوضاع مستقرة في الفترة الأخيرة وعاد العمل لِما هو عليه، وباتت حياته أشدّ مللًا عمّا توقع أن يكون أثناء غياب سارة، لم يُكلفْ نفسه بالبحث عن الغائبة، لكن التفكير فيها قتله قتله!

كانت الساعة الثامنة، وقت رحيل جميع الموظفين، يظل إسلام ساعة إضافية في المحل للزبائن المهمة، أو لمقابلة بعض الأصدقاء، واليوم لم يكن لديه زائر كما كان أمس. كُتب كتاب كارلا وطارق رغم كل شيء، وأصبح مرور العمل أهدأ من ذي سبق بعد أن استقرّوا في منزل كريم الذي سُرعان ما كُتب باسم طارق واشتراه منه.

أخذ إسلام يسترجع بعض الصور التي أبصرها في هاتف سارة، جاوز الصور التي توقّع أن يجدها، وصبَّ تركيزه على واحدة من الصور المناقضة؛ إذْ رأى سارة تقف بزاوية مائلة للكاميرا، تكتسي بقميص أسود قصير الكم، بدا واسعًا عليها كأنه ملكٌ لرجل، ونصفها التحتيّ غير ظاهر في الصورة، كانت ترفع ذراعيها للأعلى، ويديها تطوّقان مؤخرة رأسها، وجهها مرفوع للسقف، ترنو لهدفٍ ما، شعرها ملفوف للأعلى، كان مُفحمًا دون صبغة، واجه تعسر في البداية ليدرك أنها سارة، لكنه شاهد صور أخرى مماثلة لمثل الخلفية والملابس ولون الشعر، وكان ما استوقف اهتمامه تلك الكدمات والجروح التي كست ذراعيها ولوّنت جلدها، إصابات لم يجدْ لها تفسيرًا، فهو لا يعلم بشأن جابر القواد وسلوكه العنيف معها.

صور أخرى كانت مُشابه، صورة لشفتيها وكانت زواياها زرقاء ممتزج بالحمرة، عروقها مُتصلّبة، والجروح على شفتيها تنزفُ دمًا، اعتصر فؤاده وخالجه الحزن مدركًا حياة البائسة وما لاقته.

سارة

بنيت محادثات جمّة في ذهنها حتى ملأت رأسها بخيالات ورديّة بينها وبين إسلام، عازمة على شرح له ظروف حياتها، علّه يتفهّم شخصيتها وتلك الظروف اللعينة المحيطة بها. شعرت بصداع يطرق في

رأسها، والأرض تدور من تحتها، ما إن دخلت محل إسلام، لاحظت كيف أنّ النور خافت، والمكان فارغ مما أثار داخلها الفزع خائفة من أن تُشاهد طيفًا يتبعها، فعجّلت بالنداء: "هل من أحدٍ هنا؟"

سمع إسلام صوتًا من بعيد، فناظر إلى شاشة التلفاز جانبه وهي تبث الجانب الآخر من المحل، شاهد سارة تسير بين الأثاث، فنهض من كرسيه كمن قرصه عقرب وأطلق لساقيه الريح، أنطلق على نحو سريع كالبرق حتى خرج من مكتبه وسار في الرواق واقفًا أمامها، وقلبه يخفق من رؤيتها.

حدَّقت إليه، تلعثمت في القول كعادتها عندما تتحدّث إليه، وتطايرت الأحداث المرتبة من رأسها كطيور مهاجرة حتى بات ذهنها كصحاري فقيرة من الأبجدية.

همست في ارتباك وهي تُزيح خُصلات شعرها للخلف: كيف حالك؟ . . .

زمّت شفتيها من اليأس وخالجها شعور أنّه سينفيها من بلاده. تلك المرة الأولى التي لاحظ لون شعرها المُفحّم، وقد بدا أن الصبغة تتلاشي من على شعرها حينما ينمو، كانت فاتنة أكثر من أيّ مرة شاهدها، أراد أن يخبرها كم اشتاق إلى وجودها والحديث معها، وخانه الحديث، وافتترت مشاعره حتى كسا الجليد جزيرته.

لم تتركْ سارة فرصة له ليمط الحدث بينهم، فقد سقطت أرضًا فاقدة الوعي، لتستيقظ فتجد نفسها في كهف أشدُّ عتمة من حياتها.

الزمالك؛ بيتُ سيء السُمعة؛ 24 من ديسمبر 2004

كريم

نظر للساعة، فكانت الحادية عشر مساءًا، إنه الوقت الأنْسب للرحيل بعد أن سمع ما في جوف سارة، وتلقى منها معلومات تكفيه لمعرفة خبائث عالم الدعارة من دواخله وخوارجه دون التطرق إليه من بعيد أو قريب، اكتفي بتلك المعلومات التي حفظها وبثَّها إلى كارلا وإسلام في الوقت نفسه، سيُغادر إلى منزله ليُرسل إلى ياسمين عارضة الأزياء ما سمعه من سارة، ويأخذ برأيها، سيوقع بين كارلا وطارق، وإسلام وسارة، وياسمين نور بلا شك، ويكسب المقال، ويهدّ الجميع وينتصر شرّه!

نهض كريم من على الكرسيّ بعد أن أنصت إلى قصة توبة سارة كاملة، استمع لها طويلًا، تأثر بتلك الكلمات، كاد أن يبكي من شدة الحزن، مزقته عاطفته، وطلب أن تكُف عن المتابعة، وانتهى كل شيء بعد أن أقرَّت سارة بموافقتها عن نشر قصة حياتها كاملةً.

أغلقت سارة الباب وراء كريم، وهي تودّعه الوداع الأخير، واستلقت في أريكتها، تعلم أن بسنت في الداخل، وتعلم أنّها ستغضب، وتضرب أخماس وأسداس، تدرك أن شرًا ما سيُصيبها، ودعت الله أن يُخلصها من تلك الحياة المريرة.

كارلا

قد سمعت الأخرى إلى نهاية سارة، كيف أن بدت منذ نشأتها في بيت والدتها، وكيف أن انتهت بالتوبة، وتلك المحاولة، وما جرى بعد أن قدمت فتاة الليل التوبة ونظرة المجتمع لها.

لا تنكر أن قلبها اقترن بقصتها، لم تكتم حزنها داخلها حتى أن سارعت الاتصال بكريم، أخبرته كم أنّ القصة أعجبتها، وسيكون المقال حار ليكسبه ويجني منه ما أراده طوال عمله، قالت له أنها تتمني أن تبقى صلتها بعائلته جيدة رغم ما ألحقه طارق بها، لكنها اعترضت على نشر تلك القصة مُضيفة بعض التعليقات القاسية لكريم، وكانت المكالمة عنيفة بينهم انتهت بأن طلبت كارلا مقابلته وقتما يتفرّغ، وحدد معها ميعاد بعد يومين ليعرف مطالبها.

التحليل النفسيّ؛ سارة؛ دُعاء

بدأت القصة بمحاولة فاشلة من صحفيّ يدور وراء فتيات ليل، وبدأت الأحداث تجري بدُعاء، تلك المرأة التي قاست في طفولتها، وشاهدت موت أبيها، وفقر عائلتها، وتنقلت من بيت لآخر، وكان إحدى البيوت بيت قاسم باشا، ذلك الرجلُ القاسي المتبلّد، إنه كذلك، هناك الكثير مثله، لا نعني بقاسم ولا الجاف، لكنّ أشباهه ممن يتعاملون مع الشخصية الدرامية.

كانت دُعاء واحدة من ضحايا هذا المرضي النفسي المُعقد، الذي من أسباب وجوده الوراثة، والإهمال، والتشتت في الطفولة، والتأثر بالفراق وإنفصال الأهل، لذلك السنوات القادمة لا يُستبعد أن تُطارح الغالبية ممن سارة ودُعاء سيقدمون على الحياة.

حياة سارة في طفولتها عانت من عدّة عوامل ككُرها للدين والنفور منه، بسبب هؤلاء عندما يتحدثون عن الدرك الأسفل أكثر من الفردوس، وهؤلاء عندما يتحدثون عن العقاب أكثر من الثواب، وهؤلاء عندما يُشاهدون أسطوانات الشيخ الشعرواي جانب الأفلام الإباحيّة، وهؤلاء الذين لا يفقهون في الدين حديث، رفضت الالتزام بالحجاب وتأثرت بالتضاد متوقعة أن تُصبح فيما بعد أنها ستخلع الغطاء.

لجأت سارة إلى طُرق استفزازيّة تستخدمها الشخصية المسرحية، بلا شك، لتجتذب الأنظار، كما أن فعلت دُعاء، وشعورها بتدني الذات، والجميع حولها يرونها بصورة قبيحة، فأعتمدت على جذبهم بشتي الطُرق، لجأت سارة إلى تكوين صداقات، وكوّنت علاقات سُرعان ما تلاشت ككرة جليد تذوب تحت أشعة الشمس الحارة، كحال كثيرين من فتيات الليل الذين يبحثون عن الاستقرار، ولذلك فعلت دعاء أن دبّرت الزواج لكن، أخفقت في تجربتها، كذلك سارة.

يعدُّ التعامل مع الشخصية الدراميّة أمرٌ صعبٌ، وعلاجها أصعب في وجهة نظر الأطبّاء النفسيين، وحياتهم صعبة أكثر مما يخيله الكثير.

بعض المحاولات تنشأ بطرق استفزازية غير مقبولة، غير محتملة، ولا تُطاق. حاولت سارة جذب الأنظار بتكوين الصداقات، فبات الأمر بالإخفاق، حاولت التقرب من الجنس الآخر لتكوين علاقات إنسانية صادقة، تعرضت لتجاوزات لم تحسُب لها، وبدا الأمر، فيما بعد، مُثير للأهتمام، ومحاولة جديدة لجذب أطراف المحيطين بها، لكن، وبعد ما أن أصبحت في هذا العالم الليلي، وكما صرّحت لكريم: عادة فتيات الليل مُملين.

سارة شخصية عاطفية وحساسة إلى حد لا يتخيّله الكثيرون، مشاعرها كالقطن، تجتذب سارة الأنظار إليها، تحاول كسب عطفهم، أن يشعرون بها وبما تمرُّ به من مصاعب مهما أن كانت صغيرة، لكن قلما ما تجد من يهتم بذلك، تحاول تهويل الأمور إلى أقصى حد! أدْعت على كريم أنّها أنْجبت طفلًا وقد مات لكن، سارة عاقرة!

اختلفت محاولاتها في شد الأنظار إلى إصابة نفسها بالأمراض، الضرب، والأذي الجسدي، فاستخدمت ذلك وألتقطت لنفسها صورًا عديدة تُظهر كيف أن تشوّه جسدها بكدمات، وبعد أن تعرضّت لأذية وتدنت حالاتها النفسية أشدّ كربًا، استخدمت مستحضرات التجميل لتشويه أطراف فمها، فأكتفت بتصوير فمها حتى لا يبدو الأمر مُخادعًا، وأدعت للجميع أن جابر الفاعل.

كانت في اقصي انفعلاتها، تقوم القيامة في رأسها، وتصطدم بالحائط، وتشدُّ خصلات شعرها، فتقتلعها، وبعد أن منعتها بسنت عن تلك المحاولات المتكررة، وأدْمنت المهدئات، فأصبحت ذاكرتها كنور باهت يُضئ متحفًا قذرًا يعرض العار، وضعف جهاز مناعتها، بعدئذ، اقترحت بسنت عليها أن تهتم بشعرها على النحو المطلوب، فما قامت به سارة أن صبغته لتكون الشقراء، وتُعيد صبغه لألوان قد لا تليق بها كالأزرق والأحمر والأرجواني، وجميعها محاولات لإثبات إلى الجميع أنها تملك شعر جذاب ومثير،

لم يكنْ جابر يُؤذيها بسبب مظهرها، لكنه يتذمر بسبب رفضها للزبائن في غالب الأمر ويُهددها بقطع أصابعها، لم تكن بسنت تتدخل في حياتها، سارة خيالها واسع يُجسد لها القُبح، والسلبيات، تبحث عن المثالية، وتهرب من الواقعية، ومن الحياة، ينقلب مزاجها عندما لا تجد خيالها يتجسّد في الحقيقة، وما تجسد كان كابوس حلمت به!

يا لتلك البائسة! الجميع لا يحبونها.

الشخصية الدرامية جذابة، جذابة للغاية وتملك كاريزما وثقة للوقوف على المسرح، وهي شخصية تتسم سلوكياتها بالجُرأة والتهور والإقدام على كل ما هو غريب، كما أنّها لا تميل للتغير، وتمر حياتها في شكل روتيني مُمل لذلك تُكثر من النوم، وما بين تقلبات المزاج المصاحبة دائمًا والبكاء المطصنع، والكذب الغير مبرر أسبابه حتى تظهر أمام الناس بصورة مثالية ليست عليها، وهي شخصية كريمة، تبحث عن الاستقرار العاطفي والنفسي، وتهتم بشؤون من حولها أكثر من نفسها، رغم ذلك قد تميل كل الميل إلى الأنانية عندما تكتشف أنها تُعطي أكثر مما تأخذ، لذلك تتكدر عاطفتها شيئًا فشيئًا بمرور العمر حتى تتصلّب فتُصبح جافة وبادرة لا تُحتمل، لكن الحساسية تزال صفة فيها، وعلى الرغم من هذا أيضًا فالشخصية المسرحية محبوبة اجتماعيًا، مُنفتحة على الجميع، وشخصية حنونة وخدومة للكُل، وهي شخصية صريحة، قليلًا ما ترسم صورة سلبية لأحد، لكن عندما يتقرّب منها أحد تنجم المشاكل لصعوبة اتفاق الطرفين في العلاقة، فتميل الشخصية الدرامية إلى السيطرة وإصدار القرارات لتشعر بالأمان، إن شعرت بالأمان تكون خاشعة خاضعة لكل أمر أيًا كان! وتعتبر أفجع مخاوف لتلك الشخصية الزوال من على المسرح والتنحي عن الأضواء. كانت آخر مُحاولة لسارة عندما تواجدت في المستشفي القصر العيني، شاهدتها كارلا حينها للمرة الأولى، تعلم أنها مُصابة بأمر ما، لا تدري كارلا أن سارة أبرحت الضرب برأسها، ليس لجذب الاهتمام وفقط، كانت لتُعاقب نفسها، تُخرج طاقتها بصورة سلبية سيئة.

تكررت تلك محاولات جذب الاهتمام بصور إغماء متكرر بدأ في محطة مصر عند الوصول إلى الصعيد، ثم إلى أن دخلت محل إسلام للمرة الأولى، وتفاجئت أشدّ المفاجأة أنها وبالفعل، أُصيبت بمرض في جهاز المناعة أدّي إلى مرض جهازها العصبي.

حاولت سارة بأن تستقر في حالة واحدة، أن تكتسب علاقة مستقرة دائمة.

نقطة ضعفها: الأصدقاء والعلاقات، ومن عواقبها أنها لا تستطيع التفرقة بين الحب والصداقة والجنس. هذا ما قالته سارة في الجلسة الرابعة التي لم تُصرح بها لأحد.

الجلسة الرابعة

حدث ذلك سنة 2002 أواخر ديسمبر، حدَّثت سارة الطبيبة بما جرى لها في الصعيد، وما حدث بعد أن نُقلت منه إلى الجيزة، تحدث عن إسلام، كيف أن أُعجبت باهتمامه، وشعرت بمشاعر حميمية نحوه، أخبرتها بكل شيء، وهذه المرة فقط كانت صريحة بمشاعرها التي لم تُدركْها من قبل.

سألت سارة: أهذا حُب؟

كان جواب الطبيبة مُحبطًا، بشكل لم تتوقعْه سارة، إذ أجابتها: لا ليس حُب، ليس كُل ما نشعر به تجاه البشر يُمسي بحب، هناك أفعل كالودّ، والاحترام، والاهتمام، ذلك لا يعني بالحب المصور لكِ، إنها هشاشة القلب التي تجعلكِ تتشبثين بالقلوب، قلوب لم تُكتبْ لكِ.

تنهدت الطبيبة، كانت تنهيدة عميقة، واستعدت لطرح المزيد من القول: إنّه الفراغ الذي تركه والدكِ، تتعلق البنت بالأب، يتعلق الفتي بالأم، هكذا الحياة، هكذا تكون، فقدان الأب يُشكل كارثة للفتاة أكثر من الصبي، فقدان الأم يُشكل كارثة للصبي أكثر من الفتاة، التعلُق العاطفي بين الجنسين، هناك رابط لا يدركه الكثيرون، ذلك الرابط الروْحي الذي جعلكِ تتعلقين بإسلام، لمجرد وللحظة ما، شعرتِ أنّه يُشبهكِ، أهو يُشبهكِ؟ أمْ هذا الأنعكاس الذي تخيلتيه أن يكون؟ إسلام ليس ذلك الرجل العاطفي وليس بمريض نفسيّ، كيف كان إسلام على حقيقته؟ الحقيقة التي منعتي نفسك عن رؤيتها.

إسلام

عندما أتي بها من الصعيد، وفي بدايات الأمر، كان يُلاحظ أنها مُتعبة، وبالرغم من ذلك يُكلفها بأن تُتابع تأديّة العمل وتقوم بتنظيف الشقة لأجل قدوم كارلا، شاهد كيف ترتخي سارة، تستيقظ متأخرًا، لا تتقن العمل كما يُريد، أزْعجها باتصالاته ليتأكد أنها تمارس العمل، وعندما تأكد عليه أنها تفعل سيعود ويقوم بفحص الشقة ليتأكد من قولها، ما كانت تستطيع أن تكذب، إلا أنها فعلت مرات، وعندما يرجع من مقر عمله، يجد بعض الأماكن نظيفة، وأماكن أخرى تحتاج للتنظيف.

شاهد كيف المرض يشتد بها، فعندما كان يتصل بها كلف نفسه في آخر الاتصال أن يطئمن على حالتها، كانت تستعطفه في الحديث بأن يُخفف العمل، كان صلبًا، يرفض أمورها، ويعود للمنزل يفرض أوامره، وما كانت إلا أنها تُلبي وتُلبي وتُلبي!

عندما ترك لها الوقت كي تجلس، كان ذلك في اليوم السابع من ديسمبر، ثُنائي يقضيّان وقت هادئ من بعد تناول الغداء، طالبها بتنظيف الأطباق لكنها، عاندت لأجل إزعاجه فقط، ألقت

الأطباق في الحوض، وتفاجئت بعد حين أنّه يُريد ذلك الطبق الملئ بالملح والماء، يُريد منها أن تفعل معه كما يفعل المرأة مع زوجها في الصعيد. لم تحسُبْ سارة لذلك، إلا أنْ رفضها كان قصير الأمد حتى أكّد لها أنه قد يُزيدها من راتبها، فلم يفعلْ.

قامت بتدليك أطراف قدميه، وشعور الغضب والضجر يدُقّان في رأسها، وأصوات الطرق داخلها لا تكف عن التذمر حتى أوشكت على الأنفجار.

أخذت تبحث عن أدوات أخرى تُلهيها عن ذلك العمل القذر، فلفّت برأسها وشاهدت التلفاز، سألته عن ذلك الحوار الصحفي الذي قام به، لم يُخبرها بالأمر برمته، بدا إسلام يتأكد من قول الشيخ الذي أخبره بأن يسأل على سارة، عندما طلّت طلتها في منزله ورافقها بدأت المصائب تنهال عليه يوم بعد الآخر، قصة ذلك المحامي ودار الأيتام، ما جرى في شقة الإسكندرية، وتلك الطلبات التالفة التي بعث بإرسالها إليه، بعث بثلاثون قطعة أثاث، لم يحصلْ سوي على قطعتين بحال جيّد، أما البواقي لا يصلحون للإستعمال!

اشتعلت شكوكه نحو سارة إن كانت امرأة زانية، استطاع أن يقرأ ملامحها وهي تُشير بالقلق والخوف عندما نزلت من السيارة في بيت الإسكندرية، ووقعت عيناها على الداخلين في منزل إسلام، إستطاعت التعرُّف عليهم بسرعة، كان الأمر سهلٌ عليها لكنها أشاحت النظر، ظلّ إسلام يُراقب أقوالها وملامحها طيلة الوقت، قد رفضت النزول والبقاء في الإسكندرية لذلك السبب، فرحل بها في نفس اليوم، وفي الطريق، اشتكت من المرض فاقترح عليها الذهاب إلى الطبيب، رأى مدي قلقها من ثمن الأشعة، كيف طالبته بالمال وكانت صفر اليدين، حاول إخبارها أن الأمر برمته لا يستحق، فمرتبها سيكفي للغرض، إلا أنها أطلعته على كون الأشعة باهظة الثمن، حينها شعر بالغضب وقال بعجرفة:

كم المبلغ؟ ألف؟ ألفين؟ هذا لا شيء.

شعرت سارة بالحرج، وبعد لحظة أدرك إسلام أنه أخفق في الحُكم على حالتها الماديّة لكنه، وبدلًا من ذلك، أراد التأكد من حقيقة قولها فذهب معها إلى مركز الأشعة.

كانت تظنُّ سارة أنه في هواها قد غرق، وانصهر قلبه في الحب كما ينصهر الحديد فيلين، كانت مُخفقة بذلك الشأن، وهذا التحليل الذي تكهّنت به عندما أصابت عليه رجل كريم وسخي، يميل طبعه للسيطرة، وعقله غارق في الشهوة حتى الهلاك، في غالب الأمر إسلام كان يُعامل سارة كواحدة من العاملين عنده، لكنها لم تلحظْ الفرق بين هذا وذاك.

فكرت بالزواج به، ولكنها بدأت الأمر بشكل غير سوي، حاولت إغواءه وفشلت في ذلك، فحاولت الهروب.

قد وقعت سارة في حُب هذا الرجل، لكنّه جاف أكثر مما رسمت، أرادت أن تُصلح الأمور بينهم، كان هذا ما تُفكر به طيلة غيابها عنه، لكن إصابتها بهذا المرض غيّر كل شيء، وعندما أنفردت كارلا بإسلام أطلعته على بعض الأمور التي لم ينتبه لها ولم يُعط لها الاهتمام المطلوب؛ إذ قصّت كارلا قصة سمعتها من ياسر وكانت:

(في شهر أكتوبر سنة 2002 كانت سارة تمُر في القصر العيني بصفتها مريضة نفسيّة، اعترفت في داخلها بأنها تحمل مشاكل نفسيّة من عالم الليل، واحتاجت لحلول، قامت بزيارة طبيب نفسي في الجامعة، وقامت بأكثر من جلسة، وفي واحدة من الجلسات قالت له: كنتُ أشعر بالخوف عندما يقترب الرجال منّي. ضحك الطبيب في سخرية، وانفجرت سارة فيه: لماذا تضحك عندما أقصُّ عليك شيء ما؟ يصمت الطبيب، تتورّد وجنتيه، ثم ينظر إليها وعلى شفتيه بواقي ابتسامة كادت أن تزول: آسف، تابعي. هزّت سارة رأسها رافضة أن تُتابع الحديث، نهضت من مجلسها وغادرت، وكان الطبيب قد قام في بداية الأمر معها بعدة اختبارات يؤكد له أنها مُصابة باضطراب الشخصية المسرحية، لكنّه وفي قرارة نفسه كان يدري أنّ علاجها أمرٌ صعب لأنها بحاجة لعلاج سلوكي وباحتواء من المجتمع حولها، وبعد ذلك، أصبحت سارة تتصوّر في ذهنها أنها تزور طبيبة لكونها ستتفهّم حالتها أكثر من الرجال، وكانت تلك الجلسات تفعلها في منزلها، فتبدأ في الحديث مع نفسها، فكانت أن اخترعت أربع جلسات نفسية في ذهنها، ولم تُطلع أحد عليهم، حتى كريم لأنهم من نسج خيالها، إلا أن ياسر شاهدها ذات مرة تقوم بواحدة من تلك الجلسات خاصة الجلسة الرابعة في إحدى غُرف المستشفي، وعندما قررت سارة ذات مرة أن تذهب إلى طبيبة نفسية في الجامعة، تفاجئت بأنّ عليها أن تحضر الامتحانات قبل أن تُطرد من الجامعة، وبعد ذلك لن تستطيع تدبُّر نقود الجلسات النفسية في العيادات الخاصة، كما أن فكرة المجيء إلى المستشفى أصبحت مزعجة بسبب نظرات الطُلاب إليها)

أخذ إسلام يتجوّل مع سارة قليلًا، ولكنّه واجهها بتلك الصور التي في هاتفها، واجهها بحقيقتها التي تأكد منها، وبعد ذلك رحل.

كانت سارة تتصور في البداية أنّ إسلام رجلٌ يحمل صفاتها، ليس إسلام بحق، لكنّ أيُّ رجل تُعجب به، تظن للوهلة الأولى أنّه ملاك مُنزل من السماء لا خطيئة تُدنسه! ولذلك في بداية الأمر كانت

تعتقد أنه يرغب بالزواج بها كما تُريد، وكانت تتخيله عندما يعرف حقيقتها سيرحل كما ترحل وتهربُ هي، لكن إسلام في واقع الأمر لم يُفكر بالزواج بها قطْ، ولم يرحل، وإنما كان رجلٌ واقعي إلى حد مزعج، وواجها بعارها ومسبّها، فراحت بعد أيّام كانت هاربة من تلك المواجهة محاولة التخلص من حُزنها، قامت بتلك الطقوس الغريبة التي كانت تقوم بها أثناء وجود بسنت، إذْ بسنت تميل للقراءة عن علوم الفلك، السحر، الفلسفة، وكل ما هو غامض يوصف شخصيتها حتى اسم سيزيستا الذي تحمله لا أحد يعلم قصّته سواها.

كانت الطقوس تعتبرها بسنت ملح الحياة، على الإنسان أن يهلب بلذة الخوف والألم والعذاب في آن واحد كي يحمد الله على حياته اليسيرة! كانت بسنت تُناظر للحياة بأنها موت، واللون الأبيض على أنه خليف الأسود، وأن القدر هو القضاء، وهو ما يحكي عن ذلك الوشم الذي صنعته لسارة واستطاعت إقناعها بتلك الخرافات، فأختارت سارة ذلك الوشم الذي يرمز للحياة والموت، والأبيض والأسود(4).

من السهل التأثير على سارة، من السهل التأثير على الشخصية الدرامية/المسرحيّة.

ذهبت بعد ذلك إلى إسلام، أرادت أن تُعدل الأمور بينه وتنهي كل شيء، وتتوب إلى الله، لكن وفي بداية الحديث بينهم سقطت أرضًا، لَما أضحت سارة لاقت روحها في ردهة مُدلهمة سقفها مُعتم، حوائطها تضيق على صدرها، كانت ولوهلة ظنّت أنها حُفرة! لكن وبعد أن فُتِح باب أمامها من آخر الغرفة، شاهدت إسلام ليُخبرها أنّها حبيسة في مخزن المحل الخاص به، ولا صريح ولا عويل نجدت به ولم يسمعْ لها أحد، وأظلمت أيام سارة، وانتابها الخوف الشديد. جرى لما في ذلك المخزن ما لم يتصوره عقل، ولم يسمع به بشر، وكانت قصة توبة سارة من هذا القعر، وأصبحت حياتها توصف بكلمات – شجن يُطبق عليه ضبابة كثيفة لا سبيل إلى اختراقها.

23 من ديسمبر 2002؛ في المخزن
سارة

ثلاث أيام من الاغتمام، ثلاثة أيام من الصيام، ثلاثة أيام من الأنْكثام والألآم والإرغام والظلام.

---

(4): يُمكن القارئ البحث عن الرمز بكتابة في محرك البحث (الأب والروح ويانغ وين) ليجد من خلال التعابير الإنسانية التي يُشير إليها الرمز المُقسم إلى اليانغ والين، حيث يوصف الين بالبرود والسلبية ومتناقض، واليانغ فحارّ متحرك فعّال كحال فتاتين الليل في الرواية، ويرمز الين واليانغ للأم والأب على الترتيب، أنّ الأب يعطي بذور تولُّد الطفل وتقدم الأم الخواص الإستقبالية للرحم، وبواسطة حكمة الأم تستخدم المواد المعطاة من الأب للحصول على أفضل شروط=

ثلاثة أيام من العفن، والرائحة النَجسة دنَّست الأرجاء من سائل غائطها، ثلاثة أيام من النحيب والكوابيس والأطياف المُطاردة، وثلاثة أيام من العزلة والوحدة.

لماذا يُختص ثلاثة؟

لأنَّهُ رمز الكون والنفس، الجامع بين السماء والأرض والبحار، والعقل والعاطفة والجسد، القشرة والجسم والباطن، الأنا والهو والأنا العُليا، رمزٌ إلى الخير والفأل والحظ الحسن، وتعرف معظم الديانات الثلاثة وجوه للإله الذي خلق الكون من

العدم، ولأن ثلاثة رمزٌ إلى فكرة الفصل والحد بين وحدة وأخرى[5]، بين جسدٍ وآخر، فكرٍ وآخر، إنسانٍ وآخر، عالمٍ وآخر، فهكذا فصل إسلام سارة عن العالم وتركها لحدّتها، لعقلها وفكرها علّها تتدبر!

لم تدرْ سارة إن كان إسلام يقصد قيدها في المخزن هذه المدة لفكرة ما تحوم في رأسه، لكنها كانت تتضوّر جوعًا، وإلى الله تستضعف، ترفع عفوها بيدها، فسرعان ما تُبقيهما أرضًا حرجًا.

إنَّه الدواء، تعتذر فكرة المضيّ إلى طبيبٍ نفسيّ في هذا المُجتمع لإعاقة وغيره، يلجأون إلى الله الواحد الأحد، لكن، أتكون الصلاة هي الحل الوحيد؟ ألم يُعلم الله

الإنسان ما لم يعلمْ كي يُصلح أمور دُنياه، أيكون التكافؤ بالروْحانيّات فقط؟

إنَّ البدء بالبحث عن الخير داخل تلك الذات، وتفسير كل ما هو باطن، وكشف كل ما هو حاجب، والتنسّك، والدُعاء، والنظر إلى السماء عندما يحتاج الإنسان ربه أشدّ الحاجة، وهنا تتضح لسارة رؤية حلمها الغريب الذي صادفت فيه بسنت داخل البئر تستنجد بها، وحطاتها الذئاب، وتلبّدت السماء، ونُفخ في الصور وبكي الملاك، وقهقه الشيطان!

كان للحلم تفسير لم تُبصره سارة إلا عندما خالتها جلسة مع إسلام عند دخوله للمخزن، قام بمساندتها، أخرجها من الظُلمة إلى النور كما يرتقي العبد من شهوته إلى عقله، من جهله إلى علمه.

=لنمو الطفل، وكلاهما يتشارك بنفس الأهمية لتكوين النفس. يتكوّن كل شيء حي من التداخل بين الروح والمادة، وتحوي كل من الروح والمادة مستوي فطريًا من العبقرية والذكاء من خلال انبعاث القدرة الإلهيّة وباتحادهما، يتكون العنصر الثالث وهو النفس كمستوي من الوعى والإدراك، كما وضّحته الكاتبة في الرواية وقسّمت الرواية إلى ثلاث فصول، وتتباين الروح في القسم الثالث. (انظر أكثر للطب الصينيّ)

(5): تفسير الرقم 3 في اللغة الرومانيّة.

انطرحت على الأريكة كما ينطرح القتيل، وشاهد كيف ترتجف يداها، وتتساقط خُصلات شعرها على كتفها، وحرارتها تهبط شيئًا فشيئًا، كأنما انخفض الجهد الكهربائي، وخُمدت أعضائها فجأة، وأُمتِصت معدتها كالمومياء.

جلس قابلتها على مقعد جلديّ مُريح، سمح لها بالجلوس على الأثاث المعروض ليُحدثها، راقب شحوب وجهها الحزين، وعروق يديها البارزة، استطاع أن يسمع نبضات قلبها المضطربة ويرى الدموع في زوايا عينيها المنتفخة كالمنطاد الطائر، فبدت له لم تحظْ بالنوم طيلة الفترة السابقة، وارتخي جسدها كأنما انقطعت الكهرباء عنها، فكفّت عن محاولاتها للصراخ والطرق والكسر طلبًا للنجدة.

تنفّست نفسًا عميقًا من الكرب والإعياء، وقالت في رقة بنبرة متقطّعة وقد اختلجت أهدابها.

– لقد جعلتني أموت جوعًا... أموت عطشًا... أنا أموت ببطء...

هزّ رأسه متكلفًا.

– لم تموتِ بعد.

– قد جفَّ حلقي... المياه... أُريد المياه...

استطاع أن يشعُر بلهيب حلقها في مخارج كلماتها، قام ليسكُب لها مياه مُثلجة في قدحه، وسار به بين الأثاث حاملًا في يدٍ القدح والأخرى زُجاجة الماء، وما أن تصلّب أمامها رفعت رأسها بجهد مُبالغ، حتى أن شاهدت القدح والزجاجة، فشدت الزجاجة من يده بكل ما آتته من تولّه.

ارتشفت الزجاجة جُرعة واحدة ولم يستطع إسلام منع نفسه من مُراقبتها كأنما يُشاهد أمامه طفل حديث الولادة يقوم بخطوته الأولى.

رمت سارة ظهرها للخلف وشعرت بالشبع الشديد الذي سدّ حاجتها عن ملذات الحياة الأخرى على رغم من حموضة المياه في فمها، وأغمضت عينيها تذوق الراحة للمرة الأولى بعد خروجها من سجن المخزن!

إسلام

لم ينتظر منها أن تفتح عينيها وترمقه بنظرات حاقدة، كان يعلم أنها ستكره مما فعله، لم يقصدْ أن يفعل ذلك، هناك رسالة وراء فعلته، ولَما سألته:

– لِماذا فعلت هذا؟

لم تمنعْ نفسها من إطلاق رصاصات من الشتائم والسب تارة في وجهه وتارة في بقية جسده حتى قتلته بكل ما تتقنه من حديث أبجديتها.

جاهد ليظلّ جامدًا في مكانه، وسألها: فيما كنتِ تُفكرين عندما كنتِ بالداخل؟

– لا شيء.

أطاحت كلماتها في وجه فأعادت تصفعه، لكنه في الصعاب كان كالجبل لا يهتز.

– أتعلمين شيئًا؟

قاطعته وهي تلهث أنفاسها وصدرها يضيق عليها.

– تبًا لا أُريد سماع صوتك المزعج، أنت تزعجني كلما تحدثت، هيئتك تُزعجني، كل شيء فيك.

ضمّ حاجبيه متسائلًا في تهذيب: إذن لِماذا رغبتِ في التقرُّب مني؟

كان هادئًا أكثر من المفروض، أشاحت النظر عنه غير مفكرة، وهزّت رأسها نافية.

– كنتُ أتعاطي شيئًا وقتها، الموت أفضل لي من قرانك، أشتهي الموت أكثر منك.

تمتم إسلام في هدوء: سأخبركِ بقصة يا سارة، علّك تربُطين التشبيه.

رفعت رأسها محدقة إلى تينك عينيه السواداوين تعره السمع:

(يُحكي عن شاب من أهل الآخرة تحدّث مع شاب من أهل الدُنيا، فقال له الشاب من أهل الدُنيا: أتعلمُ يا صديقي؟ أتمني لو أصبح مكانك، سأموت وأرتاح من شقاء الدُنيا. قال شاب من أهل الآخرة: أترى ذلك؟ أترى أنّك تعيش في الشقاء؟ أكّد له شاب من أهل الدُنيا: الإنسان على الأرض مُتكبد، يُعاني الشقاء، لا يُسقي الهناء. قال شاب من أهل الآخرة: أيُّ تكبُّد تتحدث عنه! أتعلم ما يكون الموت؟ الموت ليس الراحة، الموت أن ينتهى إختبارك، وتنفض محاولاتك، ويُختم عُمرك، وتُقضى أرضك، وتُحي روْحك عن جسدك، الموت هو مُقابلة ربّك، أي صديقي عقلك لا يتخيّل رؤية الملائكة من حوله، يوم يُزاح عن عينيك الحجاب فتُبصر كل ما هو باطن وتري أعمالك وتقف لحسابك، يوم سيخرج عقلك من الضيق إلى الوسعة، من الباطن إلى الوعي، من الظلام إلى نور، أتعلم يا صديقي، أتمني أنا من يكون مكانك، لقد قُضيت من الدنيا بسرعة البرق).

زفرت سارة زفرة من قلبها في ضيق، أرادت أن تقول أنها لم تُنصِتْ لحديثه، كانت مُشتتة مُغيبة في كون آخر، والصوم تآكل في عقلها فلم تعُدْ قادرة على فتح عينيها بتركيز، وهو يتكلم، وهي لا تستطيع سماعه كما يرغب.

عبست: لم أسمعْ شيء، لا أريد نصيحة منك.

آخر ما قاله إسلام قبل أن يجُرها داخل المخزن:

– هذه ليست نصيحة، أنتِ الآن تتواجدين في الدنيا، جسدك يدبُّ فيه الحياة، وعندما أذقتِ عذاب الظلام في المخزن لأيام لم تتحملين، لأنّكِ ابتعدتِ عن الحياة وأصبحتِ في مواجهة نفسك، في مواجهة مخاوفك، لقد تركت تُفكرين في نفسك التي تدعين بعدم فهمها، لكن يا العجب! لم تتحملين مواجهتها، إنَّ أبلغ درجات الحكمة أن يفهم نفسه الإنسان نفسه، فابحثِ داخلك، ستجدين من يرشدك للصلاح، لن يعونك أحد من أهل الدنيا، ويومًا ما ستندمين لو تُعودين للدنيا وتواجهين نفسك قبل مواجهة عملك.

تأملته سارة من الأعلى للأسف، ورمقته بنظرة يتطاير منها غضب عظيم، وما بينهما صمت أبلغ من الحديث كلاما.

26 من ديسمبر 2002؛ محل إسلام

سارة

ثلاث أيام أُخر أشد من ذي قبل، والحق أنها لم تعُدْ تحس بأطرافها، وباتت تشعر بظهرها ينثني، وعظام كتفيها يتصلبان فكانت ترقُد على بطنها كالزواحف، تشعر ببرود الأرض من تحتها كمن رقد على لوح ثلج فجُمدت أطرافه، وتقضي ليلتها طاويةً، تطوّق نفسها بذراعيها وتضمُّ ساقيها إلى بطنها مُتخذة وضع الجنين لكن بلا فائدة، تصطك أسنانها بشدة حتى كادت أن تنقلع ضروسها.

في اليوم الأول

أدخلها إسلام بيُسر لكونها غير قادرة على مقاومته لضعفها ووهنها، وراحت تُربض في المخزن، في بطن الظلام الوحشية، تبتلع كلام إسلام وتُفكر فيه، لكنها على نقيض ذلك كانت تشتمه وتبصق لُعابها كلما تذكرته كأنها تطرد شيطان ناهضها من كابوس.

شقّت علبة سجائر من باطن ملابسها الداخلية، فلا يلحظْها إسلام من بين ثنايا جسمها، وأخرجت منها سيجار وقداحتها الهالكة، أشعلت بآخر قطرات بنزين فيها سيجار، ونفثت دُخانه في شكل خوارج بُركانية منفجرة من فوّهته، لولا الشُعلة، لولا الدخان، لَمَا كانت ترى! لَما كانت تتحمل البقاء مع رائحة الخشب. كانت تسأل نفسها: أين تُريدين الذهاب إيُّها الغبية؟ هناك وحوش أقسي من هذا الأخرق تنتظرنا في البُعد الآخر.

وفي المساء، خالها شعورٌ بندمٍ شديد، واشعلت سيجار آخر، فلما انتهت منه، أطفأته في عنقها، ضمرته في جلدها بقسوة لا يقبلها الله، وصرخت تتألم، وضحكت تتألم!

في اليوم الثاني

كانت نائمة ولا تدرك الساعة، لم تعُدْ قادرة على التمييز بين الصباح والمساء، تسمع أصوات الآذان تتردد في الخارج، تشعر بانزعاج، وقلبها يدُق بعنف، ومعدتها تتآكل في نفسها، ولُعابها الحامض يمر في فمها بمرارة فتسعل باستمرار وتبصق في الأرجاء باكية متألمة، رائحة الدخان تارة تشعر أنها تخنقها في هذه الغرفة، وتارة أخرى تشمّها كأنها نسيم مار بزهرة متفتحة برعمها تحت المطر.

فترت نشوتها وزاد ضجرها، لا تستطيع إنكار فضل إسلام في إبْعادها عن عالم الخناسين الجائعين، كفّت أعضائها عن الشعور بالتوتر، الذي كانت تكهن أنه سيُلازمها طيلة حياتها إلى أن تُصاب بالشخيوخة وينقطع الطمث، وتبلغ العقد الرابع وتستقر الحياة.

أخذت تُفكر فيما كانت ترغب في حياتها؟ أهو الطب؟ لقد عاشت سارة طيلة حياتها تبحث عن الشُهرة والنجومية بطريقتها، حاولت مرّات التطرُّق إلى عالم السينما والفن اللامع، وباءت المحاولات بالفشل، وقتها كانوا يبحثون عن مُغنين، نساء ورجال يملكون صوت جذاب مبتعدين عن الاستعراض لكون فرقة رضا تحتل عروض المسرح وقتها، ولم تكنْ سارة تحظى بفرصة للدخول إلى هذا العالم، فهبطت إلى مسكن آخر لم تتطرق بالتفكير إليه.

سألت نفسها عن الطب وما شأنه؟ من المفترض أنها تجلس الآن على الكُتب تُذاكرها كما اعتادت من قبل، لكن إن اهملت ذلك ستُطرد من الجامعة، ستخسر كل شيء قريباً ستعود بسنت إلى منزلها وتطرد سارة منه أيضًا، لن يتحمل أحد منهم بقاء الآخر جانبه.

قطع حب أفكارها دخول إسلام، وتلك الرائحة المصاحبة له، رائحة لا تكاد تغفل عنها، إنّها رائحة شواء شهى كالتي يُحبها إسلام، تمنّت لو أنّ هذا ليس من نسج خيالها، وأن هذا الضياء ليس إلا بوابة تفتح على كابوس آخر، تمنّت لو تستفيق من كل هذا العبث.

تنفّست نفسًا عميقًا، شعرت بإسلام يدُق الأرض قدومًا حتى دخل المخزن، يقف أمامها بعد أن وضع صينية تحمل أطباق شهيّة من الطعام والمتبلات الخاصة والسلطات الخضراء الطازجة، فما أن أضاء إسلام النور بالمخزن، رفعت سارة رأسها عن صينية الطعام تنظر للأعلى مُدركة، وللمرة الأولى أن هذا الكهف به مصباح.

شاهدت مكان زر الإضاءة، وبلعت ريقها ثم أطبقت الصمت حتى أن جلس قابلتها على الأرض الباردة، وكشف الغطاء عن الطعام فتتناثرت الرائحة كما تتناثر بقعة ألوان أثناء سقوطها في قدح مياه، وتصاعدت الرائحة خاطفة النفوس المُشتهيّة إليها، فتنفست سارة الصعداء، تقرصها عقارب الجوع فشدت بيدها على بطنها، ومدَّت يدها إلى الطعام، تُكوّر الأرز بين أصابعها، وتُمزق اللحم، وتفصل بين الجلد والعظم، وتبتلع الخُضار وتقضم بين فكيّها كل ما تاقت إليه نفسها.

كانت بين القضمة والأخرى تُطالع إسلام بعيني مرتبكتين إذ كان يتفرّس فيها، لاحظ أثر إطفاء السيجار على عنقها، لا تدرى فيما يُفكر فيه الحين، أيُفكر في هيئتها، أمْ أنه يُشفق عليها من العذاب الذي شاهدته، لم تكن لتُفكر في ذلك طويلًا، إذ بدا أنه لا يستمتع بمشاهدتها تأكل، وكان ينتظر حتى انتهت وأفرغت ما في الأطباق في بطنها، وشد الصينية ناحيته وخرج بها دون أن ينطق بشفه، فيما كانت المعذبة تُوجه له الحديث لكن أخرس الفم ولسانه مُكبل داخله.

- انتظر... أريدك أن تغسل ملابسي.

سمع إسلام صوت واهن من خلفه، صوت الرحمة الذي وكان تستصرخ به، تسمّر في مكانه ولفّ رأسه من فوق كتفيه، سألها دون أن يُطالعها: ماذا؟، ولكن تلك النفس الحائرة المضطربة ألقت ما يكسى جلدها على منكب إسلام، فتلقّت إلى أطراف ملابسها عليه واشتمّ رائحة العرق والأسى فيها، رائحة تنفر منها الجذران، حتى أن تساقطت على الأرض وحدّق أمامه:

- تُفطرين القلب.

تنهدت الذليلة القانطة تنهيدات مُرّة وهي تُناظر جسدها العارى جريح مُكمَّد.

قالت بصوت جاف أشبه بصوت إلتحام الأغصان أثناء هبوب رياح عاصفة: لماذا؟. . .

- تُريدين إقامة علاقة معي، ولم تُفكرين في إصلاح ذاتك بعد.

استطاع أن يسمع تنهيداتها المتوارية دون توقف حتى ظنّ أن نفسها كاد ينقطع وكأنّ دبابة تُثقل على صدرها، ورغم استضعافها كبح نفسه ولم يحوّل دفّته إليها.

أحسّ بصوتها وهي تتقدّم نحوه وتشدّ ما بقى على كتفه من ثيابها، وتجر أذيال الفشل منه، فسترت نفسها ولملمت ما بقيّ لها من شَرف، تساقطت دمعة جزعه وتولاها يأس قاتل، قد قاست في عالم الليل ما لم تكن لتُقاسيه لو لم تزجْ به.

أردف الهاشم بصوت يبعث لنفسها المبلبلة السكينة:

- هذا الكسر الذي في عينيكِ سيُجبره الله، يومًا ما ستهتدي رَوْحك إليه.

لقد توقّع إسلام أن تأكل بهذا النهم السريع، ولكن رغب أن يختبرها في اليوم السادس لها.

في اليوم الثالث

نظرت سارة في يدها مرات كي تتأكد أنها ليست في حُلم، فتحت عينيها وأغفلتها أكثر مرة عندما شاهدت إسلام يضع مُفتاح المحل في يدها، ويقول: يُمكنكِ المغادرة لطالما رغبتِ في ذلك، لكن غير مصرح لكِ العودة إن أردتِ.

لم تنتظر سارة الكثير في محل إسلام حتى أن جمعت شتاتها، وسارت في الشارع دون هدف، كانت الساعة الثالثة فجرًا، جنح القمر، وصوت الآذان يُجلجل في السماء، وصداه ينبه لقطبيْ الأرض، والناس نيام، والسماء مُتلبدة بالغيوم، والقمر يتآوى.

قصدت أن تذهب إلى منزل بسنت، إلا أن الخوف من تواجدها يجعلها تتراجع عن الفكرة. جلست على الرصيف تُناظر مُفتاحين، الأول لبيت بسنت، والثاني لمحل إسلام، وعلى رغم اختلاف المنزل من الآخر وما بداخله، ومكنون صاحبه، وخيره وشرّه، فكانا الأثنين يتفقان في شيء واحد، أنّه لن يسمحوا بدخولها.

طالعت سارة أمامها بعد صبر وروعنة، فأبصرت مسجد رَحيب، وترددت عن فكرة الدخول، فلم تقصد يومًا الوقوف مع المُصلين، لا تحسن الوضوء، ولا تعرف تعداد الركعات في كل صلاة. قد قالوا لها حرام، حرام أن تهزّ الأنثى خصرها، حرام أن تتلوى الأنثى أمام الأعين، قالوا لها الصلاة تُزيل كل كرب، وتحفظ من كل شر، وتُبارك في كل عمل، وتُطيّب كل أثم، كيف يُطالبونها بالصلاة وهي لا تستطيع رفع يدها إلى المولى، تستنجده بمرثاة، تطلب النجاة.

سمعت سارة صوت من عالم آخر يُناديها بلَقبٍ، فكان رجلًا:

- ماذا تفعلين هنا؟ تعالي لأفتح لكِ مُصلي النساء.

كان يمدُّ لها اليد لعونها وسندها، لكنها تعلم أنها لن تُصافح رجل دين، فهزّت رأسها وعبست كأنما ذاقت خل، حاولت النهوض دون تعثر، ثم سارت بعيدًا: ك... كلا.

ناداها مُصلي الجامع، وسألها:

- أتشهدين أنّ لا إله إلا الله؟

تسارع خفقان قلبها في جنون فما كادت تستطيع فتح فاهها، اكتفت بهز رأسها، ودارت عيناها في الفضاء.

أومأت رأسها إيماءة لم يلحظْها من فرط فتورها.

– أجل، أنا مُسلمة.

وبتردد أضافت سارة عالمة أنّه لن يتركه: لكنني لا أُصلي.

تفهّم الرجل أنها قصدت أمور النساء فتراجع مستأذنًا عنها؛ إذ سار على هدى إلى النداء، هناك حيث سيجمع المصلين في وحدة إلى الله الذي يُناديهم.

سمع الرجل صوت سارة من خلفه، وعندما استدار ليُعطيها كامل اهتمامه تفاجئ بقُربها منه فكانت أن خطت تلك المسافة الواسعة في سرعة، وتسأله:

– أسألك إن كُنت تفقه في تفسير الأحلام؟

أومأ الشيخ مُرحبًا بسماعها:

– أجل، انتظريني بعد الصلاة، يمكنكِ دخول مُصلي النساء، إنّه أدفأ رُكن في المسجد.

هزّت سارة رأسها رافضة مُفضلة البقاء في الشارع، وبعد انتهاء ركعتين الصلاة، وجدت الرجل قد خرج لها، وسمع إلى ذلك الحلم الذي شاهدت بسنت في البئر، فما كان أن ابتسم قائلًا:

– هذه الرؤيا تُذكرني بقصة علم النساء، دعيني أخبرك بها لأنها تُفسِر حلمك.

قصة علم النساء:

(يُحكي عن شاب رغب بالزواج، وعندما تقدّم لأهل العروس أشترطوا بأن يتعلّم علم النساء، فلم يكنْ الشاب سمع بهذا العلم من قبل، طلب الشاب من والده إخباره فرفض، طال غياب الشاب سائلًا الشيوخ عن ذلك العلم فلم يُجبه أحد، وعلى حين مرة، كان يسير الشاب قُرب بئر، وشاهد امرأة عجوز تحاول الحصول على المياه، فراح يُساعدها دون أن تُناديه، عبرت العجوز عن رغبتها في الكثير من الماء لتسقي غنمها، واستفسرت عن حاله وقصته، فتنهد يقصُّ عليها، وتفاجأ الشاب بسخرية العجوز منه، لكن نظرتها لم تُوحي بذلك، إذ أندهش عندما وجدها تدخل البئر بكل خفّة حتى سقطت فيه فسمع صوت ارتطامها بالمكبلات، وصرخت تطلُب النجدة كي يُنقذها، لم يفهم الشاب ما فعلته، إلا أنه سارع بإخراجها، فلما خرجت العجوز والخوف يتملك الشاب يسألها: لِمَ ألحقتِ الأذي لنفسك؟، قالت

العجوز: ألم تسألني عن علم النساء؟ فردّ الشاب: أجل سألتك ولا أزال اسأل. قالت العجوز هذا هو العلم يا ولدي، بقدر ما تستطيع المرأة أن تقتُلك تستطيع المرأة أن تُحيك).

هزّت سارة رأسها بارتباك بعدما سمعته منه، أرادت توضيح لِما يقول، ولكنه لم يترك لها المساحة الكافية لتتحدث، حتى أن أردف بالقول العفيف:

- هناك صورة آخري تُوافق ذلك، يقول الحديثُ القُدسيّ إلى الصوفيّ ابن عبد الجبّار: يا عبد جعت فأكلت، ما أنت منى ولا أنا منك، عطشت فشربت، ما أنت منى ولا أنا منك، إنْما أظهرت الشهوات حجابًا عليك لأمْتحن محبّتك، فإن اخترتني دون جميع شهواتك كشفت لك عن ذاتك وما عُدت أسترك بشهوة، إنّما الشهوة تأتيك من ناحية جسدك، أمّا ذاتك فقد خلقتها خالصة مبرأة لا تميل إلا إليّ وحدي.

حدقت سارة ذاهلة، وخيّم عليهم هدوء خفيف سمعوا فيه خطوات المصلين خارجين من المسجد، والسماء تتشقق بالنور، والشمس تُضيء الأرض، وتدبُّ الدابة، وترتفع الملائكة، ويرتخى صخب النفس، ويصحو الناس، وتحققت الرؤيا لآخرها.

افترّ ثُغر سارة عن ابتسامة مشوبة بالحزن وكان الحديث يصف ما جرى لها البارحة، عندما كشف إسلام عن الطعام والشراب أمامها، فكشفت عن شهوتها، فما كانت منه، ولا هو منها، وإنما كشفت عن ذاتها الخاصة التي لا تميل إلا له وحده.

أخذت تسير سارة في الشارع وحيدة كسيرة النفس، تلفّ الغطاء حول عظام كتفيها، براكينها هدأت، ودموعها انزلقت، والحزن رفقيها أينما رقدت، ومع بداية اليوم السابع لها في محل إسلام، دخلت المحل لتجده واقفًا يُصدِّر لها ظهرها، تنهدت تنهيدة طويلة استطاع أن يشعر بها بقلبه قبل أن يسمع بها، وألتفّ بجسده كاملًا فأنقبض فؤاده، وضاقت عيناه ليجدها تنحني على الأرض بكامل جسدها وتربض على ركبتيها قائلة: سمعتُ في الإسلام عن جلد الزاني والزانية، إن كُشفت عني شهوتي فليّ العقاب، ولله المغفرة والتوبة. قالت هذا، ولكنّها نست أنّه غير مُرحبٍ بها في جميع الحالات!

26 من ديسمبر 2004؛ شارع جُورج عاصي؛ بيروت؛ لبنان

ياسمين

تفقّدت غُرف الشقة قبل أن تسمع للتسجيل الصوتي الخاص بسارة، أنصتت لجميع اعترافتها على نحو مُدهش لم تتوقّع أن تقر بهذا الكم من تفاصيل حياتها، لاحظت ياسمين كيف لم تنسْ ذِكر نور في

كلامها، على رغم من نُدرة تواجد نور وسارة، تعرف ياسمين كيف أن كانت علاقة بسنت ونور قوية قبل أن يُكلف بحراستها.

لقد وقعت ياسمين بين فاسدين المجتمع من فتيات الليل ورجال أعمال ودبلوماسيين ومُنتجين الفن وصانعي السينما، وخُذلت ثقتها من الجميع، وشقَّت رحلتها في البحث عن ذلك الحبيب الضائع، فلم يغفلْ لها القلب عنه، ولم تجدْ له أثر، ولازالت قصة الحب تُختم بنهايتها الحزينة التي لا يعلم أحد سواها.

سارت ياسمين في الشقة حاملة في يدها طبق من المعجنات التُركية تأكل منه، ابتاعته أمس وأخفته من الأطفال الذين يقيمون معها في الشقة، مؤخرًا قامت باختراق النظام الغذائي الذي تابعته أثناء فترة عملها كعارضة أزياء، وطلبت من الطعام ما تشتهى إليها نفسها، وكانت تُحضر كمية وفيرة للأيتام الذين أستجمعتهم من دور الأيتام في منزلها قبل أن تقتلها الوحدة.

سمحت لنفسها صباح اليوم بترك الأطفال يتنزهون في الحديقة المجاورة لشارعها في حين تقوم بإرسال رسالة بريدية إلى كريم، وكتبت:

(سيد كريم، ابن عائلة شبانة.

اسمحلي بإطْلاعك على أنّني قد تركت لنفسي الوقت الكافي لسماع مُسجل الصوت عن سارة، صبيّة الليل كما تدّعي أنت أو هي، لا يهُم.

أيُّ عبثٌ هذا؟ أيُّ نوع من الكرامة تملكها؟ أتُريد فضحنا جميعًا؟ حنانك يا الله، ألا رحمة تحوط بقلبك؟

في البداية، أرسلت إليّ رسالة منذ يومين - أعتقد ذلك (لا أعلم كيف ومتي حصلت على بريدي الخاص لكن طريقتك في البحث عن صبايا الليل لم تجعلني اتساءل كثيرًا) رسالة تُخبرني فيها أنّك ستقوم بالحديث مع سارة، ثم تُطلعني على تلك المحادثة كي أعرف ما كان يجري أثناء غيابي، لعلّي تفاجئت يوم 25 من ديسمبر بإتصال من نور - أخبرني ببعض الأشياء الخاصّة بنا، قال لي عن سارة، لقد تقابلوا مرّة أخرى خارج منزل الصعيد، أطْلعني على بعض التفاصيل التي لم تُصرحْ بها سارة، كان ندمان، استطيع الشعور بذلك.

أحاول أن أكون هادئة معك قدر ما استطيع لأنني غاضبة بالفعل مما تنوي عليه، أرغب في مصلحتك، عزيزي (لا تأخذ الكلمة على محمل الجد) ما تفعله سيُحطمك مُجددًا، ويُفقدك كيانك، أنت

تعلم العواقب (خُذ هذا الكلام على محمل الجد)، أنت تدري أن بسنت قامت بمحاولات لقتل أخيك الصغير خالد؟ (أخبرني نور بذلك أمس).

أعتقد أنّ خالد كان رمز البراءة والطهارة في تلك القصّة كلها، لا أعرف لِماذا أبعث لك هذا البريد، أنا على يقين أنّ هناك هدف نبيل تسعَ إليه من التفتيش وراء أسرار ابنة الليل وقرينة البغاء، ولكني أسألك أن توقف هذا المقال الصحفيّ لأجلك، أما أنا فليس لديّ ما يُهمني من أهل مصر، وقطعت علاقتي بالجميع.

خالص تعاذيّ

ياسمين إلياس)

أغلقت ياسمين حاسوبها وهي تُفكر بشأن ما أرسلته، وترجّت من الله أن ينتبه كريم لِما بعثته ويكُف عن محاولات فضح الناس، لقد أعلمها نور بشأن علاقته بسارة، خان ذلك الحب بينهم، ودمّرته سارة، حاولت ياسمين جاهدة إبقاء تلك العلاقة بينها وبين نور سرًا حتى تهرب من الأضواء، رافضة الفن والسينما، مُبقية نفسها حاجز بينها وبين عالم الشُهرة، حتى تتفاجئ بتلك الخيانة التي كشفتها وكذّبها مرّات، ولكن، مع أصرارها في رفضه ورفض غيره من الرجال حتى لا تعود تتأذي أقرّ لها بحقيقة الأمر مُؤكدًا لها أنّه ولا يزال حتى تلك اللحظة يبحث عن النور داخله، وذلك الجانب الطيّب فيه، لقد خلقنا الله الإنسان بتول من الخطايا ما إن يقرن ذاته بها يُقتل حيًا كما أن جرى لشابّة الليل.

27 من ديسمبر 2004؛ قصْر النيل؛ في الصباح

كريم

استيقظ اليوم منزعجًا من بعد قراءة رسالة ياسمين، وأصبح يدور حول نفسه ولا يجد لها ردًا يُصدّها، يعلم إن حاول الرد برأي يعكس رأيها ستُعيد إرسال رسائل طائلة له فلا يستطيع إحصائها، وكانت ياسمين امرأة رغم عاطفتها فهي صلبة قويّة، ترُد الكلمة بعشرة ولا تهتم لأحد، وكان لا يتساءل كريم كيف أن جمعت علاقة بينها وبين نور، فالاثنان طبعُهما يميلان للحدة واللين في الوقت عينه.

اليوم قررت كارلا تحديد موعد معه بشكل خاص، فجلسا في قصر النيل وعلى جانبيهما استطاعها رؤية النيل وعمقه ومبني ماسبيرو وفنادق ضخمة يتذكر سارة كانت فيها، فيُشيح النظر أمامه لتقع عيناه على كأس المياه المُقدم له إلى جوار فنجان القهوة.

كارلا

أخذت إجازة اليوم كي تقوم بتلك المحادثة، لا تجد سببًا من كريم كي يتحدث مع سارة مُجددًا بعد أن طوّي الجميع صفحتها، بما فيها هي، حتى أن طوّت صفحة طارق ونزعت خاتم الزواج من يديها وأصبحت كل صلتها بعائلة شبانة كريم، لكن وعلى الرغم من ذلك، لم يُخالْ إليها أن يتحدّث معها ويعودون لتلك الجلسة.

تنظر إليه في تردد، فهي لا ترى فيه سوى طارق مما يزيد الوضع سوءًا، وباتت تشعر بالقلق لفكرة الحديث معه في شئون حياتها الخاصة التي لم تترك مساحة لأحد بالتطرّق إليها، وعندما ستُفضي، سيكون مع كريم! لا يُستبعد أن كريم يحمل في جيبه الآن مُسجل صوت لها، فكرت في هذا، فانقبضت معدتها وأُطبق فمها فتركت له الخطوة الأولى.

كريم

تنهّد تنهيدة استطاعت سماعها، وقد جذب اهتمامها. قال:

"لم أتوقّعْ رؤيتك... في الواقع لم أتوقّعْ حدوث كل ذلك... موتُ أخي... فُقدان وظيفتي... خسارة أشقائي، وخسارتكِ"

انْتبهت كارلا لكلمة "خسارتك" فأستجمعت قواها، وتشبّثت يدها بأقرب شيء لها، وأحكمت تطويق قدح المياه بأصابعها قبل أن تقول: "لم تخسر أشقائك..."

زمّت شفتيها غير متأكدة مما قالته، حيث رفعت عينيها صوب كريم وهو يرجع للخلف قائلًا:

"آه، قولي غير ذلك"

"رُبما... لقد حاولت والدتك قبل وفاتها أن تجمع بينكم، أنت وإسلام وطارق، ونور وخالد لتكونوا عائلة واحدة متماسكة، لكنهم انفرطتم كحبات العقد قبل وفاتها، وبعد وفاتها، وأصبح السؤال بينكم صفر، هذه *إحدى* الأسباب التي جعلتني ابتعد عن طارق، الشتات والتفرّق، سارة ليس لها دخل بذلك، على العكس، لم تحاول التفرقة بينكم، لم تفتعل المشاكل، كانت... كانت تشعُر أنها بين عائلة عندما تواجدت بيننا في الصعيد، وشاهدت كيف كُنا نقف سويًا، وشافت الوفاة من بدايتها إلى نهايتها، رأيت فيها حُزن الكون"

رفع كريم حاجبيه لِما يسمعه.

"أتُدافعين عنها الآن؟"

ابتسمت كارلا كأنها تعتذر، ثم مالت رأسها في حزن.

"لا أُدافع عن أحد، لكنني رافقتُ سارة في سنة الامتياز خاصتها، شاهدت فيها عاطفة لو وُزِعت على طُغاة العالم لنزلوا يفرشون الأرض ورود"

ضمّ كريم حاجبيه منزعجًا، وودّ لو ينهي الجلسة.

"ماذا تُريدين يا كارلا؟"

"كريم... أنت تعلم ما أُريده... لا تُفكر في نشر هذا المقال لسبب أو لآخر، لا أُريد أن تُنشر قصّتي وقصة زوجي، أنت تفهم، وهذا حقي".

إنّهُ عراك العقل والقلب والروح، نضالٌ لن ينتهى أمده في النفس، قتالٌ يعيش مع الإنسان وداخله ويستنزفه يومًا بعد يوم، ذلك الصراع الأبديّ، ليست القصة فتاة ليل، في واقع الأمر لم يتحاور صحفيّ مع فتاة ليل من قبل ونشر حوارها(6)، هُناك أخبار عن فتيات ليل ورجال على الأرشيف لم تُذِعْ حتى الآن وقضايا تعود لفترة ما بين سنة 2002 إلى 2004.

كانت قصة التوبة تمر في الصعيد عندما أخذها إسلام من محله إلى الصعيد، وكان اليوم الثامن تمضيه هناك، استطاعت أن تأكل وتشرب كما تُريد ولكنها لم تُكثر في مقدارها، وأصدر لها أمرًا بملازمة والدته المريضة في شدتها، فكانت تشهد سارة بعض الأمور الغريبة التي ظنت ولوهلة، أنها الوحيدة التي تُشاهد مثل هذه الأشباح، فكانت تهز السيدة يدها وتقول لسارة: ابعديهم عني! إنهم يحاولون أذيتي.

تكتّمت سارة ذلك الحديث بينها وبين السيدة، حتى كان في أمسية الليلة الثامنة جلست بجانبها على الفراش الوثير وأخذت تعبث في هاتفها، ثم قالت السيدة: لا تدعي أحدًا يدخل. قالت سارة: لكنكِ تُحبين تواجد إسلام معكِ دائمًا.

لم تتمكّن السيدة من هزّ رأسها بحركة بسيطة، إذ تمتمت بصوت خافت كصرير الفئران لا يُسمع: لا أريد تودعته. ظلّت سارة رابضة بجانبها، حاولت أن تحصل على قسط من الراحل بالخروج من الغرفة، لكنها تفاجئت بالسيدة تطلُبها بالبقاء معها، وكُلما يدخل أحد من أبنائها تطرده من الغرفة كي لا يعود، إلا سارة ظلّت باقية جانبها حتى فجر اليوم التاسع.

باشرت سكرات الموت، ورجحت السيدة ليلًا قبل انشقاق السماء بنور الفجر: لقد مات نصفي التحتي، وألتصق لسانها في حلقها من شدة الهلع وما قيّضه القدر.

---

(6): ليس لديّ من المصادر ما يُثبت أنّ هناك صحفي تحاور مع فتاة ليل، لم يحدث ذلك سوي مع صحفيّة، ووضحت فتاة الليل في مدة لا تتجاوز دقيقتين ونصف عن جزء من معانتها، وتمّ نسخ تلك المعاناة داخل الرواية، وغالبية الحوارات مع فتيات ليل في أقسام الشرطة كما عرضت مرة صحفية، فالحكومة ترفض فتح ملفات فتيات الليل بشكل أو بأخر . (المؤلفة)

حينها تطلّعت سارة إلى وجه الغالب عليها قضاء الله كيف أن كان يميل إلى الزُرقة كزرقة المحيط، وتُغمغم بكلمات لا تفهمها فتيقّنت أنها تتحدث لروحٍ ما تُشاركهما الغرفة، وكانت ثواني غفلة، وأطلقت صرخة كادت أن تُطيح بها الأشجار والبيوت، وشهقت شقهة كانت هي الأخيرة، فانتفضت سارة من مجلسها، وتقلقل قلبها كبندول ساعة وتساقطت الكلمات من على لسانها كسقوط حبات الرمل من قبضة اليد، هزّت يدي السيدة مرّات، وشاهدت كيف تتسع عيناها للأفق، وجسدها يفقد صلته بالدنيا.

ضغطت سارة على قلب السيدة بكلتا يديها، مرات في مرات، وكانت كل ضغطة تعتصر فُؤاد سارة الغاص، ويرهب قلبها هلع الموت، حلقت النفس في فضاءٍ شاسعٍ، وروحٌ تُبعث، وشياطين تُغادر، وملائكة تحوم، ونفسٌ تُقاسي، وعينٌ تفجع، واختبار يُقتضي، ورهبة تنتصر.

لقد قُضيت حياتها.

أطلقت سارة لساقيها الريح خارج المنزل، وكان الجميع في غفلة، والملائكة تطوّق المستقر، الأدعية تُتلي سرًا، وروح الناسكة في المرقد، بدنها البالي يُنادي بدفنه، لا أحد يعلم بشيء، أتهرب قبل بوادر الظلمات؟ نكست طرفها وانحنت من الرهبة هامتها وانثنيت دهشة، ونفسها جزعة، وقلبها يتآكل مخافة.

إنها الروح، ونتاج العقل والعاطفة، ولا يُخلق إنسان بدونها، فلما أعلمت سارة أهل البيت بخبر الوفاة، وبعد حين من الحزن والكرب، شاهدت كيف كان ينحب طارق وكريم كنحيب الذئاب ليلًا، أبصرت نورًا يتّخذ جانبًا بعيد عن الجميع لاذًا بالصمت والوحدة، فيما كان إسلام صامدًا كأنه يرى ما لا يرون ويسمع ما لا يسمعون، يقف يُشاهد حُزن المحيطين بهم ويُصبرهم، تلي آيات من القُرآن على رأس السيدة، وخرج من الغرفة مُحدقًا إلى سارة نافذًا أمره: لقد جاءت طاولة التغسيل.

رفعت سارة بصرها إليه وعينيها ممتلئتين بالدموع، وطار الهلع لا يزال يُصفق في رأسها:

– مَ... مَن سيُغسلها؟

قال عابسًا:

– لا يوجد امرأة غيرك هنا، ألستِ طالبة في كلية الطب وقُمتِ بتشريح الجثث؟

ولكنها جاهلة الوضوء فكيف لها أن تُغسل الطاهرة؟ وكانت دراسة التشريح تقتصر على الفرقة السادسة التي لم تصل إليها سارة بعد من علمها.

كما أفضى لها من قبل: إن أبلغ درجات الحكمة أن يفهم الإنسان نفسه، وما تلقّت سارة ذلك المعني عندما شاهدت صلابته في أقسى اللحظات، وإيمانه بالبعث في دار أخرى، وإيمانه بالقضاء والقدر إلى درجة مُخيفة أكثر من الموت نفسه.

ولَما صلّت ما كانت تتصوّر أن تُقام صلاتها الأولى بعد التوبة أن تكون صلاة الميت.

يُقال أنّ بعد ذلك، كانت سارة تُواظب على الصلاة حتى عند بداية سنة 2003، وفي شهر يناير كانت عمِلت في محل إسلام بشكل رسمي ولكنها رحلت لَما طالبته بالزواج ورفض القران، ثم أخذت تذكرة إلى السعودية لم تواجه متاعب فيها لحصولها على الجنسيّة السعودية، وهناك، قيل عن سارة أنّها لم تشهد بيت الله الحرام في الأرض المُقدّسة، فكانت ترنو بالنظر ترى المعتمرين يطوفون ولكن مركز الأرض بدا فارغًا، وبينها وبين البيت حاجز، فلَما حلمت بهذا الحلم تردد مرّات عن السفر، ومع الأيام اشترت بالنقود كتب دراستها، وراحت تقدم إجازة مرضية بمساعدة والد كارلا، فتأجلت امتحانتها، وعادت للكلية وصرفت علاج مرضها من الجامعة بمبالغ رخيصة، لكنّ سارة لم تتُبْ(*)، عادت إلى الانقطاع عن الصلاة وتعدّدت علاقاتها الاجتماعية، على الإنسان أن يبحث عن الجمال ذاته ويُقدم التوبة فإن لم يتغير بعد فهو لم يتُبْ، وقال أحدهم لن تبلغ من الدين شيئًا حتى توقر جميع الخلائق، ولا تحتقر مخلوقًا ما دام الله قد صنعه.

عندما تنصهر المادة بالروح يكون هدف الحياة هو الإرْتقاء بالوعي عن طريق دمج الروح بالمادة لتتكوّن النَفس، فلا يكون هناك سبيل لإفتراق القطبين، وبذلك، يتكوّن وعي وإدراك النفس مطابقًا مع الوعي الكُلي الداخلي، إذ أنّ مسيرة الإنسان تقتضى إلى أن يُصبح مدركًا ووعايًا لذاته، أن يعرف نفسه، وهذا لا يحدث في عيشة وضُحاها، بل هي مسيرة تطويرية يصبح فيها الإنسان قادرًا على إبصار نفسه مُستقلًا عن جسده ومشاعره وأفكاره أو عن شخصيته، لذلك، تكون مسيرة علاج سارة طويلة الأمد لم تتناولها الرواية.

(*): تقول الفلسفة الصينيّة: التظاهر بين الروح والمادة تظاهر للمبدأ الواحد نفسه وللطاقة الإلهية الخلاقّة الكُبري، إنّ الحد الفاصل بين المادة والروح خط غير مستقيم يوضِّح أن المظهرين دائمًا الإمتزاج (شاهد الرمز). إنه من المستحيل البقاء في مظهر واحد دون الآخر (قانون التوزان والإستواء) عندما يصل أحد المظهرين لحده الأقصى يبدأ المظهر الآخر بالظهور لإعادة التوازن، كثيرًا ما تكون الأمراض محاولة لإعادة التوازن المطلوب، فالمرض ليس بعقاب أو علامة ضعف بل مستوي طبيعي لإعادة التوازن والإدراك.

أمّا والدة سارة، فقد كانت تعلم بقصتها طيلة الفترة الماضية منذ دخولها المستشفى للمرة الثانية، لكنّها تكتمت ذلك الخبر، واللهم لا حزن، فلم تُبالِ لموتها، وإنما واجهت صعوبات في المكوث داخل المنزل بمفردها، فقوّت صداقاتها في الجامعة واصطحبت أصدقائها للمنزل، وعادت سارة كما أن كانت، إلا أنّها في مرة، صادفت نور في ملهى بالهرم، هاجرته ياسمين بمشاجرة أمام الأعين،وعندما جلست معه، اشتعلت الشهوة في عينيها، وجذبته إليها حتى مكان منزله، تلاحمت أجسادهم، وفتحت له جسدها كما لم تفعل من قبل، وفي خاتمة السهرة ألتقطتت له صورًا تُبرز دمامته مُحققة رغباتها في الثأر.

كان يرام كريم للوصول إلى سارة طيلة الفترة الماضية سنة 2003 لكنه أخفق أشدّ الإخفاق، تلك الحول التي خسر عمله وتوفي قرّته خالد، وتفرق كل فرد من عائلته في منزله، وكانت سارة تمرُّ بين البيت والآخر، لِمَ! كانت عرضت على إسلام الزواج مرّة أخرى على شرط أن يسكن في شقتها، فلم يقبل بها قائلًا: أنتِ فتاة ليل، لن يتقبّلك المجتمع حتى إن أقدمتِ توبتكِ، إنما التوبة لنفسك.

لا تكمن المعضلة في الداء النفسيّ لدي سارة، على مدار سطور الرواية شاهد القارئ كيف أنّ دُعاء مُصابة بذلك المرض النفسي، وتلك السيدة التي ماتت جوار سارة، وكريم نفسه! وأوقعته عاطفته في حُب كارلا. السبب الذي جعل كريم يقوم بالحوار الصحفي مع سارة وليس بسنت، هذا ما جعل سارة تحتاج إلى أن تتحدث مع أحد تعرف أنّه سيتفهمها، وهو كريم، على رغم من حبه للفت الأنظار حتى لو بطريقة غير مشروعة، لكنّه كان حتى قرر كتابة الحوار الصحفي فكان ناجحًا.

لقد صرف كريم نظره عن كتابة المقال الصحفي، وأصبح يدور في عيادات نفسيّة، فذلك المرض كالشهوة، والشهوة كالغريزة، والغريزة في تكوين الإنسان، والإنسان مؤلوف من الخير والشر، وإن رأي في داخله الخير سيجتنب الشر، لقد نظّم الله هذا الكون بقواعده وأعطي لكل شق في الإنسان أوامره، ولو تحكّم العقل في الجنس والعاطفة والجسد والروح لنجي من الضياع، فهذا التكافؤ الإحادي، البحثُ عن الخير في الذات، ألسنا نعيش في تضاد؟ والشتات بما ينقال، والتماثل بالكمال، فالارتقاء يحدّ من تلك الصراعات، ويكشف عن دنس إبليس بما خلّفه في لاوعي الإنسان، فإن كانت سارة رمزٌ لأمراض المجتمع وتناقضه، وبسنت رمزٌ للألم والجنس، وياسمين رمزٌ للعاطفة، وكارلا رمزٌ للعقل والجسد، فكان أنْ طارق رمزٌ لنفس الإنسان الضعيفة، فنور رمزٌ لسائِل السكينة، وكريم رمزٌ المناظرين لسطحية القضايا، وإن كان إسلام رمزٌ لفِكر المجتمع، فكان أن والده رمزٌ لثقافة مُجتمعنا، ووالدته رمزٌ آخر للنماذج المريضة الحيّة بيننا، وإن كان خالد رمزٌ للنفس الهالكة بين ضحايا الشر، فكانت عائلة شبانة رمزٌ آخر للشتات

والتفرق الاخلاقي والنفسي داخل بيوت المجتمع، فكان هذا كله التوحد بين عالم الليل وبين شرائح المجتمع بفكرهم وثقافتهم ومناصبهم، إن كانت وظائف كل فرد من عائلة شبانة ومعارفهم هي أكثر الوظائف المحيطة حول فتيات الليل من صحفيين وضُباط وأطبّاء وعارضات أزياء ومنتجين، فكان ذلك لاكتمال صورة عالم الدعارة الذي لا يقتصر ائتلافه على فتيات ليل ورجال بغاء وقوادين، بل إنّه مُحاط بسياسة، وصحافة، وشُهرة، ومال.

أُلقي حتف بسنت وكُبلت يداها بتُهم عدّة، عندما كانت هاربة بعد تحليل إصابتها بالسرطان بحثت في القصر العيني عن طبيب يقوم لها بالعملية، وأدْعت ما أدْعته بالقول فأفترت حتى استُأصل الرحم المتكدس من بين ضلوعها، ولو ظنّ السامعين أنّ هذه نهايتها، فقد كانت البداية لدخولها في عالمٍ آخر وقيدت في صُحف السماء بالمثلية، فلاقت الداعرة من البؤس ما خلفته لها الحياة، وقبّلت شابة فسحرها التلامُس، وكانت بسنت كغيرها من الكثير والكثير من غادات الليل يمارسن الانحراف والشذوذ، ثم ماذا؟ ثم أن جاوزت عشر سنين وفي عام 2012 قدمت نفسها على طبق ذهبي لرجال الشرطي وجرى الحوار بينهم على نحو يُدهش الآذان!

قالت المليحة وعيناها تستحلف بالشر:

– أُريد أن أُسلم نفسي عن عقوبة التحريض عن الإثم.

فدُهشت دهشة الضُباط:

– من أنتِ!

– أنا فتاة الليل التي تفتح أبواب نُزُلها للغُرباء، وأنا التي تدرى الحكومة بمقر مُستقري، وأنا التي لا أسلُمُ من الفوضى، فإذا بي أفتح ملفّي المتعفّن على رفِكم الجامع بين فتيات ليل ورجال أعمال وأصحاب مال، ملف فتيات الليل الذي لا يرمى أحد له بال.

سألها ضابط في فضول بعد أن زلزّلت قواعد السلوك بينهم، وزعزت المقام.

– ما اسمك؟

– أُدعي بعشرين اسم، لا أحد يدري باسمي الحقيقيّ، لا أقبل التوبة.

ويا للعجب! إذْ لم يُقدمْ لها بلاغ للمرة الأولى فأشاح القانون عنها وتبرأت العقوبة من إثمها، وصدروها للشارع، فرفضوا قولها مُدعين أنها مُضطربة نفسيًا مُصابة بعته! فلا يوجد امرأة تُسلم ما بقيّ لها من الدهر في بطون السجن، ويتساءلون عنها لَما تبخرت من مقامهم، فكانت أن جاءت تُسلم نفسها

كي تنتقم من الضُباط الذين ألحقوا الضرر بها، ولن تغفل، ولن تملّ! وقالت: كنتُ الأشْهر في شارع الهرم، ولا أزال موجودة بينكم، تروني وأراكم، لكنكم لا تعرفون الوجه الآخر مني.

وعادت الزانية إلى ما كانت عليه غافلة الطب لأجل غير مُسمي!

بحث كريم عن الجانب الآخر فيه، أسلم عن كتابة المقالات والبحث وراء الضجّة، فنثر مخزون أفكاره في مخطوطة ورقية، ولم تخذلْه الحروف عن الوصف، فكان آخر الأقوال التي سجّلها من فتاة الليل "لا فائدة من تسجيل اعترافات فتاة ليل، نعلم أنّ هذا العالم لن يُصدِّقنا، ولذلك لا نُريد كسب عاطفتهم، نحن فخورين بقلوبنا، نتعرض للطعن، الخيانة، الكسر، الجرح، الحرق والغش، ولكننا بطريقة ما لانزال ننبُض في كل زُقاق، فنحن لسنا ظاهرة، وإنّما واقع لابُد من معالجته" نشرها الصحفي تاركًا سارة مع الأخرى بسنت يتعاركون ويتشاجرون على نحو عاصف، إنها حياتهم التي لن تمل من العراك.

طالبة الطب؛ فتاة الليل؛ عندما يتحوّل الإنسان إلى حيوان؛ القضيّة لا تزال مفتوحة.

شُكر أخير وإهداء أثير

استهل الشُكر إلى الرقيب البصير، الجابر والغافر الله - عزّ وجلّ - وفي اسمه اتحد التسع والتسعون اسم وأسماء جلّة لا علم لنا بها.

أوجه الشكر الخالص، وأرق كلماتي، وإن خذلتني الأبجديّة في هذا؛ إلى مَن ساند خطواتي في هذه الرواية ياسين ضيّاء، دُمت مسرورًا هنيئًا.

عندما شرعت في كتابة هذه الرواية مضيت في ضوائق الظروف كالثُعبان، وما بين القفول والترحال، والتنقل والتجوال، والتنسُك وحالات الوحدة، والغصّة بفقدان عزيزةً عليّ، لكنتُ أقلعت عن الكتابة وقدّمت خطوة النشر، لكنني استجمعت ما بقيّ لي من قوى، وساندني والدتي، ووالدي، وأقاربي، وأراء أصدقائي، والمُحيطين بي و أود أن أهبْ الرواية إلى:

روْح جدتي الناسكة الطاهرة، أنتِ في العلو رُزقتِ السمو.

وإلى من قرأ لي قبل النشر (إلى شيماء شعبان، ومحمد البدراوي، وناني عبد الغني، ومحمد خالد، ومحمد يوسف، وعلى بدوي، وأحمد علي (انتظر روايتك)، وشروق محمد، وأسماء محسن، وقرينتي ماريهان زاهي، ومريم نصر، وسعاد جِهاد، وأحمد عثمان، وإيمان البدراوي، وإلى محمد سعيد مالِك موقع ربيع الكتب وصاحب الفضل الأول لظهور روايتيّ)

إلى عائلة بوك كافيه بالأخص يوسف سعيد، ومريم جمال، وتيمو، ومريم، وهاجر وسارة.

إلى كل قارئ تعذّر عليّ ذكر اسمه، وإلى الأطباء النفسيين والمعالجين من بينهم (المعالجة مُني، والطبيبة نِهاد، والطبيبة غادة الحلفاوي فردٌ من أفراد عائلتي التي لم ينسب اسمي لها.

وأخيرًا إلى الفنانة حنان ترك، أوّل من أطلع على فكرة سلسلة الضياع.